مكتبة الدراسات الأدبية

٤٦

الدكتور حسين عطوان

الشعراء الصعاليك في العصر الأموي



دار المعارف بمصر

الدكتور حسين عطوان

الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى

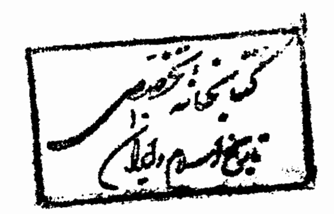
دار

الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى

حين تقرأ عنوان هذا الكتاب تذكر به الشعراء الصعاليك الذين عاشوا فى العصر الجاهلى ، يضربون فى البيداء ، ويعيثون فى جنباتها فساداً ، يشذون عن العرف ، ويتمردون على التقاليد ، وينهبون ويسلبون ، ويؤمنون بأن الدنيا لمن غلب ، والحياة للأقوى . وقد سجلت أشعارهم حياتهم هذه التى اعتقدوها الوسيلة الوحيدة لتحقيق العدالة الاجتماعية ، فى رأيهم . . . .

فلما أشرق نور الإسلام بمبادئه القويمة حل مشكلات هؤلاء الصعاليك ، وكفل لهم حياة آدمية ، وهدى بتعاليمه هؤلاء الشذاذ ، ولكنا — برغم هذا — رأينا صعالكة جديدة تظلل العصر الأموى ، وتقتحم على الناس أمنهم ، وتضرب بكل النظم والتعاليم عرض الحائط ! فما الدوافع التى ساقتهم إلى هذا المفكر ؟ أهى عوامل اقتصادية ، أم عوامل اجتماعية ، أم عوامل سياسية ، أم ضعف الوازع الدينى ، أم تغلغل روح الشر فى نفوسهم ؟ . . . . ومن هم أعلام الصعاليك فى ذلك العصر ؟ وما آثارهم الأدبية التى طبعتها حياتهم بطابعها الخاص ؟

ذلك ماتناوله هذا الكتاب ، وعرضه فى صور واضحة كاملة المعالم .



الشعراء الصعاليك

في العصر الأموي

مكتبة الدراسات الأدبية

٥٦

الشعراء الصعاليك
فى العصر الأموى

تأليف

الدكتور حسين عطوان



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . ع . م .

الفهرس



المقـدمة

درس أستاذى الدكتور يوسف خليف الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ، دراسة نالت استحسان الباحثين وثناءهم ، وأصبحت عمدتهم ، لما امتازت به من الجدة والدقة والاستقصاء .

وفى أثناء إعدادى لرسالة الدكتوراه عثرت على أسماء بعض الصعاليك الأمويين فى المصادر التى كنت أطلع عليها وأفيد منها ، فراودتنى فكرة جمع أخبارهم وأشعارهم غير أننى أخَّرْتُها إلى حين ، كما رأيت أن أعرض الموضوع على الدكتور يوسف خليف لكى أستضىء برأيه فيه ، فهو أوثق اتصالا به منى ، وأعرف لخفاياه ، فشجعنى وزودنى بملاحظات فتحت أمامى أبواباً كنت أجهلها ، ومسائل لم أكن أعرفها .

وقد مضيت أجمع أخبارهم وأشعارهم ، وأعكف على مراجعتها ومعاودة النظر فيها حتى تمثلتها تمثيلاً أدّانى إلى قسمتها بين أربعة فصول ، قدمت لها بالحديث عن حركة الصعلكة فى صدر الإسلام ، واتضح لى أنها ضعفت فى هذه الفترة لأسباب عديدة أهمها أن الإسلام حل المشاكل التى ثار الصعاليك الجاهليون بسببها ، إذ سوّى بين الناس ، وكفل لهم الحياة الكريمة ، وأحاط المجتمع بالحدود التى تحافظ على النظام ، وتضرب بشدة على أيدى المنحرفين من لصوص وقطاع طرق ، وعابثين فى الأرض. وتأثر بعض الصعاليك المخضرمين بالإسلام وتعاليمه ، وأخذوا يصدرون عنها فى أشعارهم التى نظموها بعد إسلامهم ، مؤمنين بأن عهد الفوضى والظلم قد ذهب ، وحلّ محلّه عهد الحق والعدل والخير . غير أن نفراً منهم لم يتحولوا عن مبادئهم الجاهلية ، بل ظلوا يعتقدونها مصطنعين الإغارة للسلب أسلوباً فى حياتهم ، كما توقف غيرهم عن الغزو والنهب ، ولكن ظل فى نفوسهم شر كثير تسلط على تفكيرهم ووجه سلوكهم ، فإذا بعضهم رقيق الدين ، متهالك على الملذات ، وإذا غيره متمرد سليط اللسان .

وتحدثت فى الفصل الأول عن عوامل ظهور الصعاليك فى العصر الأموى ، ووقفت عند ثلاثة منها هى : العامل الاقتصادى ، والعامل الاجتماعى ، والعامل السياسى . فقد عسف الأمويون بالقبائل وأهل الأمصار الذين لم يقفوا بجانبهم ولا ناصروهم ، وظلموهم ظلماً فادحاً ، فارضين الضرائب والصدقات الباهظة عليهم دون مراعاة لإملاقهم أو جدب أرضهم ، ومستبدين فى استيفائها منهم ، وكانوا أيضاً لايجرون عليهم ما لهم من حق معلوم فيما يرد إلى بيت المال من الأموال ، بل كانوا يجرون على أعوانهم وأتباعهم العطاء والصِّلات الضخمة لكى يظلوا أوفياء لهم لا ينقدونهم ولا يتخلفون عن مناصرتهم . وبذلك انتشر الفقر بين هذه القبائل ، وأخذت تشكو وتستغيث مطالبة برفع الظلم ، غير أن بعض أفرادها تمردوا على سياسة الأمويين المالية الجائرة ، وصمموا على انتزاع حقوقهم بأيديهم .

وتمسكت بعض القبائل العربية بكثير من تقاليدها ، وخاصة تقليد الخلع الذى كانت تلجأ إليه لتتخلص من شرور بعض الفاسدين والمجرمين من أبنائها . وعلى نحو ماكانت تتبرأ منهم فى الجاهلية ولا تنهض بتحمل جرائرهم ، صنعت معهم فى الإسلام ، فهاموا على وجوههم بعد خلعها لهم وتخليها عنهم ، وزاد من شقائهم أن الدولة أخذت تطاردهم وتجتهد فى القبض عليهم لحبسهم وإنزال العقاب بهم ، فلم يجدوا غير التصعلك وتعاطى الإغارة وسيلة إلى حياتهم .

ومعروف أن الحياة السياسية فى العصر الأموى لم تكن هادئة بل كانت ثائرة ؛ إذ تَفَـرَّق العرب أحزاباً مختلفة كان لكل منها أهدافه ومبادئه ، وكانت جميعها مناهضة للأمويين ، فقمعوها بالقوة ، واستعانوا على قمعها بالقبائل اليمنية . وأدى هذا التصارع والقمع إلى ظهور بعض الصعاليك السياسيين الذين ثاروا على الدولة وعملوا من أجل الإطاحة بحكامها ، مستشعرين ظلمهم لقبائلهم أو ساعين إلى المراكز والجاه والسلطان .

وعرضت فى الفصل الثانى للصعاليك فى المجتمع الأموى ، وخاصة لطوائفهم وحياتهم وعصاباتهم وأعمالهم ومشاكلهم وأهدافهم . وبينت كيف أنهم تألفوا من ثلاث فئات هى فئة الفقراء ، وفئة الخلعاء والجناة الفارين من العدالة ، وفئة

الصعاليك السياسيين . وعاشوا جميعاً مشردين فى مجاهل الأرض ، وثائرين لكرامتهم وحقوقهم ، وصابرين على الشدائد ومتصفين بالشجاعة والبأس والعفة والنبل ، ومحترفين الإغارة والغزو للسلب والنهب . ولاحظت أنهم كانوا يغيرون على الأسواق والقوافل والقبائل كما كانوا يقطعون السبل إلا ما كان من عبيد الله ابن الحر الجعفى فإنه كان يغزو ولايات الدولة ويستولى على أموالها ، ولا يتعرض بسوء لأهلها .

وأهم مشكلة قاسوا جميعهم منها هى مشكلة الفقر ، وقد سعوا إلى التغلب عليها بالإغارة والاغتصاب ، مستهينين بالحياة ، ومقتحمين الأهوال دون خوف من الموت. وكان للصعاليك الخلعاء والجناة مشكلة أخرى هى إهمال قبائلهم لهم ، وتنازلها عن العصبية القبلية ، فثاروا عليها ونددوا بها داعين لها أن تتماسك وتحافظ على قوتها ونقاء دمائها ، وأن تنتصر لأبنائها ظالمين أو مظلومين . وبالمثل كان للصعاليك السياسيين هدف آخر ، وهو تقويض أركان الدولة والقضاء على خلفائها ، وتكوين دولة الصعاليك التى تقوم على العدل والمساواة .

وتكلمت فى الفصل الثالث عن أشعارهم وموضوعاتها وخصائصها . ووجدت أن أشعارهم طرأت عليها بعض الموضوعات الجديدة بحكم تغير الحياة الأموية . وأشهر هذه الموضوعات هو : وصف السجن ، لأن الدولة كانت تجدّ فى طلبهم وتزج بمن يقع منهم فى قبضتها فى ظلمات الحبس ، مقيدة إياهم ، ومعذبة لهم . وثانى الموضوعات الجديدة هو المديح ، وهم ينوهون فيه ببعض الخلفاء والعمال ؛ إما ليعفوا عنهم ويطلقوا سراحهم ، وإما ليتغافلوا عنهم ولا يراقبوهم ، كما مدح الصعاليك الخلعاء بعض المتمردين الثائرين على الدولة وسعاتها ، لأنهم كانوا يرون فيهم المثل الأعلى للشخصية التى يعجبون بها ويقدرونها . وثالث الموضوعات الجديدة هو الحنين إلى الاستقرار ومفارقة حياة التشرد والمطاردة والاغتراب عن الوطن والأهل والأزواج والأولاد . ورابع الموضوعات الجديدة هو التوبة والاعتذار والاستغفار لما فرط منهم من سيئات الأعمال فى صدر شبابهم .

وبجانب الموضوعات الجديدة ، التى استفرغوا فيها قسما من أشعارهم موضوعات أخرى قديمة ، منها وصفهم لتشردهم فى الفلوات والقفار ، وتصويرهم مصاحبتهم

لحيوان الصحراء ، وهجاؤهم للعمال الذين كانوا يتعقبونهم ، أو هجاؤهم لقبائلهم لأنها تخلت عنهم تنصلت منهم .

وتتصف أشعارهم بكثير من الصفات التى غلبت على أشعار الصعاليك الجاهليين ، إذ كانت فى جملتها مقطوعات لا قصائد طويلة إلا فى القليل النادر . وتخلصوا فيها من المقدمات التقليدية والأجزاء التى كانت تلى المقدمات ، وتمثلت فيها الوحدة الموضوعية .على أن أهم خاصة طبعت بها أشعارهم هى السهولة والسلاسة والأسلوب الواضح المستقيم الذى لا غموض فيه ولا غرابة فى ألفاظه ، مع ملاحظة أن بعض الكلمات الصعبة كانت تسقط إليه من حين إلى حين .

وخصصت الفصل الرابع للحديث عن أعلام الصعاليك الأمويين ، وترجمت فيه لثلاثة منهم ، كل واحد يمثل طائفة من طوائفهم فمالك بن الريب يمثل الصعلوك الفقير الثائر ، والقتال الكلابى يمثل الصعلوك الفاتك الخليع ، وعبيد الله بن الحر الجعفى يمثل الصعلوك السياسى الطامع .

أما مصادر البحث ومراجعه فكثيرة ومتعددة . وأخص منها كتاب الأغانى فإن فيه تراجم كثيرة للصعاليك الأمويين ، كما أن به مجموعة من أشعارهم . أما كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى فوجدت فيه ذخيرة ضخمة من أشعارهم نقلها عن كتاب اللصوص لأبى سعيد السكرى . ولم أعثر عليها فى غيره من المصادر ، ولولا احتفاظه بها لما استطعت أن أمضى فى البحث ، ولما تمكنت من إخراجه على هذه الصورة .

وأرجو أن أكون وفقت بعض التوفيق فيما قصدت إليه ، كما أرجو أن أكون قد أعطيت صورة واضحة بعض الوضوح عن الصعاليك الأمويين .

حسين عطوان

تمهيد

الصعاليك فى صدر الإسلام

١

ضعف حركة الصعلكة فى صدر الإسلام

يؤلف الصعاليك فى الجاهلية طائفة من الشعراء لها أشعارها بموضوعاتها ومميزاتها ، ولها أساليبها وغاياتها فى حياتها[١] ، وهى طائفة كان للبيئة الجغرافية ، والأوضاع الاقتصادية ، والتقاليد الاجتماعية أثر بعيد فى نشأتها ونموها واستمرارها على مدار العصر الجاهلى . فقد كانت البيئة التى نزلت بها القبائل العربية غير متساوية ولا متشابهة فى خصبها وغناها وجدبها وفقرها ، بل كانت متباينة فى ذلك تبايناً واضحاً . وزاد فى هذا التباين أن الثروة لم تكن موزعة توزيعاً عادلا على القبائل فى المدن والقرى ، مما أفضى إلى وجود طبقتين مختلفتين : طبقة الأغنياء من أصحاب الأموال الكبيرة أو الإبل الكثيرة ، وطبقة الفقراء المعدمين الذين كان فى حياتهم غير قليل من الكفاف والشقاء . ولعل هذا التناقض الصارخ لم يظهر فى منطقة أكثر من ظهوره فى مكة[٢] مما جعل بعض الفقراء الذين لم يكونوا يجدون مايقيمون به حياتهم يحترفون الغزو لاستخلاص أقواتهم .

وكان للنظم الحضارية التى تمسكت القبائل بها واحتكمت إليها أثر واسع فى نشأة طائفتين أخريين من الصعاليك غير طائفة الفقراء والبؤساء ، أولاهما طائفة الخلعاء الذين ساء سلوكهم ، وكثرت جناياتهم ، ولم يعد وجودهم بين قبائلهم خيراً لها ، بل استحال شرًّا عليها ، فخلعتهم وتبرأت منهم ، وأصبحت لا تطالب بحقوقهم إن اعتدى أحد عليهم ، ولا تقوم بتحمل جرائرهم

---

(١) انظر فى ذلك الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ، والعصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص : ٣٧٥ ، وتاريخ الشعر السياسى لأحمد الشايب ص : ٤١ ، والحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى ص : ٢٢٦ .

(٢) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام لبندلى جوزى ص : ٢٠ .

فى القبائل الأخرى . أما الطائفة الثانية فهى طائفة الأغربة السود ممن سرى السواد إليهم من أمهاتهم الحبشيات ، ولم يكونوا يعدلون بحكم التقاليد القبلية أبناء الحرائر العربيات ، وهاتان الطائفتان بدورهما لم يجد بعض أفرادهما محيداً عن التماس أرزاقهم برماحهم .

وخضوعاً لتلك الظروف الاقتصادية والنظم الاجتماعية تكوّن الصعاليك فى الجاهلية من ثلاث طبقات : طبقة الفقراء مثل عروة بن الورد[١] ، وبعض القبائل الفقيرة مثل هُذَيْل وَفَهْم ، وطبقة الخلعاء مثل حاجز الأزدى[٢] وقيس ابن الحدادية[٣] ، وأبى الطمحان القينى[٤] . وطبقة الأغربة السود مثل تأبط شرًّا[٥] ، والشنفرى[٦] ، والسليك بن السلكة[٧] . وجمع بينهم الجوع والضياع ، والتشرد والتمرد ، والثورة على المجتمع الجاهلى . ومضوا يحققون وجودهم ، ويفرضون أنفسهم على مجتمع لم يعترف بهم ، ولا وفّر أسباب الحياة لهم ، إما بقطع الطرق والإغارة على الأسواق ، وإما بنهب القوافل ، وسلب الإبل . وأخذوا يشيعون بينهم نوعاً من المساواة والعدالة الاجتماعية ، إذ كانوا يوزعون مايغنمون على أنفسهم . وتميز عروة بن الورد منهم بأنه كان يعطف على الفقراء ويقسم لهم مما يغنم . وقد توفرت فيهم كل الصفات التى مكنتهم من كسب أرزاقهم برماحهم ، وتحقيق وجودهم بإرادتهم ، إذ كانوا شجعاناً شجاعة نادرة ، عدّائين عدواً ضرب به المثل ، صابرين صبراً شديداً ، بصيرين بالصحراء ودروبها ومساربها ، وبالجبال وشعابها ونقابها ، وبالأسواق ومواسمها ، وبمناطق الخصب ومواضعها .

فلما أشرقت الجزيرة العربية بنور ربها اختفت ظاهرة الصعلكة فى صدر الإسلام ، إذ قل عدد الشعراء الصعاليك قلة ملحوظة ، وتضاءل نشاطهم تضاؤلا

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣ : ٧٣ — ٨٨ .
(٢) المصدر السابق ١٣ : ٢٠٩ — ٢١٧ .
(٣) المصدر السابق ١٤ : ١٤٤ — ١٦٠ .
(٤) المصدر السابق ١٣ : ٣ — ١٤ .
(٥) الأغانى (طبعة الساسى) ١٨ : ٢٠٩ — ٢١٨ .
(٦) المصدر السابق ٢١ : ٨٧ — ٩٤ .
(٧) المصدر السابق ١٨ : ١٣٣ — ١٣٨ .

شديداً . وهو اختفاء مصدره أن العوامل التى أدت فى الجاهلية إلى نشأتهم ، وحملتهم على التمرد والثورة ، قد ألغاها الإسلام واستأصلها ، وأحاط المجتمع بسياج قوى من القوانين التى كفلت للناس الحياة الكريمة . فقد هدم الإسلام النظام القبلى الجاهلى، وما كان يقوم عليه من الفرقة والتناحر بين القبائل، وما طوى فيه من تعصب كل قبيلة لأبنائها وثورتها لدفع الأذى والمكروه عنهم ، لما يربط بينها وبينهم من أواصر النسب ، وأشاع فيهم فكرة الأمة الواحدة المتراحمة التى لم تعد الرابطة القبلية هى التى تجمع شملها ، وإنما أصبحت الرابطة الدينية هى التى تؤلف بين قلوبها . وبذلك تحول العرب من نظام القبائل المتصارعه إلى نظام الأمة المتماسكة التى تدين بالإسلام، ويتساوى أفرادها فى الحقوق والواجبات دون النظر إلى أصولهم وأجناسهم ، فكلهم مسلمون، وكلهم متكافئون، لا فرق بين العربى والعجمى [١]، ولا بين الأبيض والأسود ، ولا بين الغنى والفقير ، وإنما أساس التفاضل بينهم هو الصلاح والتقوى لا الأصل والسلطان . ومضى الخلفاء يستنيرون بهذه التعاليم النبيلة وينفذونها تنفيذاً دقيقاً .

ولم تقتصر تعاليم الإسلام على الدعوة إلى التوحيد بالله ، والتسوية بين الناس ، فقد أرسى مجموعة من القواعد الاجتماعية التى تضمن للفرد الحياة الفاضلة ، وبين الحدود التى تضبط الأمن ، وتمنع الفوضى ، وتقضى على الفساد والانحراف ، ونظم الميراث والمعاملات أدق تنظيم [٢] . فمن الناحية الاجتماعية جعل الزكاة ركناً أصيلا من أركانه ، وناط بالدولة أخذها من الأغنياء ، وتوزيعها على مستحقيها من الفقراء والمحتاجين بالعدل والإنصاف ، وفى كثير من التراحم والتعاطف ، يقول تبارك وتعالى : «إنَّما الصدَقاتُ للفُقَراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » [٣] . وجعل لهم أيضاً حقًّا معلوماً فى الغنائم التى يستولى عليها المسلمون وهم يقاتلون المشركين ، وفى الفيء ، وهو كل مال يصل للمسلمين من المشركين من غير قتال ، كالعشور وهى الضرائب التى تؤخذ بنسبة العشر من قيمة بضائع تجار الكفار الذين يقدمون بها من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وكالجزية وهى المال الذى يدفعه من بقى على

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٣٣ .

(٢) العصر الإسلامى للدكتور شوقى ضيف ص ٢٠ .

(٣) سورة التوبة الآية ٦٠ .

دينه ولم يدخل فى الإسلام ، وكالخراج وهو المال الذى يفرض على البلاد التى فتحها المسلمون بالقتال [١] . وفى تاريخ هذه الفترة ما يدل على أن العمال كانوا ينفقون فى بعض الأحيان كل ما جمعوه من أموال الزكاة والجزية على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فى أعمالهم ، بحيث لم يكن يبقى منها شىء يدفع لبيت المال ، وأن الخليفة كان يقر لهم ذلك ويوافقهم عليه [٢] . ورغّب سبحانه وتعالى الأغنياء فى الإحسان والبذل وإنفاق الأموال فى وجوه الخير ، ووعدهم بأحسن الجزاء وأعظم الثواب ، « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » [٣] .

وأصبح الخليفة وأولو الأمر مسئولين عن تأديب المنحرفين والفاسدين وإنزال العقاب بهم ، جزاء وفاقاً لما قدمت أيديهم ، وإصلاحاً لهم ، وردعاً لغيرهم ، وهى مسئولية كانوا ينهضون بها مستأنسين بالحدود التى شرعها الله فى كتابه الحكيم ووضحها رسوله الكريم . فكل مذنب له عقوبته على قدر ذنبه ، فمن قتل فجزاؤه القتل ، وعلى أهله أن يقدموه لأولى الأمر لينال عقابه ، يقول عز وجل : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » [٤] ، « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » [٥] . ومن سرق فله أشد العذاب ، يقول جل ذكره : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » [٦] . ومن قطع الطريق وشهر السلاح على الناس فله أعظم العقاب ، يقول سبحانه وتعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعَوْنَ فى الأرض فساداً أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقَطَّع أيديهم وأرجلُهم من خلافٍ أو يُنْفَوْا من الأرض ذلك لهم خزىٌ فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » [٧] . ومن أتى الفاحشة كأن يزنى فله جزاء شديد ،

---

(١) انظر الزكاة لمحمد إسماعيل إبراهيم ص : ٥٣ .
(٢) المستطرف للأبشيهى ١ : ٩٦ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٦١ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٧٩ .
(٥) سورة البقرة الآية ١٧٨ .
(٦) سورة المائدة الآية ٣٨ .
(٧) سورة المائدة الآية ٣٣ .

يقول جل وعلا : «الزانية والزانى فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائة َجلدةٍ ولاَ تأخُذْكُمْ بهما رأفةٌ فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين [١] » . ومن شرب الخمر فعقابه أن يجلد ما يستحق ، وقد أورد ابن عبد ربه إحصاء لمن حد فى شرب الخمر فى صدر الإسلام [٢] ، وهو إحصاء ينبئ بأن الخلفاء لم يكونوا يتورعون عن حَدّ أبنائهم فيها .

وعلى هذا النحو كانت تعاليم الإسلام وقيمه وحدوده لخير الأمة وصالحها . فقد طهر نفوس العرب والمسلمين من الشرك ، فإذا هم مؤمنون بالله وحده ، وسوّى بينهم ، فإذا هم أمة واحدة لا فرق بين أبنائها إلا فى الفضيلة والتقوى ، وسنّ القوانين الاجتماعية التى تيسر للفقراء الحياة الكريمة ، إذ جعل الزكاة حقًّا واجباً على الأغنياء فإذا الأغنياء والفقراء متراحمون متعاطفون كأنهم نفس واحدة ، وأقام الحدود على المذنبين ولآثمين وردّ عقابهم للدولة .

وبذلك قضى الإسلام على العوامل التى كانت تُنْشِئُ الصعاليك فى الجاهلية وتدعوهم إلى التمرد والثورة قضاء شمل كل طبقاتهم ، أما الفقراء منهم فأجرى عليهم وعلى أمثالهم من أموال الأغنياء ما ضمن لهم أسباب المعاش [٣] وأما الخلعاء فانتهوا لأنه لم يعد من حق القبيلة أن تخلع ابنها وتطرده تخلصاً من شروره وجرائره ، فيهيم على وجهه ويحترف الإغارة والغزو طلباً للسلب والنهب ، وسعياً وراء أسباب الحياة ، وإنما أصبح من حق الدولة أن تقيم الحد عليه وتنزل العقاب به ، تأديباً له ، وصيانة للمجتمع من آثامه وجناياته وانحرافاته . وأما الأغربة السود من أبناء الإماء فقد سوّى الإسلام بينهم وبين أبناء الحرائر ، وجعل لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات .

وبجانب ذلك اشتغل العرب بالفتوح ونشر الدين فى آفاق الأرض ، مما أتاح الفرصة وفتح الميدان أمام الفرسان والفتاك وهواة المغامرة والمخاطرة لكى يثبتوا وجودهم ، ويستغلوا شجاعتهم وبطولتهم فى مجال مشروع ، يفوزون فيه بالثواب

---

(١) سورة النور الآية ٢ .

(٢) العقد الفريد وما بعدها . ٦ : ٣٤٨ .

(٣) انظر كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٥٠ ، ٩٦٨ .

العظيم ، وبالغنائم الكثيرة . فمن كان يمكن أن يكون صعلوكاً يكسب رزقه بشق نفسه لفقره وبؤسه ، أصبح إذا انتظم فى جيش الفتوح الإسلامية يجنى خيراً موفوراً ، ومالاً كثيراً ، وربما امتلك الجوارى والعبيد والدور والبساتين [١] .

٢

تأثر الصعاليك المخضرمين بالإسلام

لم تصل إلينا أخبار وأشعار إسلامية كثيرة للصعاليك المخضرمين ، وإنما نقلت إلينا أخبار وأشعار وفيرة للصعاليك الجاهليين . وهى ظاهرة ترجع إلى سببين أساسيين : الأول أن الصعاليك المخضرمين قلة قليلة بالقياس إلى الصعاليك الجاهليين ، فإن خمسة منهم هم الذين امتد بهم العمر ، حتى أدركوا الإسلام وهم : أبو خراش الهذلى ، وجُرَيْبة بن الأشيم ، وفرعان بن الأعرف ، وفضالة بن شريك ، وأبو الطمحان القينى . وأخبار هؤلاء الصعاليك المخضرمين وأشعارهم الجاهلية والإسلامية غير متعادلة ، فبعضهم نظفر له بأخبار وأشعار نستطيع معها أن نتبين حياته فى كلتا الفترتين ، مثل أبى خراش الهذلى ، وبعضهم تطغى أخباره وأشعاره الجاهلية طغياناً شديداً ، بحيث لا يمكن أن نعرف حياته فى الإسلام ، مثل أبى الطمحان القينى ، أما سائرهم فيكاد يكون كل ما نقل إلينا من أخبارهم وأشعارهم متصلا بحياتهم بعد إسلامهم . والسبب الثانى أن حركة الصعلكة ضعفت فى صدر الإسلام ، لتلاشى العوامل التى كانت تساعد على نشأتهم وكثرتهم ، ولفقدان الدوافع التى كانت تؤلف بين عصاباتهم ، وتوجههم نحو الغزو والإغارة ، لتوفير أسباب الحياة لأنفسهم فى مجتمع نبذهم وتنكر لهم .

وعلى قلة ما بين أيدينا من أخبار الشعراء الصعاليك المخضرمين وأشعارهم فى الشطر الثانى من حياتهم ، فإننا نستطيع أن نرى بوضوح عند نفر منهم تأثرهم بالإسلام واستجابتهم لتعاليمه ، بحيث توقفوا عن قطع الطرق وشن الغارات ، وكفوا عن التمرد والثورة ، إيماناً منهم بأن مجتمع الغزو والنهب قد انتهى ، وأن عهد الظلم

---

(١) الصعلكة والفتوة فى الإسلام ، لأحمد أمين ص : ٩٨ .

والفوضى قد أُديل منه لحياة قوامها العدل والإنصاف ، والإعتصام بالقانون والخضوع للسلطان . وخير من يمثل هذا الجانب عندهم أبو خراش الهذلى ، فقد كان فى الشطر الأول من حياته بالجاهلية صعلوكاً نشيطاً عاملا[١] ، معدوداً من فرسان العرب وفتاكهم[٢]، لصلابة نفسه ، وقوة قلبه ، وسرعة عدوه ، وكثرة غزواته ، وتعدد جناياته وتِراته . وكان الدافع الأول لتصعلكه استشعاره لما كان يعيش فيه من فقر وشقاء وخصاصة وعناء ، كما كان شعره سجلاً دقيقاً لحياته سواء من حيث تصويره لنفسيته واستعلائها على الحرمان والهوان ، وصبرها على المسْغبة مع العزة وإباء الضيم ، ونفورها من الغنى مع الذل والظلم ، ومن ذلك قوله[٣] :

وإنى لأُثْوِى الجوعَ حتى يَمَلَّنى   فَيَذْهَبَ لم يَدْنَسْ ثيابى ولا جِرْمى[٤]

وأَغْتَبِقُ الماءَ القَراحَ فَأَكتنِى   إذا الزَّادُ أَمسى للمُزَلَّج ذا طَعْمِ[٥]

مَخَافَةَ أَنْ أَحْيَا بِرَغْمٍ وذِلَّة   ولَلْمَوْتُ خَيْرٌ من حياةٍ على رَغْمِ

أو من حيث تصويره لغاراته وما كان يأخذ نفسه به فى أثناء تنفيذه لها من استعداد وعدو وحذر وترقب وانتظار وكر وفر ، ومن ذلك قوله يصف أحد رفاقه من الصعاليك الأشداء الأقوياء الذين رفضوا حياة العبودية والخمول ، وارتضوا الحياة العاملة النبيلة بما فيها من مشقة وتعب وخطر ، وقد رابطا فى مرْقبة خفية بالجبل تطل على طريق ضيق يسلكه الناس واحداً تلو الآخر ، تربصاً بفريستهما وأول من يمر بماله أمامهما[٦] :

لَسْتُ لِمُرَّةَ إنْ لم أُوفِ مَرْقَبةً   يبدو لىَ الحَرْثُ منها والمَقَاضيب[٧]

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٣٨ — ٤٨ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ١ : ٢١٢ .

(٣) ديوان الهذليين ٢ : ١٢٧ ، وانظر الأغانى ٢١ : ٤٢ .

(٤) أثوى الجوع : حبسه وصبر صبراً شديداً عليه . الجرم : الجسد .

(٥) الماء القراح : البارد . المزلج : الرجل الذليل البخيل .

(٦) ديوان الهذليين ٢ : ١٥٩ .

(٧) أوفى : أشرف . الحرث : النبات . المقاضيب : الأرض تنبت النبات الرطب .

فى ذاتِ رِيْدٍ كَذَلْقِ الفأسِ مُشْرِفةٍ   طريقُها سَرَبٌ بالناس دُعْبُوب[١]
بصاحبٍ لا تُنالُ الدَّهْرَ غِرَّتُهُ   إذا افْتَلَى الهَدَفَ القِنُّ المعازيبُ[٢]
بَعَثْتُهُ بسوَادِ الليل يَرْقُبُنِى   إذْ آثَرَ النومَ والدِّفْءَ المناجيب[٣]

وفى الجملة كانت حياته فى الجاهلية يوم أن كان معدماً مظلوماً متصعلكاً سلسلة من الغارات والغزوات لفرض ذاته وتحصيل قوته ، وكانت موضوعات شعره متصلة بها أوثق الاتصال ، وممثلة لها أدق تمثيل . أما فى الشطر الثانى من حياته بالإسلام ، فدخل فى دين الله ، وآمن وحسن إسلامه ، وانقاد لتعاليم الدعوة الجديدة انقياداً ظهرت آثاره على سلوكه فإذا هو لا يغزو ولا يغير ، ولا يثور للأخذ بالثأر ، وكأنه لم يكن صعلوكاً ، كما ظهرت آثاره أيضاً على موضوعات شعره فإذا هو يعزف عن أحاديث الفقر والتصعلك ورفاق الماضى ، وكل ما هناك أنه حزن حزناً شديداً على ساقه التى نهشتها حية بأخرة من عمره فى قصة مشهورة[٤] ، والتى طالما أسعفته فى الخلاص من أعدائه المتربصين به على طول الجزيرة العربية للأخذ بتراتهم منه[٥] :

لقد أَهلكتِ حيةَ بَطْنَ أَنفٍ   على الأَصحابِ ساقاً ذات فَضْل
فما تَرَكَتْ [عَدُوًّا] بين بُصْرَى   إلى صَنْعَاءَ يَطْلُبُه بِذَحْل

وكأنما قد صفّى الإسلام نفسه وهذبها ، وأخلاها من كل ما داخلها من بطش وسطوة وفتاك وتصعلك ، وأشاع فيها الهدوء والصبر والتمسك بالحق والعدل ، والامتناع عن التعدى والحمق والجهل ، وآية ذلك أن جميل بن معمر قتل أخاه أو ابن عمه زهير بن العجوة يوم حنين ، فلم يفعل شيئاً سوى رثائه له وتفجعه عليه ، وتنويهه بشمائله من الكرم الفياض والشجاعة النادرة ، وقرى الضيفان دون أن يهدد أو يتوعد ،

---

(١) الريد : حرف ناتىء من الجبل . الزلق : الحد . دعبوب : موطوء . سربٌ : يتسرّب الناس فيه بعضهم تلو بعض .

(٢) افتلى الهدف : أبعده عن أهله . القن : العبد . المعازيب : الاماء .

(٣) المناجيب : الضعفاء الجبناء .

(٤) الأغانى (طبعة). ٢١ : ٤٧ .

(٥) المصدر نفسه ص : ٤٨

بل إنه صرح فى آخر الأبيات التى رثاه بها بأنه غير قادر على المطالبة بثأره أو النهوض بقتل قاتله ، لتغير ظروف الحياة وقوانينها[١] ، وسيادة العدل ووجوب الأخذ بالحق والمحافظة عليه ، حتى ليشبه قواعد الدين الجديد وحدوده بالسلاسل التى أحاطت بالرقاب ، فإذا هو عاجز عن الفكاك منها والخروج عليها ، وإذا هو وأمثاله من فتاك الصعاليك ممن كانوا يتصفون بالطيش والغواية كأنهم شيوخ محنكون لا يستثارون ولا يستفزون ، بل يتريثون ، ويتأنون ، ويلوذون بالصبر الجميل ، يقول[٢] :

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدارِ يا أُمَّ مَالكٍ ... وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بالرِّقَابِ السَّلاسلُ

وعادَ الفَتَى كالكَهْلِ لَيْسَ بقَائلٍ ... سِوَى العَدْلِ شيئاً فَاَسْتَرَاحَ العَوَاذِلُ

ويردد أيضاً فى مقطوعة ثانية رثى بها زهير بن العجوة أنه لم يكن ليخاف قريشاً فى الجاهلية ، ولم يكن ليتخاذل عن أخذ ثأره منها إذا اعتدى أبناؤها على أقاربه ، لأنها كانت قبيلة كغيرها من القبائل ، أما فى الإسلام فإنه لا يهم بشىء من ذلك ، لأن الحكم صار إليهم والإمارة أصبحت فيهم ، وهم يسوسون الناس ويقضون بينهم بالعدل ، مع إحساسه بالغيظ والحقد على جميل بن معمر ، لأنه قتل قريبه ظلماً وعدواناً ، إذ كان بين الأسرى يوم حنين ، فضرب عنقه لإحنة كانت بينهما فى الجاهلية[٣] . ويبدو أن هذا هو السبب الحقيقى لسخطه لا كفره بقريش وتنكره للدين الجديد ، يقول[٤] :

فما كنتُ أَخْشَى أن تَنَالَ دماءَنا ... قريشٌ ولما يُقْتَلُوا بِقتِيلِ

وأَبْرَحُ ما أُمِّرْتُمُ ومَلَكْتُمُ ... يَدَ الدَّهْرِ ما لم تُقْتَلُوا بِغَلِيلِ

وحين هاجر ابنه خراش فى أيام عمر بن الخطاب ، وغزا مع المسلمين فأوغل فى أرض العدو اشتاق إليه أشد الشوق ، وتعلق به أعظم التعلق ، لأنه أحس الوحدة

---

(١) الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص : ٢٥٤ .

(٢) ديوان الهذليين ٢ : ١٥٠ .

(٣) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٤٠ .

(٤) ديوان الهذليين ٢ : ١٥٧ .

والوحشة والضعف ، لعلو سنه ، ومقتل إخوته ، وانقراض أهله ، وانعدام المعين[١] . فقدم إلى عمر وشكا إليه مشكلته مستلهماً حجته من آى الذكر الحكيم ، فليس من البر أن يتركه ابنه ويشترك فى الغزو ليفوز بالشهادة فى سبيل الله، فى حين أنه شيخ كبير قد بلغ من العمر عتيًّا ، وضعف ولم يجد من يعنى به ، وإنما البر فى أن يقيم بجانبه ليرعاه ويقوم على خدمته ، يقول[٢] :

أَلَا فا علمْ خِراشُ بأَنَّ خَيْرَ الـ ... مُهاجَرِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ زَهِيدُ

فإنَّكَ وَٱبْتِغَاءَ البِرِّ بَعْدى ... كَمَخْضُوبِ اللَّبانِ ولا يَصِيدُ

ويرجح الدكتور يوسف خليف[٣] أنه استوحى معنى البيتين السابقين من قوله تعالى[٤] : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » ، مما جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب بأن يعود خراش إلى أبيه ، وألا يغزو من كان له أب شيخ إلا بعد أن يأذن له[٥] .

ومثله جُرَيبة بن الأشيم، إذ كان فى الجاهلية أحد شياطين بنى أسد وفتاكهم[٦] ، وكان يغير على القوافل[٧] . فلما أسلم حسنت سيرته واستقام وعدل عن الإغارة والنهب . ومضى يعلن أنه آمن وابتعد عن كل شر ، يقول[٨] :

بُدِّلْتُ ديناً بعد دينٍ قَدُمْ ... كُنْتُ من الدِّينِ كأَنِّى حُلُمْ

يا قَيِّم الدِّين أَقِمْنَا نَسْتَقِمْ ... فإنْ أُصادِفْ مأْثماً فَلَم أُلِمّْ

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٤٧ .
(٢) ديوان الهذليين ٢ : ١٧١
(٣) الشعراء الصعاليك ص : ٢٥٦ .
(٤) سورة الإسراء الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .
(٥) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٤٧ .
(٦) المؤتلف والمختلف ص : ١٠٣ .
(٧) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٢ : ٧٧٣ .
(٨) المؤتلف والمختلف ص : ١٠٣ .

ونظيرهما يزيد بن الصِّقِّيل العُقَيْلي ، فإنه كان لصاً مشهوراً ببادية الحجاز ، يسرق الشاة والبعير . ولم يزل على هذه الحال يتلصص وينهب ، ويطلب فيهرب ، حتى مر به جيش وجهه عثمان بن عفان إلى الشام . فلما أبصر الجيش متوجهاً للغزو أخلص التوبة ، وسار معهم ، واستشهد فى سبيل الله . ومن شعره قبل وفاته قوله الذى يعلن فيه أنه تاب ، والذى يستغفر فيه أيضا لنفسه (١) :

أَلا قُلْ لأَرْبَابِ المَخَائِضِ أَهْمِلُوا ... فقد تابَ ممَّا تعلمُون يَزِيدُ (٢)

وإنَّ امرءًا يَنْجُو من النَّارِ بَعْدَما ... تَزَوَّدَ مِنْ أَعْمالِها لَسَعِيدُ

إذا ما المنايا أَخْطَأَتْكَ وصادَفَتْ ... حَمِيمَكَ فاعْلَمْ أَنَّها ستعودُ

فأنت ترى أن أبا خراش الهذلى تحول فى الإسلام عن الصعلكة تحولا أقصر معه عن التجرد للغارات ووصفها ، وآمن بالدين ، واستضاء بتعاليمه ، واستكان لنظمه ، واقتصر فى شعره على رثاء أقاربه أو رفاقه رثاء عدّد فيه خصالهم وألم لفقدهم ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الشعراء الجاهليين ممن رثوا أقاربهم . ولكنه يختلف عنهم فى أنه لم يغضب لهم غضبة جاهلية يحرض معها على الأخذ بثأرهم ، وإنما تجمل بالصبر ، وآثر الحق ، كما استمد فى شكواه لعمر بن الخطاب حين هاجر ابنه استمداداً مباشراً من آيات القرآن الكريم ، أما جريبة بن الأشيم فراح يجهر بأنه أسلم وجانب الإثم . وأما يزيد بن الصقيل العقيلى فأناب وكفر عن ذنوبه بالجهاد .

٣

رواسب الصعلكة عند بعض المخضرمين

وليس معنى ما قدمنا أننا لا نعثر على صعاليك مخضرمين ظلوا أقرب إلى حياتهم فى الجاهلية ، يعيشون إما للهجاء والشر ، وإما لقطع الطرق وسرقة الإبل والإغارة على القوافل ، وإنما معناه أن بعض الصعاليك المخضرمين تأثروا بالإسلام وأعرضوا عن الغزو والنهب مثل أبى خراش وجريبة بن الأشيم ويزيد بن الصقيل . أما بعد ذلك فنحن نظفر ببعض الصعاليك المخضرمين أو الصعاليك الذين عاشوا فى صدر الإسلام

(١) اللسان ٥ : ١٣٧ ، الكامل للمبرد ١ : ١٠٢ ، ومجموعة المعانى ص : ٣ .

(٢) المخائض : النوق إذا لقحت . أهملوا : أسرحوا إبلكم .

ولم يتعمق الإسلام نفوسهم ، ولا تغلغل فى قلوبهم ، ولا استقام معه سلوكهم ، وهم فريقان: فريق جنح عن النهب والإغارة ، ولكن ظل فيهم شر كثير ، وخير من يمثلهم أبو الطمحان القينى وفضالة بن شريك . أما أبو الطمحان فمن المعروف أنه كان فى الجاهلية صعلوكاً يسرق الإبل[١]، وكان من طائفة الصعاليك الخلعاء[٢]، فقد خلعته قبيلته وطردته لسوء أخلاقه ، مما جعله يستجير بأكثر من قوم ، ومما جعله لا يستقر عند حى حتى يرتكب فيهم ما يحملهم على التحلل من إجارتهم له وحمايتهم إياه[٣] ، فإذا هو يستخف بالحياة ويستهين بالموت ، ويقذف نفسه فى المهالك ، حتى أخذت زوجه تعاتبه فى غاراته وتلومه على ركوبه للأهوال والمخاطر ، وحتى صاح فى وجهها قائلا[٤] :

لو كنتُ فى رَيْمانَ تَحْرُسُ بَابَه أَراجيلُ أُحْبُوشٍ وأَغْضَفُ آلِفُ[٥]

إذًا لأَتَتْنى حَيْثُ كُنْتُ مَنيَّتى يَخُبُّ بها هادٍ بأَمرِىَ قَائِفُ[٦]

فَمن رَهبَةٍ آتِى المتالِفَ سَادِرًا وأَيَّةُ أَرضٍ لَيْسَ فيها مَتَالِفُ

ويظهر أنه كف عن الإغارة بعد إسلامه ، فإن القدماء لم ينبئونا بشىء منها فى الإسلام ، وإنما أخبرونا بأنه كان خبيث الدين فى الجاهلية والإسلام[٧] . وأما خبثه فى الجاهلية فنعرف أطرافاً منه تتعلق بانحرافه الخلقى واحترافه للسرقة ، وأما خبثه فى الإسلام فلا نعرفه معرفة دقيقة ، غير أننا يمكن أن نستنتج أنه خبث يتصل بضعف عقيدته وفسادها ، فقد أنشد له القدماء بيتين قالهما بأخرة من عمره يتفجع فيهما على شبابه ويجزع من شيبه ، دون أن يؤمل الخير وحسن العاقبة

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ : ٣ .

(٢) الشعراء الصعاليك ، للدكتور يوسف خليف ص : ٩٨ .

(٣) انظر الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ : ٥ – ١٣ .

(٤) المصدر السابق ص : ٨ .

(٥) ريمان : حصن باليمن . الأراجيل : المشاة . الأحبوش : الحبش . الأغضف : الكلب المسترخى الأذن .

(٦) يخب : يسير . الهادى : العارف بالأمر . القائف : متتبع الآثار العارف لها .

(٧) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ : ٣ .

فى الآخرة ، فكأنهم رأوا فى ذلك مظهراً من مظاهر ضعف عقيدته ، يقول[١] :

حَنَتْنى حانياتُ الدَّهْر حَتَّى كأَنى خَاتِلٌ أَدْنُو لِصَيْد
قَصِيرُ الخطو يَحْسَبُ من رآنى ولست مُقَيَّدًا أَنِّى بقيد

كذلك رووا له بيتين آخرين يبدو أنه هتف بهما فى آخر أيامه معلناً فيهما حرصه على التهالك على الملاهى قبل أن يقضى نحبه ، يقول[٢] :

أَلا عَلِّلانى قبل نَوْحِ النَّوائحِ وقبل نُشوز النَّفْس بين الجوانحِ[٣]
وقبل غدٍ يالهفَ نفسى على غدٍ إذا راح أَصحابى ولَستُ برائحِ

ورووا له أيضاً بيتين آخرين يجتر فيهما ذكرياته الماضية ، وكيف كان يحترس من المعاطب ، حتى إذا أمن خطرها انقض على ما يريد انقضاضاً ، يقول[٤] :

يارُبَّ مُظْلِمَةٍ لطيْتُ لها تَمْضي عَلَىَّ إذا ما غاب نُصَّارى
حتى إذا ما انجلتْ عنى غَيَايَتُها وثَبْتُ فيها وثوب المُخْدِرِ الضّارى[٥]

فكأن تلك الأشعار القليلة التى وصلت إلينا ، والتى نرجح أنه قالها فى الإسلام ، هى التى تدل على مظاهر خبثه بعد إسلامه ، وهو خبث يتضح فى عدم تأثره بالإسلام وتعاليمه ، فإذا عقيدته ضعيفة ، وإذا نفسه مضطربة قلقة ، وإذا هو مرتبط بالماضى أكثر من ارتباطه بالحاضر ، وإذا هو يريد أن يعكف على المتع أكثر مما يريد أن يعزف عنها .

وإذا كانت أخبار أبى الطمحان القينى وأشعاره الإسلامية نادرة بالقياس إلى أخباره وأشعاره الجاهلية ، بحيث لم نتمكن من استخلاص صورة واضحة لآثار الصعلكة فى نفسه سوى ما رجحناه من فساد عقيدته ، فإن كل ما وصل إلينا من أخبار فضالة بن شريك وأشعاره إسلامى ، مع أن القدماء يصفونه بأنه

---

(١) المعمرين والوصايا ص : ٧٢ ، وديوان المعانى ٢ : ١٦١ ، وأمالى المرتضى ١ : ٢٥٧ .
(٢) الأغانى ١٣ : ١٢ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣ : ١٢٦٦ .
(٣) نشوز النفس : خروجها عند الموت .
(٤) أمالى الشريف المرتضى ١ : ٢٦٠ .
(٥) المخدر الضارى : الأسد الكاسر . الغياية : كل ما أظل الإنسان فوق راسه .

« كان شاعراً فاتكاً صعلوكاً مخضرماً أدرك الجاهلية والإسلام »[١] ، وهى ظاهرة غريبة ، يذهب الدكتور يوسف خليف إلى أنها ترجع إلى المركز الاجتماعى لابنه فاتك[٢] ، فقد كان سيداً جواداً ممدحاً[٣] ، كما حظى بمركز ممتاز عند بنى أمية لأنه ظاهرهم على مصعب بن الزبير بالعراق ، مما جعل الرواة يحجمون عن تناقل أخبار تصعلكه فى الجاهلية .

ومع ذلك فإننا يمكن أن نستشف من مجموعة أشعاره الإسلامية ما بقى مسيطراً على نفسه من آثار تصعلكه فى الجاهلية . وهى آثار لا تُظهر أنه كان يغزو ويسلب وإنما تُظْهِرُ أنه كان سيىء الخلق ، متسرعاً إلى الشر ، حتى لقد استفرغ شعره فى « الهجاء المقذع » لأبناء الخلفاء والأمراء ، مع مدحه ليزيد بن معاوية بمقطوعة من خمسة أبيات لأنه عاذ به من عمرو بن سعيد بن العاص الذى استعداه عليه عاصم ابن عمر بن الخطاب[٤] .

فالهجاء هو أهم مظهر من رواسب الصعلكة عند فضالة بن شريك . وهو هجاء مقذع ، وزعه على غير واحد ، دون مراعاة للحياة الجديدة وما فيها من عفاف ونبل وتسام عن الخصومات ، أو استشعار لنهى الخلفاء عنه لما يثير فى النفوس من العداوات[٥] . فقد مر بعاصم بن عمر بن الخطاب ، وهو مقيم بإحدى بوادى المدينة فنزل به هو وأصحاب له ، وعرّفوه مكانهم ، فلم يُقْرِهم شيئاً ، ولا بعث إليه ولا إلى أصحابه بشىء من الهبات . فارتحل عنه مغيظاً محنقاً ، والتفت إلى مولى لعاصم ، فقال له : قل له : « أما والله لأطوِّقنك طوقاً لا يَبْلَى » ، وأخذ يهجوه هجاء فاحشاً منه قوله[٦] :

أَلَا أَيُّها الباغِى القِرَى لسْتَ واجدًا قِراكَ إذا مابِتَّ فى دَارِ عَاصِمِ

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ٧١ .

(٢) الشعراء الصعاليك ص : ٢٥٠ .

(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ٧٢

(٤) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ٧٤ .

(٥) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٢ : ١٨٥ .

(٦) المصدر السابق ١٢ : ٧٣ .

إذا جِئْتَهُ تبْغِي القِرَى بَاتَ نائماً ... بطِيناً وأَمْسَى ضيْفُهُ غيْرَ نائِم
فتًى من قريشٍ لا يَجُودُ بنائلٍ ... ويَحْسَبُ أَنَّ البُخْلَ ضرْبةُ لَازِم

وهو هجاء ينبئُ بما استقر فى نفسه الشريرة من تهوّر واستهتار ، وما ظل يؤمن به من القيم والعادات الجاهلية ، حتى استشاط عاصم غضباً وشكاه إلى عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة، فطلبه فهرب إلى الشام ولحق بيزيد بن معاوية فاستجار به ، فأمنه واستشفع له . فامتدحه ونوّه ببنى أمية[1] .

ولم يتعظ ولا ارتدع ، بل ظلت نوازع الشر والاستخفاف والانتهاز غلابة عليه مستبدة به ، فإذا هو يُوَلِّى وجهه شطر الكوفة، ويبايع عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير عليها ، فلما طرده المختار الثقفى عنها هجاه معيراً له بضعفه وجهله ومهدداً إياه بخيل أهل الشام التى ستمحقه محقاً ، يقول[2] .

دَعَا ٱبْنُ مُطيعٍ للبياعِ فجئْتُهُ ... إلى بَيْعَةٍ قَلْبِى بها غيْرُ عَارِف
ولم يُسْمِ إذْ بايعتُهُ منْ خلِيفتى ... ولم يَشْترِطْ إلاَّ اشتراط المُجازِف
متى تلْقَ أَهل الشام فى الخيلِ تَلْقنى ... على مُقْرَبٍ لا يُزْدَهَى بالمجاذف[4]

فهو يوماً مع بنى أمية يمدحهم ، لأنهم أجاروه وأمنوه . وهو يوماً يقصد عمال الزبيريين بالكوفة ، ويبايعهم ويدخل فى طاعتهم دون أن يعرف لماذا والاهم وانضم إليهم ، ثم لا يلبث أن ينقلب إلى هجائهم وتوعدهم ! والراجح أنه إنما بايعهم أملا فى عطاياهم ، ولكنهم فيما يبدو أخلفوا ظنه فيهم ، فلما طرد المختار الثقفى ابن مطيع عن الكوفة وجد الفرصة السانحة لهجائه والتنديد به ، إذ يذكر بعض الرواة أنه لا ابنه عبد الله هو الذي وفد على عبد الله بن الزبير وشكا إليه حاجته ، فلم يخلع عليه شيئاً ، فهجاه ورماه بالبخل ، وتمنى لو تغلب عليه فرسان بنى أمية الأجواد[5] .

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ٧٤ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٧٥ .

(٤) المقرب : الفرس الكريم . لا يزدهى بالمجاذف : لا يضرب ليسرع .

(٥) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ٧٧ ، وأنساب الأشراف ٥ : ١٩٧ .

ويضيفون إلى ذلك أن عبد الملك بن مروان لـمَّا استُخْلِفَ بعث يطلبه فوجده قد مات ، فأمر لورثته بمائة ناقة[١] .

وهجا مرة ثالثة رجلا كوفيًّا تزوج امرأة وسأل فى مهرها ، كما هجا معه أهلها الذين ارتضوه زوجاً لها مع أنه فقير ضعيف ذليل ، لا يقدر على إعالتها ولا يفيد فى الشدائد ، يقول[٢] :

أَنكحْتُمُ لا فتَى دنيا يُعَاشُ به ولا شجاعاً إذا انْشَقَّتْ عَصَا الدِّين

فهو يتعرض للناس تعرضاً ، ويتدخل فى أمورهم تدخلا ، مُبْتَغياً أن يسيِّرهم كما يحب ، وأنْ يخضعهم لما يؤمن به من المثل التى يُخْضِعُ نفسه لها وفقاً لمذهب الصعلكة ، فهو يريدهم أن يختاروا لابنتهم رجلا تتمثل فيه صفات الصعلوك من الكرم والبطولة والفتاك والابتعاد عن سؤال الناس ، وكسب الرزق بالقوة .

وهجا مرة رابعة رجلامن سُلَيْم أودع عنده ناقة ، وخرج فى سفر ، فلما عاد طلبها منه فذكر له أنها سرقت ، فقال يهجوه ويهجو قبيلته مبيناً كيف أنه أخطأ حين أودعها عنده ، وهو يعلم أن قبيلته مشهورة بالخيانة حتى لقد سرقت إبل النبى[٣] :

ولو أَنَّنى يَوْمَ بَطْنِ العَقِيق ذَكَرْتُ وذو اللُّبِّ يَنْسَى كثيرَا

مُصابَ سُلَيْمٍ لِقَاحَ النَّبىِّ لم أُودِعِ الدَّهْرَ فِيهِمْ بَعِيرَا

وواضح أن أبا الطمحان القينى وفضالة بن شريك يمثلان الصعاليك الذين أقصروا بعد إسلامهم عن التصعلك القائم على الإغارة والغصب . ولكنهما لم يستقيما كل الاستقامة ، فقد ظل أبو الطمحان رقيق الدين ، جازعاً من الموت ، عاكفاً على الملذات ، مردداً لذكريات الشباب ، يوم أن كان صعلوكاً عاملا فتيًّا يتربص ويغزو ويسلب . أما فضالة بن شريك فظل فى نفسه شر كثير ، وظلت آثار الصعلكة مسيطرة عليه موجهة له ، وظل متقلباً يهجو ويمدح وإن كان الهجاء قد غلب عليه ، وهو هجاء أفحش فيه ، وصبه على من أساء أو أحسن إليه .

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ص: ٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٧٦ .

أما الفريق الثانى من الصعاليك المخضرمين الذين لم يتأثروا بالإسلام أى تأثر ، فلم يعزفوا عن اصطناع الغزو والإغارة ، بل ظلوا يزاولون نشاطهم وأعمالهم للسلب والنهب . ومن الطريف أن نعلم أن بعضهم يصرح بأن الفقر والحاجة والعجز عن إعالة الأبناء هى التى دفعته إلى احتراف اللصوصية . وعلى رأسهم فَرْعان ابن الأعرف التميمى ، الذى كان شاعراً لصًّا يغير على إبل الناس فى صدر حياته بالجاهلية ، وفى خاتمتها بعد أن أسلم وكبر [١] ، يقول [٢] :

يقولُ رجالٌ إن فَرْعان فاجرٌ ... وَلَلّه أعطانى بَنِىَّ وماليا
فأَربعةٌ مثل الصُّقور وأَربعاً ... مَراضِيعَ قد وَفَّيْنَ شُعْثاً ثمانيا
إذا اصْطَنَعُوا لا يَخْبَئُون لغائبٍ ... طَعاماً ولا يَرْعَوْنَ من كان نائيا [٣]

فالناس يهتفون به ، ويرمونه بالفجور لميله إلى الإغارة على مال غيره لاغتصابه وانتهابه ، وهو يرد عليهم بأنه مضطر إلى السرقة ، فحاله سيئة ، وأولاده كثيرون ، منهم من كبر ومنهم من لم يزل فى المهد ، وهو عاجز عن توفير القوت لهم ، وهم فى جوع دائم حتى ليأكل الحاضر منهم طعام الغائب .

ومن هؤلاء الصعاليك الذين كانوا يترصدون للناس لينقضوا عليهم ويسلبوا أموالهم شبيب بن كريب الطائى ، فقد كان يصيب الطريق فى خلافة على ابن أبى طالب [٤] . ولما انتهى أمره إليه وعلم أنه يقطع الطرق على مشارف الكوفة بعث إليه أحمر بن شميط العجلى ، وأخاه فى فوارس فهرب وأنشأ يقول [٥] :

ولَمَّا أَنْ رأَيتُ ابْنَىْ شُمَيْطٍ ... بِسِكَّةِ طَيِّئٍ والباب دونى [٦]
تَجَلَّلت العَصَا وعَلِمْتُ أَنِّى ... رَهِينُ مُخَيَّسٍ إن يَثْقَفُونى [٧]

---

(١) المؤتلف والمختلف ص : ٦٤ ، والشعر والشعراء ص : ٦٤٤ ، معجم الشعراء ص : ١٨٨ .
(٢) الشعر والشعراء ص : ٦٤٤ .
(٣) اصطنعوا : صنعوا الطعام .
(٤) البيان والتبيين ٣ : ٨٥ .
(٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٢ : ٦٢٩ ، والبيان والتبيين ٣ : ٨٥ .
(٦) الباب : باب البلد .
(٧) تجلل : ركب على جُلِّه ولم يتريث لإسراجه خوفاً على نفسه . ثقف : وجد .

ولو أَنْظَرْتُهُمْ شيئاً قليلا لساقونى إلى شَيْخ بَطِين[١]

فهو يصف كيف أنه حين أبصر مُتَعَقِّبيه والباحثين عنه على أبواب الكوفة ركب فرسه العصا مسرعاً ، وفر بها نجاة بنفسه من العقاب الذى كان سيلقاه فى سجن المخيَّس[٢] .

ولكن أخبار هذا الفريق من الصعاليك قليلة ، فنحن لا نعرف شيئاً ذا بال عن فرعان بن الأعرف وشبيب بن كريب الطائى غير ما أثبتناه . ويلاحظ أيضاً أن جماعة من الصعاليك لهذه الفترة أخذوا يشاركون فى السياسة وينحازون إلى فريق دون فريق ، كما أخذوا يسلبون بعض المدن التى ثار أهلها وامتنعوا على السلطان ، إذ يروى البلاذرى[٣] أن أهل زَرَنج بسجستان[٤] أخرجوا أميرهم وأغلقوا مدينتهم فى أيام الاضطراب والفتنة بين على بن أبى طالب وأنصار عثمان بن عفان ، وأنه لما انتصر على بن أبى طالب على أهل الجمل خرج حَسَكَةُ بن عَتَّابٍ الحَبَطِيّ التميمى وعمران ابن الفصيل البرجمى — من أنصار عثمان — فى صعاليك العرب ، حتى نزلوا زالق بسجستان[٥] ، وقد نكث أهلها العهد ، فأصابوا منهم مالا . ثم توجهوا نحو زَرَنج وقد خافهم مرزبانها فصالحهم ودخلوها فقال راجزهم :

بَشِّرْ سِجِسْتانَ بِجُوعٍ وحَرَبْ بابنِ الفَصِيل وصعاليكِ العَرَبْ
لا فِضَّةٌ يُغْنِيهُمُ ولا ذَهَبْ

ولم يلبث على بن أبى طالب أن وَجه رِبْعِيَّ بن الكاس العَنْبَرِيَّ فى أربعة آلاف إلى سجستان ، فقتلوا حسكة بن عتاب الحبطى واستقام الأمر بها لِرِبْعِيِّ بن الكاس فقال أحد جنده فى ذلك :

نحن الذين اقْتَحَمُوا سِجستانْ على ابن عَتَّابٍ وجُنْدِ الشيطانْ

---

(١) أَنْظَرَ : أمهل . الشيخ : على بن أبى طالب .
(٢) انظر معجم ما استعجم ٤ : ١١٩٩ .
(٣) فتوح البلدان ص : ٣٨٧ .
(٤) معجم البلدان ٤ : ٣٨٥ .
(٥) معجم البلدان ٤ : ٣٨٥ .

يَقْدُمُنا الماجدُ عبدُ الرحمن إنَّا وجَدْنا فى مُنِيرِ الفُرقان

أَن لا نُوالِى شيعةَ ابن عَفَّان

ولعل فى كل ما قدمنا مايدل على أن الصعلكة قد ضعفت فى صدر الإسلام ضعفاً شديداً . فقد أزال الإسلام الأسباب التى كانت تخلق الصعاليك وتجمع بين فئاتهم ، إذ سوى بين الناس وأعطى كلا حقه ووفر عليه حظه من الحياة الكريمة دون مراعاة لأصله وقبيلته ولونه ، ووضع القوانين التى يعاقب على أساسها الخارجون على النظام والمتعرضون لأمن الناس وأرواحهم وأموالهم ، مما أدى إلى أن يتوقف بعض الصعاليك الذين أدركوا الإسلام عن الإغارة والنهب توقفاً مطلقاً إلا نفراً قليلا منهم استمروا يتأثرون بماضيهم وما طوى فيه من تهور فإذا بعضهم يهجو الناس ، وإذا بعضهم لا يكف عن الغزو والسلب .

الفصل الأول

عوامل ظهور الصعاليك فى العصر الأموى

١

العامل الاقتصادى

أهم ما يميز الحياة الاقتصادية فى عهد بنى أمية أنها لم تكن سليمة كل السلامة، وإنما كانت مختلة بعض الاختلال[١]، وهو اختلال لا يعود إلى قلة الأموال التى كانت ترد إلى بيت المال، وإنما يرجع إلى تعدد السبل التى كان ينفق فيها، وتنوع الغايات التى كان يجمع لها، فقد كان أغلب الخلفاء الأمويين محتاجين إلى الأموال أشد الحاجة، حريصين عليها أعظم الحرص، حتى لقد منحوا عمالهم كثيراً من الامتيازات اصطناعاً لهم، وتأميناً لموارد ثابتة تصل إليهم[٢]. فمن هذه الأموال كانوا ينفقون على دورهم وقصورهم وعطورهم وحواشيهم وأعوانهم وشعرائهم[٣]، ومنها كانوا يجهزون الجيوش تلو الجيوش للقضاء على الخارجين عليهم والثائرين بهم[٤]، وعليها كانوا يعتمدون فى استرضاء أنصارهم، وإلهاء خصومهم[٥]. ومما زاد فى ولعهم بها وطمعهم فيها أنها كانت تنقطع عنهم حيناً من الدهر، إذ كان أعداؤهم يستولون على بعض الأقاليم ويستخلصون صدقاتها وخراجها على نحو ما هو معروف عن عبد الله بن الزبير الذى احتجن أموال الحجاز والعراق ومصر، وعلى نحو ما هو معلوم عن نجدة بن عامر الحنفى الخارجى الذى أقام بالبحرين واليمامة وعمان وهجر وطوائف من أرض العِرْض، وعماله مبثوثون فيها يحتجزون أموالها[٦]، وعلى نحو ما هو ذائع عن عبيد الله ابن

---

(١) السيادة العربية فى عهد بنى أمية، لفان فلوتن ص : ٢٦، والتطور والتجديد فى الشعر الأموى. للدكتور شوقى ضيف ص : ١١٧، وتاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى، للدكتور على الخربوطلى ص ٣٨١

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى ١ : ١٥٧.

(٣) انظر العقد الفريد ٤ : ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٥٢، والفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٥، ١١٨، ١٢٠.

(٤) تاريخ الطبرى ٢ : ١٠٤٣، ١٠٤٦.

(٥) العقد الفريد ٤ : ٤٠٩، والطبرى ٢ : ١٣٨٩.

(٦) تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٩.

الحر الجعفى الذى كان يغير على أموال الدولة ، ويستصفى لنفسه ولإخوانه من الصعاليك خراج كثير من الكُوَر [١] .

ولعل من أشهر مظاهر الفساد الاقتصادى لهذا العهد — فضلا عن إنفاق الأموال الطائلة فيما لا ينفع الناس وعن انقطاع وصولها إلى بيت المال — قسوة العمال الذين كانوا يتولون جباية الصدقات والخراج وانحرافهم . أما قسوتهم فتتمثل فى تشددهم فى جمع الأموال فى اليسر والعسر ، وبالطرق المشروعة وغير المشروعة . ففى الجزيرة العربية مهد الإسلام وموطن القبائل التى شاركت فى نشر الدين الجديد ، كان العمال يَعْسُفون فى تحصيل الصدقات ، ويسومون القبائل أنواع العذاب لاستكمالها ، دون مراعاة لفقرها أو بؤسها . ومن الحق أن هذا المرض قد ظهر منذ زمن مبكر ، إذ يروى البلاذرى قصيدة طويلة ليزيد بن الصَّعِق يشكو فيها إلى عمر بن الخطاب من الولاة وعمال الخراج فى كثير من الأمصار ، ممن استغلوا الناس ، واستأثروا بالخيرات وطيبات الحياة لأنفسهم فإذا هم مترفون أغنياء ، وإذا غيرهم من سواد الرعية فقراء بؤساء [٢] . غير أن هذا المرض استشرى بين العمال والمصدقين بصورة فاحشة منذ مطلع العصر الأموى حتى نهايته على شاكلة ما سنوضح ذلك بعد قليل .

وربما كانت أحوال العراق أسوأ من أحوال الجزيرة العربية بكثير ، فقد أخذ معظم العمال يعسفون بأهله عسفاً ، ويستنزفون أموالهم استنزافاً ، ويحملونهم ما يقدرون على الوفاء به وما لا يقدرون . وكان بعضهم يتفاخر بإرهاقه لهم ، وخاصة زياد ابن أبيه ، الذى يقول لمعاوية : دوّخت العراق ، وجبيت برها وبحرها وغثها وسمينها ، وحملت إليك لُبها وقشورها [٣] . ويشتهر الحجاج بأنه كان من أقسى الولاة وأبطشهم بأهل العراق ، حتى إن أهل الذمة لم يجدوا خلاصاً من قسوته وبطشه إلا أن يدخلوا فى الإسلام وينتقلوا إلى الأمصار ، مما جعل موظفيه يشكون إليه من انكسار الخراج ، **ومما جعله يكتب إلى البصرة وغيرها : أن من كان له أصل فى قرية فليخرج إليها ، فخرج الناس وعسكروا ، وأخذوا يبكون وينادون وامحمداه وامحمداه ، ولا يدرون أين**

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٧٦٦ .

(٢) فتوح البلدان ص : ٣٧٧ .

(٣) الوزراء والكتاب ص : ٢٧ .

يذهبون[١] . ويقال إنه نقش على يد كل رجل منهم اسم البلد الذي وجهه إليه[٢] .

وتعرض أهل إفريقية لما تعرض له أهل العراق فى ولاية الحجاج ، فإن كثيرين من أهل الذمة فيها أعلنوا إسلامهم ليسقط الخراج عنهم ،وليدفعوا الزكاة كالمسلمين ؛ ولكن يزيد بن أبي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك عليهم أراد أن يصنع بهم ما صنع الحجاج بأهل العراق مِن رَدّه مَنْ أسلم منهم إلى بلده وقريته وأخذهم بالخراج . فلم يستكينوا له ، بل ثاروا عليه وقتلوه[٣] . أما فى بلاد فارس فكان جباة الخراج يقومون المحاصيل قبل الحصاد ، كما كانوا يرغمون المزارعين على النزول لهم عنها بثمن بخس[٤] .

ولم يقف ظلم السعاة والعمال عند تحصيل الصدقات والخراج من العرب والموالى بالعنف والقوة ، ولا عند فرض الصدقات والضرائب التى لا يطيقون أداءها ، بل تعداه كذلك إلى استئثارهم بأموال أخرى كانوا يفرضونها عليهم ، ويستخلصونها منهم مكونين لأنفسهم ثروات ضخمة ، حتى ذاع بين الناس أن من تولى إمارة أو كورة فإنما هى نصيبه من الدنيا لكى يفوز منها بما يريد من الأموال . وفى ذلك يقول أنَس ابن أبى أناس لحارثةَ بن بَدْرٍ عامل زياد بن أبيه على سُرّق بالأهواز[٥] :

أَحار بنَ بَدْرٍ قد وَلِيتَ إمارةً ... فكنْ جُرَذاً فيها تَخُونُ وتَسْرقُ

وَبَاهِ تميما بالغنَى إنّ للغنَى ... لساناً به المرءُ الهَيُوبَة يَنْطق

فلا تَحْقِرَنْ يا حَار شيئاً أَصَبْتَهُ ... فَحَظُّك من مُلْكِ العِرَاقَيْن سُرَّق

وفى أخبار كثير من العمال ما ينبئ بأنهم كانوا يخونون ويسرقون ويتصرفون فى أموال أعمالهم كما يشاؤون ، يشهد على ذلك ما كان بحوزتهم من الأموال ، وما كانوا يستدينونه من بيت المال ، فقد كانت ثروة عبد الرحمن بن زياد والى خراسان لمعاوية

---

(١) الطبرى ٢ : ١١٢٢ .

(٢) العقد الفريد ٣ : ٤١٦ ، والحيوان ٧ : ١٦٥ .

(٣) الوزراء والكتاب ص : ٥٧ .

(٤) السيادة العربية ص : ٢٨ .

(٥) الشعر والشعراء ص : ٧٣٨ ، والحيوان ٣ : ١١٦ ، وأمالى المرتضى ١ : ٣٨٤ ، ومعجم البلدان ٥ : ٧٣ ، واللسان ١٢ : ٢٣ .

سنة ثمان وخمسين ما يكفيه مائة سنة فى كل يوم ألف درهم[١] ، وكان عبد الله ابن عبد الملك بن مروان فى أثناء ولايته على مصر سنة خمس وثمانين مشهوراً بالجور كما كان يرتشى ويأخذ الأموال من الخراج وغيره[٢] ، وحين صرف الحجاج المهلب ابن أبى صفرة عن الأهواز سنة ثمان وستين كان مديناً لبيت المال بألف ألف درهم[٣] ومثله يزيد بن المهلب ، فإنه عند ما نحى عن خراسان كان عليه لبيت المال ستة آلاف ألف درهم[٤]، ويقال إن خالداً القسرى لما عزل كان فى ذمته خمسون ألف ألف درهم[٥] .

ومن أجل ذلك أصبح من الطبيعى فى هذا العصر أن يحاسب كل خليفة عمال سابقه ، وأن يحبس كل عامل موظفى من خلفه ، ويعذبهم أشد العذاب لاستخلاص الأموال منهم[٦] . فحين عزل الحجاج يزيد بن المهلب وسائر إخوته عن خراسان أشخصهم الوالى الجديد إليه ، وطالبهم بستة آلاف ألف درهم ، ونكل بهم[٧] . ولما مات الحجاج وولى سليمان بن عبد الملك قدّم يزيد بن المهلب وخصه ودفع إليه كل أصحاب الحجاج وغيرهم ، وأمره بتعذيبهم حتى يستخرج الأموال منهم ، وتتبع سليمان بنفسه موظفى الحجاج وسامهم سوء العذاب[٨] . وحين تولى عمر بن عبد العزيز عزل بدوره يزيد بن المهلب وعذبه وطالبه بعشرين ألف درهم[٩] . وعزل يزيد بن عبد الملك أيضاً عمال عمر بن عبد العزيز[١٠]. وصرف هشام بن عبد الملك خالداً القسرى عن العراق وولى عليه يوسف بن عمرو الثقفى ، فقبض على خالد ورفاقه وأخذهم وبطش بهم حتى مات أكثرهم فى يده[١١] .

---

(١) الوزراء والكتاب ص : ١٩ .
(٢) النجوم الزاهرة ١ : ٢١١ .
(٣) الطبرى ٢ : ١٠٣٤ .
(٤) اليعقوبى ٣ : ٣١ .
(٥) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢ : ٣٥ .
(٦) العقد الفريد ٤ : ٥٤٢ .
(٧) اليعقوبى ٣ : ٣٣ .
(٨) المصدر نفسه ص : ٤٠ .
(٩) المصدر نفسه ص : ٤٦ .
(١٠) اليعقوبى ٣ : ٥٤ .
(١١) المصدر نفسه ص : ٦٦ ، ٦٩ .

وثمة مظهر ثالث من مظاهر الفساد الاقتصادى غير العنف والخيانة اللذين اتصفت بهما الكثرة الغالبة من سعاة بنى أمية وعمالهم ، وهو أن مواقف القبائل وأهل الأمصار من البيت الأموى الحاكم حددت عسفهم بها أو مصانعتهم لها : فالقبائل وأهل الولايات الذين انحازوا إلى خصومهم السياسيين وأكثروا من الشغب بهم والثورة عليهم كان حظهم من الظلم عظيما ، ذلك أنهم كانوا يتشددون فى استيفاء الصدقات والخراج منهم دون نظر إلى إملاقهم وجدب أرضهم ، مثل قبيلة نمير ، وقبيلة تميم ، وأهل العراق ، كما كانوا أيضاً لا يفرضون فى العطاء من بيت المال لهم ، ويمنعونهم أعطياتهم . وهى سنة استنها معاوية لهم ، فقد كان لا يفرض فى العطاء إلا لأهل اليمن[١] ، لأنهم كانوا أكبر المؤيدين له ، وظلت الحال كذلك فى أيام يزيد ابن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان[٢] . وحتى حينما كان بعضهم يفكر فى استرضاء هذه القبائل الثائرة بإجراء العطاء لها أو زيادته ، فإن عماله لم يكونوا ينفذون كتبه ، بل كانوا يتصرفون حسب أهوائهم وآرائهم ، ومن ذلك ما يروى من أن معاوية أمر لأهل الكوفة بزيادة عشرة دنانير فى أعطياتهم ، وعامله حينئذ على الكوفة النعمان بن بشير ، وكان عثمانيًّا ، كما كان يكره أهل الكوفة لميلهم إلى على ، فأبى النعمان أن يصرفها ، فكلموه فيها فمنعها فصاح به عبد الله بن هَمّام السَّلولىُ قائلا[٣] :

زيادَتنا نُعْمانَ لا تَحْرِمَنَّنا ... خَفِ اللهَ فينا والكتابَ الذى تَتْلُو

فإنك قد حُمِّلْتَ مِنَّا أَمَانةً ... بما عَجِزَتْ عَنْهُ الصَّلاَخِمَةُ البُزْلُ[٤]

وإنْ يَكُ بابُ الشَّرِّ تُحْسِنُ فَتْحَهُ ... فلا يكُ بابُ الخَيْرِ ليس له قُفْلُ

أما القبائل وأهل الأمصار الذين كانوا يحطبون فى حبالهم وينصرونهم على أعدائهم ، فكان نصيبهم من النفاق والاصطناع أعظم ، إذ كانوا يخففون الصدقات والخراج عنهم ، كما أغرقوهم بالأعطيات ، وأسبغوا عليهم من طائل الصلات .

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ١٨ : ٦٩ .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى ٤ : ١٨٢ .

(٣) الأغانى (طبعة الساسى) ١٤ : ١١٦ ، سمط اللآلى ص : ٩٢٣ .

(٤) الصلاخمة : جمع صلخم وهو البعير الجسيم الشديد الماضى . والبزل : جمع بزول ، وهو البعير إذا فطر نابه وانشق فى السنة التاسعة . يريدون أنه مستكمل الشباب ، مستجمع القوة .

وفرق واسع بين خلفاء بنى أمية وعمالهم الذين لم يكونوا يعطون الناس حقوقهم ، لأنهم كانوا كارهين لهم ، ساخطين عليهم ، وبين الخلفاء الراشدين وعمالهم الذين كانوا يقسمون الأموال بالتساوى بين الحر والمملوك ، والذكر والأنثى ، والعربى والمولى [١] .

ومعنى ذلك أن الخلفاء الأمويين أو أكثرهم لم يوفروا أسباب الحياة للسواد الأعظم من الشعب ، وإنما كانوا يوسعون على أنصارهم وأعوانهم سواء فى تخفيف الصدقات والضرائب عنهم ، أو فى إجزال العطاء عليهم ، فى حين كانوا يضيقون أشد الضيق على كل من ثار بهم وحاول ردهم إلى الطريق المستقيم ، سواء فى التعسف فى استخلاص الصدقات والخراج منهم ، أو فى منع الأعطيات عنهم .

ومعنى ذلك أيضاً أن الناس توزعتهم طبقتان مختلفتان : طبقة الأغنياء والموسرين الذين نعموا بالأموال والخيرات وطيب الثمرات من الخلفاء والأمراء والعمال والولاة والقبائل الموالية لهم ، وطبقة الفقراء والمحتاجين ومن أراد الأمويون لهم أن يفتقروا ويبتئسوا ليذلوا ويستكينوا ويستسلموا ، أولئك الذين كانوا يكدون ويشقون ويجمعون الأموال لهم ، ويدفعونها إليهم ، ويعيشون معيشة فيها الشظف والكفاف ، والذين انقسموا بدورهم إلى طائفتين : فمنهم من رضى بما كتب له من الفقر والشقاء والبلاء ، واكتفى بالعمل السلبى من الاستغاثة والاستنجاد بهم لرفع المظالم عنهم . وتطالعنا وثائق التظلم ورقاع الشكوى منذ بداية هذا العصر ، فهذا عقيبة بن هبيرة الأسدى يستصرخ معاوية لكى يرحم قومه ويعدل بينهم ويدفع الجور عنهم ، يقول [٢] :

مُعاوِىَ إِنَّنَا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ فَلَسْنَا بالجبال ولا الحديد

فَهَبْهَا أُمةً هلكتْ ضَيَاعاً يَزِيدُ أَميرُها وأَبُو يَزِيد

أَكَلْتُمْ أَرضَنَا فَجَرَدْتُمُوها فهل من قائمٍ أَو من حَصِيد

وترتفع أصوات الشكوى عالية مدوية فى أيام عبد الملك بن مروان ، مطالبة

---

(١) الخراج ص : ٥٠ ، ٥٢ .

(٢) سمط اللآلى ص : ١٤٩

بالأخذ على أيدي السعاة المستبدين المستغلين ، والكف عن العسف والحيف فى استيفاء الصدقات ، ومن ذلك قول عمرو بن أحمر الباهلى يخاطب يحيى بن الحكم والى المدينة لعبد الملك سنة خمس وسبعين ، شاكياً إليه من عنف المصدقين الذين أرهقوهم من أمرهم عسراً ، وطالباً إليه أن يعطف عليهم ويرفق بهم ، لأنهم أصحاب إبل ، لا أرض لهم ولا زرع ، ولأن والسعاة يفرضون عليهم وهم مجدبون ما لا يطيقون ، بل ما أحرقهم حرقاً ، حتى سئموا الحياة ، وسائلا إياه أنْ ينقذهم من الجور وإلا فإنهم فانون ذاهبون ، يقول[1] :

إنْ نحن إلا أناسٌ أَهلُ سائمةٍ ما إن لنا من دونها حَرْثٌ ولا غُرَر[2]

مَلُّوا البلادَ ومَلَّتْهُمْ وأَحرقهم ظلمُ السُّعاة وبادَ الماءُ والشَّجَرُ

إنْ لا تَدارِكْهمُ تُصْبحْ منازِلُهُمْ قَفْرا تَبيضُ على أَرجائها الحُمُر[3]

وشكوى الراعى إلى عبد الملك نفسه مشهورة ، فقد وفد عليه من ديار قومه ، ورفع إليه بلسانهم تظلمهم من بطش السعاة وعسفهم ، وهو تظلم يجرى على هذه الصورة[4] :

أَبْلِغْ أَميرَ المؤمنين رسالةً تشكو إليك مَضَلَّة وعَويلا

أَخليفة الرحمن إنّا مَعْشَرٌ حُنفاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وأَصِيلا

عَرَبٌ نرى لله فى أَموالنا حَقَّ الزكاةِ مُنَزَّلاً تَنْزِيلا

إن السعاةَ عَصَوْكَ يوم أَمرتَهُمْ وأَتَوْا دَوَاهِيَ لو عَلِمْتَ وغُولا

أَخَذُوا العَرِيفَ فَقَطَّعوا حَيْزُومَه بالأَصْبَحِيَّةِ قائماً مَغْلُولا[5]

حتى إذا لم يَتْركُوا لِعِظَامِهِ لَحْماً ولا لِفُؤادِهِ مَعْقُولا

جَاءُوا بِصَكِّهِم وأَحْدَبَ أَسْأَرَتْ منه السِّياطُ يَرَاعةً إجفيلا[6]

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص : ٣٠٤ ، واللسان ٥ : ٢٩٣ .
(٢) الغرر : جمع غرة وهو العبد .
(٣) الحمر : نوع من الطيور .
(٤) جمهرة أشعار العرب ص : ٣٣٣ ، خزانة الأدب للبغدادى ١ : ٥٠٢ .
(٥) الحيزوم : الصدر . الأصبحية : السياط . العريف : شيخ القبيلة .
(٦) الصلك : الصحيفة . الأحدب : الشيخ الذى تقوس ظهره . اليراعة والإجفيل : الجبان . أسأرت : أبقت

أخذوا حَمُولَتَهُ وأَصبحَ قاعدًا   لا يَسْتَطِيعُ عن الديارِ حَوِيلا
أَخليفةَ الرَّحمن إنَّ عَشِيرتى   أَمسى سَوامُهُم عِزِينَ فُلُولا[1]
وأَتَاهُمُ يحيي فَشَدَّ عليهم   عَقْدًا يراه المسلمون ثَقِيلا
كُتُباً تَرَكْنَ غَنِيَّهُمْ ذَا عَيْلَةٍ   بعد الغِنى وفَقِيرَهُمْ مَهْزُولا[2]
إن الذين أَمرتهم أَن يعدلوا   لم يَفْعَلُوا مما أَمَرْتَ فتيلا
فَادْفَعْ مظالمَ عَيَّلَتْ أَبناءنا   عنا وأَنْقِذْ شِلْوَنا المأكولا[3]

أرأيت إلى تسلط المصدقين وجورهم ؟ إنهم لم يتشددوا فى جباية الزكاة، ولم يستهينوا بما أصاب قبيلة نمير من الجدب والإملاق، فقد أنزلوا بها أيضاً أشد أصناف التعذيب والتنكيل لكى تؤدى ما فرضوه عليها، إذ قبضوا على شيخها ، وكبلوه بالقيود ، وضربوه ضرباً مبرحاً ذهب بلحمه وغيب عقله ، ثم أجبروه على التعهد بدفع ما يريدون. وبلغ من ظلمهم أنهم استولوا على ناقته التى يعتمد عليها حياته وفى تنقله وترحاله، فإذا هو مقيم لا يبرح الدار ، ولا يجد ما يلتمس به أسباب الرزق ، وإذا العشيرة كلها قد هزلت وأصابها فقر عم أبناءها جميعاً : غنيهم ومعوزهم، وإذا هى عاجزة عن توفير ما يقيم أرماقها وما يحفظ الحياة فيها .

ومع كل هذا الاستنجاد والاستعطاف والتذكير له بأنهم مسلمون منصاعون لتعاليم الإسلام وقوانينه، وأنهم لا يقصرون فيها ولا يتأخرون عنها ، فإنه لم يلق بالا إليه ، ولا غيَّر من سيرة عماله، وإنما ظل شديد الوطأة على بنى نمير لانحيازهم إلى عبد الله بن الزبير ، ومجاهدتهم له معه ، فوفد عليه فى العام التالى ، وأنشده قصيدة منها قوله[4] :

أَمّا الفقيرُ الذى كانت حَلُوبَتُهُ   وفْقَ العِيَال فلم يُتْرَكْ له سَبَدُ[5]

(١) عزين : جماعات متفرقة . السوام : الإبل الراغبة .
(٢) العيلة : الفقر .
(٣) عيلت : افقرت وبرحت . الشلو : العضو .
(٤) طبقات فحول الشعراء ص : ٤٤٢ .
(٥) السبد : الوبر.

وَٱخْتَلَّ ذو المال والمُثْرُونَ قد بَقِيَتْ على التَّلاتِلِ من أَمْوَالهم عُقَدُ[١]

فإن رَفَعْتَ بهم رأساً نَعَشْتهُم وإن بَقَوْا مِثْلَها فى قَابِلٍ فَسدوا[٢]

فهو لا يزال يستغيث من الظلم البين الذى أوقعه السعاة بهم ، فقد أعدم فقراؤهم ، وافتقر أغنياؤهم ، فإن أنصفهم أحياهم ، وإلا فهم هالكون .

ومن العجيب حقًّا أن تستمر المظالم ، وتكثر الشكايات من العمال وتسلطهم وخيانتهم سواء فى عهد الثائرين على بنى أمية والمنادين بالشورى والإصلاح أو فى عهد أتقى الأمويين وأعدلهم وأرحمهم. فمن المعروف أن عبد الله بن الزبير كان من الخارجين على الأمويين ، وأنه دعا الناس إلى مبايعته على الشورى والعدل والخير . وبالفعل بايعه أهل الحجاز والعراق ومصر ، غير أننا نسمع الموالى والعرب يضجون بالشكوى والفقر فى أيامه . فهذا أبو حرّة مولى خزاعة يتظلم مما يلاقى هو وأمثاله من الموالى من الخصاصة والمسغبة ، لا فى ظل بنى أمية فحسب ، بل أيضاً تحت حكمه يقول[٣] :

أَبْلغْ أُمَيَّةَ عنى إن عَرَضْتَ لها وابنَ الزُّبَيْر وأَبْلِغْ ذلك العَرَبا

إنَّ الموالى أَضْحَتْ وهى عَاتِبَةٌ على الخليفةِ تشكو الجوعَ والحَرَبا

وهذا عبد الله بن همام السلولى يرفع إليه رقعة أخرى يشكو فيها من عامله على الكوفة ، عامر بن مسعود ، الذى قطع على نفسه عهداً أمام أهلها أن ينسيهم سيرة عمر بن الخطاب ، والذى كان موظفوه صورة ثانية عنه فى سوء السيرة والخيانة ، يقول[٤] :

يا ابن الزُّبَيْر أَميرَ المؤمنين أَلَمْ يَبْلُغْكَ ما فَعَل العُمَّالُ بالعمل

باعُوا التِّجارَ طَعَامَ الأَرْض واقْتَسَمُوا صُلْبَ الخَراجِ شِحاحاً قِسْمَةَ النَّفَل[٥]

---

(١) التلاتل : الشدائد . العقد : البقايا .

(٢) القابل : العام المقبل .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ١٨٨

(٤) أنساب الإشراف ٥ : ١٩١ .

(٥) النفل : الغنيمة .

وهى قصيدة طويلة أحصى فيها عماله على العراق واحداً واحداً ، مبيناً خيانة كل منهم . وحاول عمر بن عبد العزيز أن يزيل أسباب الشكوى ، ويستأصل البغى والجور ، مستنيراً بعدل عمر بن الخطاب ومؤمناً بأن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ولم يبعثه جابياً[1] . وشدد على عماله وكتب إليهم أن يسوسوا الناس بالإحسان والعدل والرفق[2] ، ولكن بعض عماله ممن أغراهم بريق المادة أهملوا كتبه ، وأغفلوا العمل بما أمرهم به ، ومضوا يجورون ويظلمون ويتسلطون ، ذلك أننا لا نزال نرى بعض الشعراء يصيحون بالشكوى ، ويستغيثون به من العمال الخونة ، ومن هؤلاء الشعراء كعب بن معدان الأشقرى الذى يقول له[3] :

إن كنتَ تَحْفَظُ ما يَليك فإنَّما ... عُمَّالُ أَرْضِكِ بالبلادِ ذِئابُ
لن يَسْتَجِيبُوا للذى تَدْعُو له ... حتى تُجَلَّد بالسُّيوفِ رِقَابُ
بَأَكُفِّ مُنْصَلتينَ أَهْلِ بَصائرٍ ... فى وَقْعِهِنَّ مَزَاجِرٌ وعقابُ

ومنهم هذا الشاعر الذى هتف به فى المسجد الجامع وهو على المنبر قائلا[4] :

إن الذين بَعَثْتَ فى أقطارها ... نَبَذُوا كتابَكَ وَاسْتُحِل المُحْرَمُ
طُلْسُ الثيابِ على مَنَابِر أَرْضِنَا ... كُلٌّ يَجُورُ وكلُّهُمْ يَتَظَلَّمُ[5]
وأَرَدْتَ أَنْ يَلِىَ الأَمَانَةَ مِنْهُم ... عَدْلٌ وهيهاتَ الأُمينُ المُسْلِمُ

فكعب يدعوه إلى معاقبة عماله الخونة أشد العقاب ، حتى يكون عقابهم جزاء لخيانتهم ، وردعاً لمن تسول نفسه له بالانحراف مثلهم ، أما الشاعر الثانى فيائس من العدل يأساً مطلقاً .

ولم يلبث يزيد بن عبد الملك أن جار بنفسه وعسف ، بعد أن عدل عمر قدر المستطاع وأنصف ، إذ رأى أن سياسة سلفه لا توفر له ما يحتاج إليه من الأموال ،

---

(١) الطبرى ٢ : ١٣٥٤
(٢) المصدر نفسه ص : ١٣٦٦ .
(٣) البيان والتبيين ٣ : ٣٥٨ .
(٤) المصدر نفسه ص : ٣٥٩ .
(٥) طلس الثياب : قذرة ، وهى كناية عن عدم عفتهم .

فكتب إلى عمال عمر بن عبد العزيز : أما بعد فإن عمر كان مغروراً غررتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه فى انكسار الخراج والضريبة . فاإذا أتاكم كتابى هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى أخصَبوا أم أجدَبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حَيَوْا أم ماتوا ، والسلام [١] .

فعلى الناس أن يزودوا يزيد بما يحب من الأموال ، حتى ينفق على مجالس لهوه وغنائه ، وعلى بطالته ومجانته ، لأن القدماء يصفونه بأنه « خليع بنى أمية » ، ولا عليه أن يعيشوا أو يهلكوا ، ولا أن يثروا أو يفتقروا ، ولا أن يسلموا أو يكفروا .

وإذا كان هؤلاء الشعراء قد عبروا عن آراء قبائلهم فى عسف السعاة والعمال بهم ، وطالبوا برفع المظالم عنهم بالحسنى ، فإن أكثر القبائل وخاصة بأخرة من العصر الأموى لم تجد بداً من الثورة على المصدقين ومقاتلتهم أو سرقتهم [٢] ، ومن ذلك ما يروى عن طيئ من أنها قاتلت مصدق مروان بن محمد وامتنعت عن دفع الصدقة إليه على نحو ما يصور ذلك قوّال الطائى [٣] :

قُولَا لهذا المرءِ ذُو جَاءَ سَاعِياً هَلُمَّ فإن المشرِفيَّ الفَرائِضُ
أَظُنُّكَ دُون المالِ ذو جِئْتَ تَبْتَغى سَتَلْقَاك بيضٌ للنُّفُوس قَوابِضُ

فهو يهدده بأن عشيرته لن تقدم إليه الإبل المسنة التى جاء يستوفيها ، وإنما ستعطيه السيوف بدلا منها . ويصرح غالب بن الحر الطائى بأنه لا فائدة من دفع الزكاة ، لأنها ستذهب سدى ، فقد انهارت الدولة ، وانعدم القيم على ما لها [٤] . ولا نكاد نصل إلى آخر أيام الدولة الأموية حتى يعزل أهل كل مصر ولاتهم ، ويمتنعون عن دفع الصدقات والخراج [٥] .

على أن الطائفة الثانية من الفقراء لم يقنع أفرادها بما قسَم لهم بنو أمية من

---

(١) العقد الفريد ٤ : ٤٤١ .
(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣ : ٦٦ .
(٣) شرح حماسة أبى تمام للمرزوقى ٢ : ٦٤٠ .
(٤) خزانة الأدب للبغدادى ٢ : ٢٩٧ .
(٥) اليعقوبى ٣ : ٧٧

الحاجة العوز ، ولا ارتضوا الشكوى والاستغاثة وسيلة إلى كسب أقواتهم ، وتوفير أسباب الحياة لأنفسهم ، بل ثاروا على الظلم والضيم ، وسلكوا السبيل الإيجابى الفعال ، سبيل الإغارة على القوافل وسلب أموالها ، وقطع الطرق وسرقة أهلها . وهؤلاء هم طائفة « الصعاليك الفقراء » لهذا العصر ، أولئك الذين أجبرتهم هذه الأحوال الاقتصادية السيئة التى لم تضمن لهم معها الدولة حقوقهم ، ولا أجرت عليهم ما يحفظون به أرماقهم . على التصعلك ، كما حددت لهم الوسيلة التى يعتمدون عليها فى حياتهم ، وسيلة الغزو والتلصص والنهب ، تماماً كما فعل رفاقهم من الصعاليك الفقراء فى الجاهلية .

وليس ذلك ظنًّا سوّغه لنا ما بيناه من سوء الأوضاع الاقتصادية ، وانتشار المظالم ، وشيوع الفقر ، وإنما هو حقيقة مدعومة بالأدلة المادية التى لا تنقض ولا ترفض ، ذلك أن نفراً من صعاليك هذا العصر أنبئونا بأن الفقر هو مصدر تصعلكهم ، وأنه هو الذى حملهم على اختيار الإغارة والنهب أسلوباً لكسب أرزاقهم ، ومن ذلك ما يروى من أن سعيد بن عثمان بن عفان مر وهو متوجه إلى خراسان بمالك بن الريب ورفاقه من اللصوص والصعاليك ، وكانوا يقطعون السبيل ويغيرون على الحجيج بالبادية ، فقال له : ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق ، وما يدعوك إلى ما يبلغنى عنك من العبث والفساد ؟ فقال له : يدعونى إليه العجز عن المعالى ، ومساواة ذوى المروءات ، ومكافأة الإخوان[1] .

وواضح أنه يعترف له بأنه إنما مال إلى التصعلك والتلصص لما أحس من المفارقة البينة بينه وبين أمثاله من الفتيان الموسرين ، الذين حققوا بأموالهم الحياة الناعمة ، كما احتفظوا لأنفسهم بالذكر الجميل والسيرة الحسنة ، بينما هو فقير قاصر عن مجاراتهم وعن الحفاظ على شرفه وصيانة ماء وجهه أمام أصدقائه الذين يفدون عليه وينزلون به فلا يجد عنده ما يقدمه إليهم .

وها هو ذا يصور فساد الأحوال الاقتصادية ، وكيف كانت سبب تصعلكه ، يقول[2] :

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٣ ، ذيل الأمالى ص : ١٣٦ ، شرح شواهد المغنى ص : ٢١٥ ، خزانة الأدب للبغدادى ١ : ٣٢١ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٤ .

أَحَقًّا على السُّلطان أَمَّا الذى له فَيُعْطَى وأَمَّا ما عليه فَيَمْنَعُ
إذا ما جَعَلْتُ الرَّمْلَ بينى وبَيْنَهُ وأَعْرَضَ سَهْبٌ بين يَبْرِين بَلْقَعُ[1]
فشأنكُمُ ياآل مَرْوانَ فَاطْلُبُوا سقَاطِى فما فِيهِ لباغِيهِ مَطْمَعُ[2]

وظاهر أنه ركز فى هذه الأبيات كل ما شرحناه ووضحناه من مظاهر الفساد الاقتصادى ، فبنو أمية وعمالهم يستخرجون الصدقات والضرائب من الناس ويجمعونها ثم يمتنعون عن الإنفاق منها على الفقراء وغير الفقراء ممن لهم حق معلوم فيها . وهو لذلك يرفض أن يكون فقيراً ذايلا ، كما يريدون له ، دون أن يتحرك أو يسعى وراء الحياة التى يحبها لنفسه ، ومن أجل ذلك أخذ يقطع الطريق فى ولايتهم ، ويفر فى البرارى والقفار كلما تهددوه أو تعقبوه .

وقريب من ذلك ما يروى من أن جحدر بن مالك الحنفى كان لصًّا فاتكاً شجاعاً شاعراً ، وكان يغير على أهل هجر وناحيتها . فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب إلى عامله باليمامة يوبخه لتلاعب جحدر به ، ويأمره بأن يشدد فى طلبه حتى يظفر به . فاحتال العامل له حتى قبض عليه ، وبعث به الحجاج ، فقال له : ما حملك على ما بلغنى عنك ؟ فقال : جرأة الجنان ، وجفوة السلطان ، وكلب الزمان[3] .

ويحسن أن نلاحظ أن ظهور الصعاليك الفقراء كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالفترات التى كثر فيها الظلم واشتد البغى ، وخاصة فى أيام عبد الملك بن مروان ، فقد ظهر فى عهده أكثر من لص وصعلوك ، من أمثال طهمان بن عمرو الكلابى[4] ، والسمهرى ابن بشر العكلى[5] ، وجحدر بن مالك الحنفى[6] . كذلك يحسن أن نعرف أن

---

(١) أعرض : امتد وترامى . السهب : الأرض الواسعة . يبرين : رمل لا تدرك أطرافه بنواحى البحرين . البلقع : الأرض القفر .

(٢) السقاط : ما يحملونه من التمر . يريد إنه فقير لا يملك شيئا يرغب فيه .

(٣) المحاسن والأضداد للجاحظ ص : ٧٦ ، وشرح شواهد المغنى ص : ١٣٩ ، وخزانة الأدب للبغدادى ٣ : ٣٤١ .

(٤) سمط اللآلى ص : ٤٧٣ .

(٥) ذيل سمط اللآلى ص : ٣٨ .

(٦) خزانة الأدب للبغدادى ٣ : ٣٤١ .

أكثر هؤلاء الصعاليك الفقراء لم يكونوا من أبناء القبائل الموالية للأمويين ، وإنما كانوا من أبناء القبائل المخالفة لهم ، المنحازة إلى أعدائهم .

وخير مثال على ذلك قبيلة تميم ، تلك القبيلة التى فطر أبناؤها على الفوضى ، وعدم الانصياع للنظام ، وقلة الإذعان للسلطان ، وكان لها بجانب ذلك حظ فى أغلب الثورات التى استعرت ضد الأمويين ، وخاصة ثورات الخوارج ، ففيها ظهر أشد غلاتهم قطرى بن الفجاءة أحد زعماء فرقة الأزارقة ، ومنها كان جمهور أتباعه الذين قادهم وحارب بهم جيوش الأمويين وقوادهم نيفاً وعشر سنين [1] . وفى مقابل ذلك ضيق الأمويون على هذه القبيلة من الناحية المادية ، إذ تعسفوا فى جباية الصدقات منها ، كما حرموها من العطاء [2] ، فاشتد الفقر عليها ، وتعدد بؤساؤها ، مما حدا بكثير منهم إلى احتراف التصعلك والتلصص ، فمن لصوصها وصعاليكها الفقراء مالك بن الريب المازنى ، وعرقل [3] السعدى وأبو حردبة المازنى [4] ، ومسعود ابن خرشة [5] وعبد الله بن الأحدب السعدى [6] ، وعبيد بن أيوب العنبرى [7] وأبو النشناش الذى كان يغير على القوافل فى شذاذ من العرب بين طريق الحجاز والشام [8] ، والذى يقول [9] :

وسائلةٍ أَينَ ارتحالى وسائلٍ ... ومَنْ يَسْأَل الصعلوكَ أَين مَذَاهِبُهْ

مَذَاهِبُهُ أَنَّ الفِجَاجَ عَرِيضَةٌ ... إِذَا ضَنَّ عنه بالنَّوَال أَقَارِبُهْ

إذا المرءُ لم يَسْرَحْ سَواماً ولم يَرُحْ ... سَواماً ولم يَبْسُطْ له الوَجْهَ صَاحِبُه

---

(١) وفيات الأعيان ٣ : ٢٥٥ .

(٢) الطبرى ٢ : ١٣٨٩ .

(٣) الاشتقاق ص : ٥٥٥ .

(٤) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٣ .

(٥) المصدر نفسه ٢١ : ١٦٦ .

(٦) المصدر نفسه ٢١ : ٥٢ .

(٧) البيان والتبيين ٤ : ٦٢ .

(٨) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ١٧١ .

(٩) الأصمعيات ص : ١١٨ ، والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ١٧١ ، وشرح حماسة أبى تمام للمرزوقى ١ : ٣١٧ .

فَلَلْمَوْتُ خيرٌ لِلْفَتَى من قُعُودِهِ عَديماً ومن مَوْلًى تُعافُ مَشَارِبُهْ

وَدَوِيَّةٍ قَفْرٍ يَحارُبها القَطَا سَرَتْ بأَبي النَّشْنَاشِ فيها رَكَائِبُهْ

لِيُدْرِكَ ثَأْرًا أو ليكسبَ مَغْنَماً ألا إنَّ هذا الدَّهْرَ تَتْرَى عَجَائِبُهْ[1]

فقد افتقر ،وبخل أقاربه عليه ، وأشاحوا بوجوههم عنه ، فضاق بالحياة معدماً منبوذاً ، وفضل عليها الموت ، وآثر أن يقذف بنفسه فى المهالك والمعاطب ليصيب المغانم والأسلاب أو يهلك من دونها .

وليس من المـُصَادَفة أن يكون الأحيمر السعدى آخر الصعاليك الأمويين من هذه القبيلة ، فإن الدوافع التى حملت أبناء قبيلته على التمرد وعلى التصعلك لا تزال تشكل السبب الأساسى لتصعلكه . وقد عبر عن مشكلة الفقر التى استشعرها مالك بن الريب ، وأبو النشناش تعبيراً رائعاً كثر دورانه فى كتب الأدب لطرافته[2].

ولعل فى كل ما أسلفنا ما يدل على أن الفساد الذى ران على الحياة الاقتصادية لهذا العصر كان من نتائجه أن أثرت قلة قليلة من الأمة كالخلفاء والولاة ، أولئك الذين أجروا الأموال على أشياعهم وصنائعهم ، أما سواد الشعب ، وخاصة القبائل التى نقمت على الخلفاء وعمالهم وأتباعهم ، وأشعلت نار الثورة عليهم فظلموا ظلماً بيناً ، إذ لم يتركوا يكدون ويكدحون ليوفروا بُلَغَ العيش لأنفسهم ويدفعوا ما فرض عليهم من الصدقات والضرائب الباهظة ، وإنما استحالوا مصدر الثروة للهيئة الحاكمة دون رأفة بهم أو مراعاة لظروفهم ، فسواء افتقروا أم اغتنوا ، أجدبوا أم أخصبوا فقد كان عليهم أن يفوا بأكبر قسط من الأموال لبيت المال ، كما كان من نصيبهم أن يحرموا أعطياتهم . وبذلك عم الظلم بينهم ، وانتشر الفقر فيهم . وإزاء هذه السياسة المالية الجائرة انقسم الفقراء المظلومون قسمين : فمنهم من اكتفى ببث الشكوى والاستغاثة ، ومنهم من آثر العمل الفعال ، وهؤلاء هم طائفة الصعاليك الفقراء الذين اختاروا طريق الإغارة للسلب والنهب منهاجاً لحياتهم ، ووسيلةً إلى تحصيل أقواتهم .

---

(١) تترى : متوالية .

(٢) الوحشيات ص : ٣٤ ، والشعر والشعراء ص : ٧٨٨ ، وعيون الأخبار ١ : ٢٣٧ ، والمؤتلف والمختلف ص : ٤٣ ، وسمط اللآلى ص : ١٩٦ .

٢
العامل الاجتماعى

لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن المجتمع الأموى لم يتطور تطوراً كبيراً بحيث يكون مبايناً أشد المباينة للمجتمع الجاهلى. ومن الحق أن بعض البيئات الإسلامية تغيرت حياتها وتطورت ، مثل مكة والمدينة اللتين كان للظروف السياسية ، وما صاحبها من تحول الخلافة من الحجاز إلى دمشق ، أثر واضح فى غناهما وفى إقبال الفتيان والشباب على الملاهى فيهما[١] ، ومثل دمشق التى كانت عاصمة الدولة ، ومستقر الخلفاء الذين أسرف بعضهم فى تشييد القصور ، واقتناء كل طريف من فاخر المتاع ، والإقبال على الملاهى[٢] ، حتى انفصل هؤلاء النفر من أبناء الطبقة الحاكمة ، ومن أبناء الأسر الأرستقراطية الثرية عن المجتمع البدوى ، وتحللوا من تقاليده وقيمه العربية المتأصلة . ومن الحق أيضاً أن الإسلام نادى بالمساواة بين الناس ، وأرسى القوانين التى تمكن لهم من الحياة الفاضلة العادلة ، وأنه نقلهم من عهد القبلية الفوضوية بما يسيطر عليها من عصبية وتناصر إلى عهد الدولة المنظمة التى يعلو فيها سلطان القانون والصالح العام على سلطان الأفراد والمصلحة الفردية أو القبلية . غير أن الذى لا شك فيه هو أن هذا التطور لم يشمل كل البيئات الإسلامية ، وإنما كان قاصراً على بعضها ، كما أن القبائل التى لم تبرح منازلها الأصلية بالجزيرة العربية أو التى هاجرت إلى مواطن جديدة ظلت تحيا حياة فيها كثير من آثار الماضى ومظاهره ، بل لقد عنى بعض الخلفاء بإرسال أبنائهم إلى البادية ليكتسبوا منها الخلق العربى الرفيع ، ويتمثلوا الحياة البدوية ، ويفقهوا اللغة العربية فقهاً دقيقاً[٣] . ويبالغ بعض الباحثين فى تصوير هذه الناحية مبالغة شديدة ، بحيث يصف دولة بنى أمية بأنها كانت أقرب إلى البداوة منها

---

(١) تاريخ الدولة العربية لفلهوزن ص : ٥٤ .

(٢) الطبرى ٢ : ٤٠٣ ، ورسائل الجاحظ ٢ : ١٥٩ ، والعقد الفريد ٤ : ٤٤١ وما بعدها .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٢٠٥ ، والعقد الفريد ٤ : ٤٢٣ .

إلى الحضارة [١] ، أما الجاحظ فيصفها بأنها كانت « عربية أعرابية » [٢] ، يعنى أن العرب كانوا خلفاءها وأولى الأمر فيها ، وأن الحياة الاجتماعية والحضارية فيها لم تتغير تغيراً واسعاً بحيث تكون مخالفة لما كانت عليه فى الجاهلية أوضح المخالفة .

ومن المؤكد أن القبائل العربية لعهد بنى أمية ازدوجت النظم والقوانين فيها : فمن ناحية تمسكت بالحياة الرعوية ، وحافظت على تقاليدها ومثلها ، ومن ناحية أخرى لم تنعزل عن سلطان الدولة ولم تنفصل عن قوانينها ، بل كانت متصلة بها وخاضعة لها . ونحن نقف عند الجانب الموروث من حياتها لنبين كيف كان من نتائجه إحياء بعض التقاليد والقوانين البدوية الجاهلية ، وكيف أفضى إحياؤها إلى ظهور طائفة « الصعاليك الخلعاء » مرة ثانية ، كما نقف عند الجانب المستحدث من حياتها ، والذى يتمثل فى سيطرة الدولة عليها وانصياعها لقوانينها ، مما كان من شأنه ظهور طائفة جديدة من الصعاليك يصح أن نسميهم « الصعاليك الفارين من العدالة والقانون » .

وأول هذه الآثار الموروثة أن الحياة المعيشية لغير قليل من هذه القبائل لم تغاير حياة أجدادها ، فقد استمر أبناؤها يحيون على الرعى ، ويؤثرون التنقل والترحال فى الصحراء على الاستيطان والاستقرار فى المدن وتعاطى المهن التى كانوا ينفرون منها كالزراعة والصناعة ، مما كان يقوم به العبيد والموالى والأعاجم [٣] . وحتى تلك القبائل التى هاجرت إلى الكوفة أو البصرة ظلت تعتمد فى حياتها على الرعى ببوادى هاتين المدينتين . ويقول أبو الفرج : إن تغلب كانت بدواً بالجزيرة لا حاضرة لها [٤] . وتلقانا أشعار كثيرة تصور حنينهم إلى الصحراء وحبهم لحياتها الدائرة ، وإيثارهم لها على حياة المدن المتحضرة ، وهى أشعار احتفظ بمعظمها ياقوت الحموى فى معجم البلدان [٥] ، ومنها قول بعض الأعراب [٦] :

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ٤ : ١٠١ .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٣٦٦ .

(٣) معجم ما استعجم ٣ : ٨٦٦ .

(٤) الأغانى (طبعة الساسى) ١١ : ٥٨ .

(٥) معجم البلدان ٨ : ٢٥٤ ، ٢٥٧

(٦) المصدر نفسه ص : ٢٥٤ .

أُكَرِّرُ طَرْفِى نَحْوَ نَجْدٍ وإنَّنى ... إليه وإنْ لم يُدْرِكِ الطَّرْفَ أَنْظُرُ

حَنِيناً إلى أَرض كأَنَّ تُرابَها ... إذا أَمْطرَت عُودٌ ومِسْكٌ وعَنْبَرُ

بِلادٌ كأَنَّ الأُقْحُوان بروضةٍ ... ونَوْرُ الأَقاحى وشىُ بُرْدٍ مُحبَّر

أَحِنُّ إلى أَرْضِ الحجاز وَحاجَتى ... خيامٌ بِنَجْدٍ دونها الطَّرْفُ يَقْصُرُ

ويكثر حنين الأعراب والبدو إلى الصحراء حتى ليخصه ابن الشجرى بفصل كبير فى حماسته ، وحتى ليفرد له الجاحظ رسالة طويلة بعنوان « الحنين إلى الأوطان » . ومن أوضح الأمثلة على تفضيلهم الصحراء وطبيعتها وحياتها على المدن وحياتها وأنهارها وسفنها قول الفرزدق [١] :

لَفَلْجٌ وصحراؤُهُ لو سِرْتُ فيهما ... أَحَبُّ إلينا من دُجَيْلٍ وأَفْضَلُ [٢]

وراحلةٍ قد عَوَّدونى ركوبَها ... وما كُنْتُ رَكَّاباً لها حين تُرْحَلُ [٣]

قوائِمُها أَيْدى الرِّجال إذا انتحتْ ... وتَحْملَ من فيها قُعودًا وتُحْمَلُ [٤]

وثانى هذه الآثار محافظتهم على أنسابهم وحرصهم على وحدتهم وتماسكهم وتعاونهم من أجل العمل لصالحهم ، فقد كان أبناء كل قبيلة يستشعرون ما يربط بينهم من الدم والنسب أكثر من استشعارهم للمواطنة التى جمعتهم مع أبناء القبائل الأخرى ، وظلوا يستجيبون لدعوة سيد القبيلة وينفذون أوامره ، وينضوون تحت رايته ، وكأنما لم يتحولوا إلى مواطنين فى دولة تضمهم وتضم غيرهم ، وترعاهم وترعى سواهم . ولا تتضح هذه الظاهرة فى البوادى حيث كانت القبائل على حالها ، وكان سلطان الدولة عليها أضعف ، ونفوذها فيها أقل ، بل تتضح كذلك فى المدن التى انتقلوا إليها وأقاموا بها ، كالكوفة والبصرة ودمشق ، فقد أسست المدينتان الأوليان

---

(١) ديوانه ص : ٦٢٦ .

(٢) فلج : وادمن أودية تميم . دجيل : من أنهار دجلة .

(٣) الراحلة : السفينة . ترحل : تجهزللسفر .

(٤) القوائم : المجاذيف .

تأسيساً قبليًّا قسمت معه كل منهما أقساماً معلومة نزلت كل قبيلة بقسم منها[١] ، وكان لها ركنها فى مسجدها وكان على رأس كل منها سيد لا يعترف به أبناؤها فحسب ، بل تقره الحكومة أيضاً وتدعمه وتمنحه صلاحيات إدارية ومالية[٢] . وكذلك كان الشأن فى دمشق ، إذ كانت مقسومة بين أحياء نزلت بكل منها قبيلة بعينها ، وكان يفصل بينها وبين غيرها من القبائل المجاورة جدران لها أبواب[٣] .

والمظنون أن بعض هذه القبائل — ما دامت قد حافظت على أصولها ووحدتها — لم تكن تعدل أبناءها الأصلاء الصرحاء بمواليها ومن استجاروا بها ، وإنما كانت تعلى من قدر أبنائها وتميزهم من مواليها ، على نحو ما كان شائعاً فى الجاهلية ، ومما يدل على ذلك من بعض الوجوه ترفع العرب على الموالى فى هذا العصر ، وقد بلغ من استعلائهم عليهم أنهم كانوا يرفضون تزويج بناتهم لهم ، بل إن منهم من كان يفصل بين المولى وزوجه العربية ، وهو فصل لم يتورط فيه بعض العرب المتعصبين لعروبتهم فحسب ، بل كان يساعد عليه أيضاً بعض العمال والولاة[٤] ، إلى غير ذلك مما ساقه ابن عبد ربه[٥] ، ومما يدل — مهما شككنا فيه — على أنهم كانوا ينظرون إلى الموالى نظرة فيها شىء من التفريق والتمييز .

وبذلك تشبثت القبائل العربية أو بعضها بأهم قانون من القوانين الجاهلية المقدسة وهو الحرص على الأنساب ، والتعصب لأبنائها ضد أبناء القبائل الأخرى ، وهو تشبث أدى فى النهاية إلى اجترار العصبيات القبلية الجاهلية ، واستعار الحروب الدامية بينها بحكم اختلاف مصالحها الاقتصادية ، وتباين مواقفها السياسية ، وخاصة بين القبائل القيسية واليمنية فى الشام والبصرة وخراسان .

فمن المعروف أن بعض عشائر قيس مثل كلاب وعامر وسليم نزحت من نجد إلى الشمال ، وزاحمت قبيلة كلب وغيرها من القبائل اليمنية فى الشام وقبيلة تغلب فى

---

(١) فتوح البلدان ص : ٢٧٤ ، ٣٤٥ ، وخطط الكوفة لما سيينون ص : ١٠ .

(٢) تاريخ العراق فى ظل الأمويين ، لعلى الخربوطلى ص : ٢٤٣ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولدص : ٣٠

(٤) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ : ٦٤ ، ١٦ : ١٠٦ .

(٥) العقد الفريد ٣ : ٤١٢ وما بعدها .

الجزيرة ، وكان ذلك سبب خصام قبلى واسع بينها على المراعى والسياسة [١] . فقد كانت قبيلة كلب مؤيدة للأمويين وكذلك كانت قبيلة تغلب ، وقد لاذت هاتان القبيلتان بالبيت الأموى الحاكم ، كما انتصرتا له ضد القبائل القيسية ، ومن أجل ذلك كان من الطبيعى أن تقف القبائل القيسية موقف العداء من البيت الأموى ومن القبيلتان التى ساندته ، وأن تنتهز الفرص للقضاء على أعدائها . وما هى إلا أن يموت يزيد بن معاوية حتى تجد هذه القبائل المضطهدة المظلومة الفرصة سانحة للانقضاض على بنى أمية وأعوانهم ، فتنضم إلى ابن الزبير بمكة ، وتدخل فى طاعته . ويموت معاوية بن يزيد وتضطرب الأمور فى الشام والحجاز والعراق اضطراباً شديداً ، وتستمر القبائل القيسية على موقفها من ابن الزبير ، ولا يلبث مروان بن الحكم أن يظهر فى الشام تدعمه القبائل اليمنية تتقدمها قبيلة كلب ، وتساعدها قبيلة تغلب . ويقضى على القبائل القيسية فى موقعة مرج راهط المشهورة ، ويقتل زعيمها الضحاك ابن قيس [٢] ، ولكن قيساً تستكن لم بعد مقتله ، بل امتلأت قلوبها على بنى أمية وأنصارهم حقداً وغضباً ، وتزعمها بالجزيرة زفر بن الحارث ونضم إليه عمير ابن الحباب الذى أخذ يغير على كلب غارات متوالية أحصاها أبو الفرج الأصفهانى [٣] ، كما أخذ يغير على تغلب وينكل بها ، غير أنها فتكت به سنة سبعين ، وتمكن زفر بن الحارث من الثأر له فى موقعة مرج الكحيل ، حيث هزم تغلب هزيمة نكراء .

وعلى هذا النحو اصطدمت تميم بالأزد فى البصرة ، وتنازعت معها على الإمارة وقتلت سيدها مسعود بن عمرو ، فثارت ثائرة الأزد ، غير أن الأحنف بن قيس ، سيد تميم أصلح بحكمته بين القبيلتين المتخاصمتين [٤] . وحين انتقلت بعض بطون تميم والأزد إلى خراسان انتقلت وهى تحمل معها عداءها وعصبيتها ، وإذا الخصومات

---

(١) العصر الإسلامى للدكتور شوقى ضيف ص : ١٥٠ .

(٢) انظر الطبرى ٢ : ٤٧٢ ، واليعقوبى ٣ : ٢ ، ومروج الذهب ٣ : ٩٤ ، والعقد الفريد ٤ : ٣٩٧ .

(٣) الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠ : ١٢١ — ١٢٧ .

(٤) الطبرى ٢ : ٤٣٣ — ٤٦٧ .

والمنازعات تنشب بينها ، وتكاد تكون صورة أخرى عما كان بينها فى البصرة من العصبيات والمشاحنات [١] .

وإذا كانت السياسة قد تدخلت فى الصراع بين القيسية واليمنية فى الشام والجزيرة والبصرة وخراسان ، وطبعته بطوابعها ، فإن القبائل البدوية التى ظلت تعيش فى نجد كانت تتشاجر بسبب تضارب مصالحها الاقتصادية ، بل بسبب اختلافها وتنازعها على عيون الماء التى كانت تعتمد عليها فى حياتها وحياة أنعامها . وهو تشاجر كان يحل فى بعض الأحيان بالطرق السلمية [٢] ، غير أنهم لم يكونوا يجنحو إلى السلم فى كل الظروف بل كان كل منهما يشهر السيوف فى وجه خصمه ويقتتلون معاً أشد قتال وأشنعه حتى لتسيل الدماء وتكثر الثارات [٣] .

والمهم أن محافظة هذه القبائل على أنسابها وحرصها على أن تكون متوافرة فى أنفسها ، وما جر ذلك عليها من التعصب والتحزب . بحكم المنافسات الاقتصادية والسياسية ، وما كان من استعار نار الحرب بينها قد أدى بدوره إلى إحياء قانون من أشهر القوانين الجاهلية ، وهو قانون الأخذ بالثأر الذى هدمه الإسلام وجعله من حق الدولة . ويرى الإنسان فى الشام وأرض الجزيرة أن العرب لم تتغير ظروفهم عما كانت عليه فى الجاهلية ، فلا الإسلام ولا النصرانية حالا بينهم وبين الأخذ بالثأر ، إذ كانوا يؤثرون النار على العار ، ولا يندمون إلا حين لا ينفع الندم ، بل هم صاروا فى ظروفهم الجديدة أشد قسوة ، وأمعن فى التهور مما كانوا عليه فى الجاهلية ، فإذا الحرب تشعل الحرب ، والثأر يولد الثأر ، وإذا هم لا يكتفون بالقتل ، بل يمثلون بمن يلقى مصرعه من خصومهم حتى لقد كانوا يبقرون بطون من يأسرونه من نساء أعدائهم [٤] .

ولم تقف التأثيرات القبلية التى انسابت إلى العرب من الحياة الجاهلية عند تمسك كل قبيلة بأنسابها وتعصبها لأبنائها ، ولا عند بعثها لقانون الأخذ بالثأر ، فقد كان

---

(١) تاريخ الدولة العربية ، لفلهوزن ص : ٢٠٣ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠ : ١٦٥ ، ومعجم مااستعجم ٣ : ٨٦٢ ، ٨٦٦ .

(٣) نقائض جرير والفرزدق ٢ : ٩٢٦ .

(٤) تاريخ الدولة العربية ص : ٢٠٢ .

لها مظهر آخر ، وهو قانون الجوار والاستجارة ، إذ كان العرب فى الجاهلية يستجير الضعيف منهم بالقوى ، والذليل بالعزيز . وهكذا ظلوا فى الإسلام ، ففى أخبارهم ما ينبئ بأنهم كانوا يجيرون من عاذ بهم ، ومن العجيب حقًّا أن يجير الخلفاء من عمالهم وولاتهم مع أنهم ينفذون سياستهم[١] . وأشهر من ذاع صيته فى هذا الصدد الفرزدق الذى كان يجير كل من لاذ بقبر أبيه على شاكلة ما كان يجير الجاهليون من عاذ بقبور آبائهم وأجدادهم . وقد افتخر فى شعره بذلك ، واحتفظ المبرد[٢] وأبو عبيدة[٣] بمجموعة من إجاراته لغير واحد ممن قصدوا قبر أبيه بكاظمة ، وحملوه لذلك أن يحميهم أو يستشفع لهم أو يحل مشاكلهم مع بعض القبائل والولاة . ومن طريف ما يروى له أن امرأة جاءته وأخبرته أنها استجارت بقبر أبيه ، وأحضرت منه حصَيات معها ، وأنها تريد أن يتوسط لها عند تميم بن زيد والى السند للحجاج ، الذى أخرج معه وحيدها لعله يرده إليها . فكتب إليه :

تميمَ بنَ زيدٍ لا تكونَنَّ حاجَتِى بظَهْرٍ فلا يَعْيَا علىَّ جَوَابُها
أَتَتْنِى فَعَاذَتْ ياتميمُ بغالبٍ وبالحُفْرَةِ السَّافى عليها ترَابُها

فاستجاب له ، وأرجع ابنها إليها[٤] .

وعلى نحو ما كانوا يعلنون إجارتهم على الملأ فى الجاهلية ، لما يترتب على المجير من حقوق نحو جاره ، فإنهم كانوا لا يتحللون من حق الجوار سرًّا ، بل كانوا يذيعونه فى الناس . وظلت الحال كذلك فى الإسلام ، إذ كانوا يتعاقدون على الجوار علانية ، كما كانوا ينادون فى المدن أن قد رددنا على فلان جواره[٥] ، وبلغ من محافظتهم على هذه العادة أنهم كانوا يشيعون نبأ تحللهم ممن استجار بهم فى المسجد الجامع[٦]، لكى يعرفه القاصى والدانى .

(١) الطبرى ٢ : ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، مروج الذهب ٣ : ١٨٩ ، والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ : ١٧٣ .
(٢) الكامل ٢ : ٧٥ وما بعدها .
(٣) نقائض جرير والفرزدق ٢ : ٨٧ وما بعدها .
(٤) الكامل ٢ : ٨٧ .
(٥) السيرة النبوية ١ : ٣٩٥ .
(٦) الأغانى (طبعة دار الكتب والوثائق القومية) ١٥ : ٣٧٤ .

ومعنى ذلك أن حياة القبائل فى الإسلام لم تختلف اختلافاً بيناً عن حياتها فى الجاهلية ، فقد استمرت تعيش على الرعى ، متمسكة بمعظم تقاليدها وقوانينها الموروثة على الرغم من دعوة الإسلام إلى التخلص منها والتخلى عنها ، إذ ارتدت إلى المحافظة وحدتها وأنسابها والإذعان لشيوخها والاعتداد بماضيها والنهوض للأخذ بثأر أبنائها وحماية من استجار بها ، والتحالف مع القبائل الأخرى لما يربط بينها من المصالح المشتركة اقتصادية وغير اقتصادية . وكان من نتائج استشعارها بقوة للروح القبلية أن أحْيَتْ قانوناً جاهلياً آخر ، وهو قانون الخلع الذى عمدت إليه لنفس الدوافع التى حملت القبائل فى الجاهلية على اللجوء إليه ، إذ أخذت تخلع أحد أفرادها إما لكثرة جناياته فيها أو على غيرها [١] ، وإما لسوء سلوكه الاجتماعى والأخلاق [٢] ، كما عادت إلى إعلان هذا الخلع على الناس، حتى لا تُؤْخذ بجرائر من خلعته منها [٣] .

ويبدو أنها مالت إلى استخدام هذا القانون استخداماً واسعاً وأنها تشددت فى تطبيقه وتنفيذه، بحيث كانت تتنكر لخلعائها أشد التنكر وتتنصل من جرائرهم كل التنصل، لأنها كانت تحد بذلك من الخلافات والانقسامات التى يمكن أن تحدث بين صفوفها وتمزق وحدتها ، ولأنها كانت تتجنب به أيضاً المنازعات والاصطدامات التى يمكن أن تنشب بينها وبين القبائل الأخرى . ومما زاد من إهمالها لهم وتخليها عنهم أن الولاة كانوا يأخذون بعضها أخذاً شديداً بجنايات صعاليكها ولصوصها وفتاكها [٤] .

ويشكو هؤلاء الخلعاء الأمويون فى أشعارهم مر الشكوى من سوء معاملة قبائلهم لهم وقسوتها عليهم ، حتى ليصمها بعضهم بالجور والتقصير ، وحتى ليهددها بالخروج عنها والعيش فى الصحراء ، حيث أرض الله الواسعة ، وحيث المكان الذى لا يذل فيه الإنسان . ومن خير ما يصور ذلك قول الخطيم العكلى قبل أن يتصعلك ويتلصص [٥] :

---

(١) الشعر والشعراء ص : ٧٨٧ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ١٦٦ .

(٣) المصدر السابق ١٩ : ١١١ .

(٤) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١١١ .

(٥) معجم البلدان ٨ : ٩٢ .

بنى ظالمٍ لا تظلمونى فإنّنى إلى صالحِ الأَقْوام غَيْرُ بَغِيض
بنى ظالمٍ إنْ تَمْنَعُوا فَضْلَ ما بكُمْ فإنَّ بِسَاطى فى البلاد عَرِيض
فإن المعَالمَ يُسْلَبِ الدَّهْرَ عِزَّهُ به العَلَجَان المُرُّ غَيْرُ أَرِيض[١]

فهو ينذر عشيرته ويحذرها لعلها تكف عن ظلمه ، وتهب لنصرته ، وإلا فهو يؤمن بأن تركها والابتعاد عنها خير له من الإقامة بينها ذليلا مظلوماً . فأرض الدهناء لا تزال موجودة ، وهو يفضل الحياة فيها عزيزاً كريماً مع صعوبة العيش بها ، وتعذر أسباب الرزق فيها . ويظهر أن عشيرته لم تستمع إلى إنذاره، ولا أقامت وزناً لتحذيره بل تمادت فى ازورارها عنه ، وظلمها له ، مما جعله يكفر بها ، ويخرج عنها ، وينضم إلى الصعاليك واللصوص ، ويتخذ من الإغارة والغزو وسيلة إلى حياته .

وعلى هذه الصورة كانت حياة القتّال الكلابى ، فقد تعددت جرائمه ، واستطا شره ، فأهملته قبيلته ، وتقاعست عن مساندته ، حتى ذل فيها وهان عليها ، وشاع خبر تخليها عنه ، وقعودها عن مظاهرته بينها ، وأخذ أفرادها يعيرونه بذلك مرددين أنه كَلٌّ عليهم ،خاملٌ فيهم ، ضعيف أمام خصمه بينهم[٢] . وها هو ذا يُنْكِرُ هذا الصنيع عليها ويُنَدِّدُ بها قائلا[٣] :

يا لَيْتَنى والمُنَى لَيْسَتْ بنَافِعَةٍ لمالكٍ أَو لِحِصْنٍ أَو لِسَيَّار[٤]
طِوَال أَنْضِيَةِ الأَعْنَاق لم يَجدُوا ريحَ الإماءِ إذا رَاحَتْ بأَزْفَار[٥]
لا يَتْركُونَ أَخَاهُمْ فى مُودَّأَة يُسْفَى عليه دَلِيكُ الذُّلِّ والعار[٦]
ولا يَفِرُّونَ والمَخْزَاةُ تَقْرَعُهُمْ حتى يُصِيبوا بأَيْدٍ ذاتِ أَظْفَار

(١) المعا : مفازة متصلة بالدهناء . العجلان : نبت لا ورق له . غير أريض : يابس .
(٢) أمالى القالى ٢ : ٢٢٣ .
(٣) الكامل ١ : ٥٤ .
(٤) بنو مالك وحصن وسيار من فزارة ، مشهورون بِمَنَعَتِهِم وتَمَرُّدهم .
(٥) أنضيه الأعناق : عظامها . الأزفار : الأحمال .
(٦) المؤدأة : الشدة والمهلكة . الدليك : التراب الناعم .

أرأيت إليه كيف يدمغ قبيلته بالجبن والضعف والخوف من القبائل الأخرى أو من السلطان ؟ إنه لا يؤمن بهذه المثل الجديدة التى آمنت بها وانصاعت إليها سعياً وراء الأمن والهدوء والاستقرار والبعد عن المشاكل والاقتتال ، بل يؤمن بمثل الجاهلية وما كانت تقوم عليه من العصبية القبلية وما كان يستعر بسببها من الحروب ومن أجل ذلك يتمنى ويمعن فى التمنى لو كان لا ينتمى إليها ، بل إلى بنى فزارة الأصلاء الأقوياء الأشداء ، الذين لا يتخلفون عن الانتصار لأبنائهم فى الشدائد ، ولا يتخلون عنهم فى المحن ، بل يطيرون إليهم ، خوفاً من الخزى العار.

ولم تبال قبيلته به ولا اكترثت له ، بل تركته يتصرف كما يشاء ، ويعتقد بما يريد من المثل والمبادىء ، وانصرفت إلى تدبير أمورها كما ينبغى لها أن تدبرها ، وجعلته يواجه مشاكله بمفرده ويلقى الأذى والمكروه وحده [1] . وأمام إهمالها له ، وتشديد السلطان فى طلبه هرب إلى الجبال الصعبة النائية ، وتصعلك وراح يغير هو وأضرابه من الصعاليك على القوافل ويقتلون رجالها وينهبون أموالها [2] ، مما جر عليه أن يقبض عليه ويلقى فى السجن عقاباً له على ما اقترف من الجرائم . وتهون عليه الحياة ، ولا يجد غير الجريمة وسيلة إلى الخلاص من سجنه ، فيقتل حارسه ويفر من حبسه [3]

وإزاء هذه الظروف السيئة والأحوال البائسة التى كان يعيش فيها هؤلاء الخلعاء من إهمال وذل ، بعد تبرؤ قبائلهم منهم وتخليها عنهم لم يكن أمامهم إلا أن يتصعلكوا ويخرجوا إلى الصحراء ويعتمدو الإغارة لاكتساب ما يقتاتون به ، ويتعيشون عليه. وبجانب الحطيم العكلى والقتال الكلابى خلعاء كثيرون انتهجوا سبيلهم ، ومارسوا أعمالهم من الإغارة والنهب نذكر منهم مسعود بن خرشة الشاعر البدوى التميمى وأحد اللصوص الذين كان خلعهم سبب تصعلكهم وتلصصهم ، إذ الراجح أن قومه خلعوه لفساد أخلاقه [4] ، وعبيد بن أيوب العنبرى الذى كان لصًّا فنذر السلطان

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠ : ١٦٣ ، وخزانة الأدب للبغدادى ٣ : ٦٦٩ .
(٢) المصدر نفسه ص : ١٦١ .
(٣) المصدر نفسه ص : ١٦١ .
(٤) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ١٦٦ .

دمه وخلعه قومه ، فاستصحب الوحوش وأنس بها وأنست به [١] ، والأحيمر السعدى الذى كان أيضاً لصًّا كثير الجنايات ، فخلعه قومه وخاف السلطان ، فخرج إلى الفلوات وقفار الأرض [٢] ، ويَعْلَى الأحول اليشكرى الأزدى ، إذ كان لصًّا فاتكاً خارباً يجمع صعاليك الأزد وخلعاءها ، ويغير بهم على أحياء العرب ويقطع الطريق على السابلة ، فشكى إلى نافع بن علقمة الكنانى والى مكة ، فأخذ به عشيرته الأدنين فلم ينفعه ذلك ، واجتمع إليه شيوخ الحى وعرفوه أنه خليع قد تبرأوا من جرائره إلى العرب فلم يقبل ذلك منهم وألزمهم إحضاره ، وضم إليهم شرطاً يطلبونه إذا طرق الحى حتى يجيئوا به . فلما اشتد عليهم فى أمره طلبوه حتى وجدوه فأتوا به فقيده وأودعه السجن [٣].

وعلى هذا النحو كلما استعرضنا أخبار هؤلاء الخلعاء تبين لنا أن قبائلهم إما كانت تخلعهم لفساد سلوكهم الأخلاقى أو الاجتماعى ، وأنها كانت تتبرأ منهم بعد خلعها لهم ، وأن حياتهم فيها حينئذ كانت ذليلة مهينة ، بحيث لم يكن أمامهم إلا أحد أمرين : فإما أن يحيوا بين قبائلهم ويقبلوا مع هذه الحياة المذلة والهوان ، ويرتضوا أن تسلمهم إلى الولاة إذا طلبوهم منها لينالوا عقابهم ، وإما أن يرفضوا العيش معها وييمموا وجوههم نحو القفار والبرارى والجبال ، حيث الأمكنة التى يجدون فيها الحرية والأمن والخلاص من العمال وعذابهم .

وإذا كانت محافظة القبائل على تقاليدها قد أدت إلى ظهور طائفة الصعاليك الخلعاء فى المجتمع الأموى ، فإن خضوعها لقوانين الدولة وأمرائها الذين كانوا يتولون تنفيذ هذه القوانين ، أدى كذلك إلى ظهور طائفة جديدة من الصعاليك ، وهى طائفة الصعاليك الفارين من العدالة فإن القبائل العربية التى استقرت فى الحواضر أو التى استمرت تعيش فى البوادى لم تكن مستقلة عن الدولة ، وإنما كانت مرتبطة بها وكان ينوب عن الدولة فى تلك الحواضر والبوادى عمال أسندت إليهم سياسة الناس ، وتصريف أمورهم ، والمحافظة على أرواحهم وأموالهم .

---

(١) سمط اللآلى ص : ٣٨٤ .

(٢) الشعر والشعراء ص : ٧٨٧ .

(٣) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١١١ .

وكان يحدث أن يتمرد بعض الأفراد على القانون ، ويعيثوا فى الأرض فساداً ، ويخيفوا الناس كأن يستهتروا بالقتل والسفك أو يحترفوا اللصوصية وقطع الطرق : فكانت القبائل ترفع جرائمهم إلى الولاة أو من يقوم مقامهم ، وتطلب إليهم الضرب على أيديهم فكانوا يطلبونهم مستعينين حيناً بشرطهم وحيناً آخر بقبائلهم [١] : وكان يَحْدُث أيضًا أن يعم أذى بعض الفتاك واللصوص ويعظم خطرهم ويصعب على العمال القبض عليهم ، مما كان يضطر بعض القبائل التى أصابها شرهم إلى الاستنجاد بأكبر الولاة [٢] أو بالخليفة نفسه [٣] .

ومن الطبيعى أن الفتاك واللصوص لم يكونوا يسلمون أنفسهم طوعاً إلى العمال لكى ينالوا جزاءهم ، وإنما كانوا يفرون منهم ويهربون . فكان العمال بدورهم يتشددون فى تعقبهم ويفرضون المكافآت الضخمة لمن يدل عليهم [٤] ، حتى إذا ما ظفروا ببعضهم زجوه فى الحبس أو صلبوه [٥] أو قتلوه [٦] . ومن هنا كان من ينجو منهم يمعن فى الاختفاء ، ويبعد الضرب فى مجاهل الأرض ، فراراً من العيون والجواسيس ، وابتغاء للخلاص من العقاب الشديد الذى ينتظره . وكانت الصحراء المكان الآمن النائى الذى يفرون إليه ويختفون فيه ، ويتجمعون به ، ثم يتصعلكون ، ويأخذون فى الإغارة على القوافل أو الإبل السائمة أو الأسواق .

وهؤلاء هم الذين يؤلفون طائفة الصعاليك الفارين من العدالة فى المجتمع الأموى ، ومنهم الهيزدان بن خطّار ، كان لصاً فطلبه السلطان ففر إلى خراسان [٧] ، والقتال الباهلى ، كان شاعراً فارساً ، فأحدث حدثاً فهرب إلى جبل يذبل وأقام به [٨] وعبد الله بن الأحدب السعدى اللص الفاتك ، جنى جناية فترك بلاد تميم ولحق ببلاد

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١١١ ، ٢١ : ٥٢ .
(٢) شرح شواهد المغنى ص : ١٤٠ ، خزانة الأدب للبغدادى ٣ : ٣٤١ .
(٣) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥١ .
(٤) شرح شواهد المغنى ص : ١٣٩ .
(٥) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٩ .
(٦) المصدر السابق ٢١ : ٥٣ .
(٧) معجم الشعراء ص : ٤٦٩ .
(٨) المؤتلف والمختلف ص : ٢٥٢ .

قضاعة [١] ، وَبهْدَلُ الطائى وأخوه مروان ، ورفيقهما السمهرى بن بشر العكلى اللص ، أغاروا جميعاً على عون بن جعدة وهو فى طريقه إلى الحج ، وقتلوه ، فطلبهم عبد الملك بن مروان أشد طلب حتى قبض عليهم ، ونكل بهم [٢] .

ويشترك بعض الصعاليك الفقراء أو الخلعاء مع هذه الطائفة من الصعاليك الفارين من العدالة فى التشرد وطلب العمال لهم ، ومطاردتهم إياهم ، مثل مالك ابن الريب ، وجحدر بن مالك الحنفى ، ويعلى الأحول ، والقتّال الكلابى ، وعبيد ابن أيوب العنبرى ، والأحيمر السعدى .

ويصور الصعاليك الجناة المتمردون المطاردون خوفهم وهيامهم على وجوههم فزعين مذعورين ، وكيف أن التشرد أهزل أجسامهم ، وغير ألوانهم ، وأنهك قواهم على شاكلة ما يتضح فى قول القتال الباهلى [٣] :

تقولُ ابنَةُ البكريِّ لمَّا بدَا لنا لَدى السِّتْرِ منها لِمَّةٌ وبَنَانُ
أراكَ ظَلِلْتَ اليومَ أسودَ شاحِباً طَرِيدَ دَمٍ يُرْمَى بك الرَّجَوان [٤]
أخَا سَفَرٍ يَشْكُو الكلالَ ركابُهُ تبَدَّل مُرَّ العَيْشِ بَعْد لِيَان

ويصور بعضهم ممن قبض عليهم وأودعوا الحبس سجونهم وأبوابها وأحراسها ، وقيودهم وآثارها فى أيديهم وأرجلهم ، وجلاديهم من السودان والأعاجم ، وماكانوا يلقون من المعاملة السيئة والتعذيب الشديد ، وكيف أن أهلهم وأصدقاءهم كانوا يتخلون عنهم ويمتنعون عن زيارتهم ، وكيف أنهم كانوا لا يخرجون من سجونهم ، مما سنقف عنده بالتفصيل فى الفصل الذى سنعقده لموضوعات أشعارهم ، ومما يروى للسمهرى بن بشر العكلى وهو فى الحبس قوله [٥] :

لقد جَمَعَ الحَدَّادُ بَيْنَ عِصَابَةٍ تُسائِلُ فى الأَقْيَادِ ماذا ذُنُوبُها [٦]

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥٢ .
(٢) المصدر نفسه ص : ٥١ وما بعدها .
(٣) المؤتلف والمختلف ص : ٢٥٢ – ٢٥٣ .
(٤) رمى به الرجوان : استهين به .
(٥) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥٤ ، مجموعة المعانى ص : ١٣٨ .
(٦) الحداد : السجان

بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللئيمُ فَشَامِتٌ بها وكِرَامُ القَوْمِ بادٍ شُحُوبُها
إذا حَرسىٌّ قَعْقَع البابَ أُرْعِدَتْ فَرَائِصُ أَقْوَامٍ وطَارَتْ قُلُوبُها[1]
أَلا لَيْتَنى من غَيْرِ عُكْلٍ قبيلتى وَلَمْ أَدْرِ ما شُبَّانُ عُكْلٍ وَشِيبُها
قَبِيلةٌ لا يَقْرَعُ البابَ وَفْدُها لِخَيْرٍ ولا يُهْدَى الصَّوابَ خَطِيبُها

فهو يصف السجن الذى ضم بين جدرانه أخلاطاً من المسجونين الذين تباينت جرائمهم ، وكيف أن السجان قيدهم فيه بالأغلال وأغلق عليهم الأبواب ، فاصفرت وجوههم ، ونحلت أجسادهم ، وامتلأت قلوبهم خوفاً ونفوسهم توجساً ، وكيف أنهم كانوا إذا فتح الحارس باب سجنهم يشتد بهم الفزع والهلع ، وتخور قواهم وتنهار أعصابهم ، كما ينحى باللوم على عشيرته التى أهملته وتخلف أبناؤها عن زيارته ، وما يزال إحساسه بتقصيرها وسخطه عليها يتضخمان فى نفسه حتى يود لو أنه لا ينتسب إليها .

وواضح من كل ما أسلفنا أن تمسك القبائل بتقاليدها الموروثة وتطبيقها لها على أبنائها من ناحية ، وإذعانها لقوانين الدولة التى كان عمالها يقومون بتنفيذها فيها من ناحية أخرى قد أنشأ طائفتين من الصعاليك : أولاهما طائفة الصعاليك الخلعاء ، وأخراهما طائفة الصعاليك الفارين من العدالة . وفى كل الأحوال لم يكن أفراد هاتين الطائفتين يرتضون أن يذلوا فى قبائلهم ، ولا أن يستسلموا للولاة لكى يحبسوهم ويعذبوهم ، وإنما كانوا ينفرون من الضيم والظلم فى قبائلهم ، ويرفضون الاستسلام للولاة وشرطهم ، ويولون وجوههم نحو الفيافى والقفار والجبال ، حيث الأمكنة التى لا يمتد إليها النفوذ القبلى ولا يصل إليها شُرَط السلطان ، والتى يتمتعون فيها بالكرامة والسلامة ، وحيث تتجمع عصاباتهم ، وتعيش مطاردة مشردة فقيرة ضائعة ؛ وفى ظل هذه الأحوال السيئة والبيئات الصحراوية والجبلية المجدبة ، وما كانوا يقاسون فيها من التشريد والخوف ويعانون من القلة والمجاعة ، لم يكن أمامهم إلا طريق واحدة ، وهى أن يتصعلكوا ويتخذوا من الغزو والتلصص سبيلا إلى الفوز بما يتبلغون به ويحيون عليه .

---

(١) أرعدت : ارتجفت واضطربت . الفرائص : جمع فريصة ، وهى اللحمة التى بين الجنب والكتف .

٣

العامل السياسى

آذن مقتل عثمان بن عفان على أيدى ثوار الأمصار وما تلاه من أحداث بافتراق العرب وانقسامهم ، وظهور الأحزاب المختلفة التى ظلت تتصارع على الخلافة ومن يجب أن يتولاها على مدار العصر الأموى . فقد بايع أكثر العرب أنصاراً ومهاجرين لعلى بن أبى طالب إلا السيدة عائشة وطلحة والزبير ، فإنهم رفضوا المبايعة له وانحدروا من مكة إلى البصرة حيث أنصارهم وأشياعهم للمطالبة بدم عثمان[١] . وتبعهم على ونزل بالكوفة وأخذ يراسلهم مبتغياً حقن دماء المسلمين ، غير أنه لم يكتب له النجاح ، فدارت موقعة الجمل بينه وبينهم ، وانتهت بانتصاره عليهم ، ومقتل طلحة والزبير وعودة السيدة عائشة إلى مكة[٢] . ثم استعرت بينه وبين معاوية معركة صفين التى دارت فيها الدوائر على معاوية وجيشه من أهل الشام ، وكاد ينهزم لولا توسله للاستظهار على خصمه برفع المصاحف على أسنة الرماح[٣] . واتفق الطرفان على التحكيم ، وكان ما كان من خلع عمرو بن العاص لعلى وتثبيته لمعاوية ، وثورة فريق من أصحاب على به ، ومطالبتهم له رفض الحكم ومقاتلة معاوية . فلما لم يأخذ برأيهم انفضوا من حوله ، ودارت بينه وبينهم معركة النهروان ، ففتك بهم فتكاً ذريعاً ولكنهم لم يلبثوا أن اتفقوا على التخلص منه ومن خصمه ، فغدروا به وقتلوه وسلم معاوية[٤] .

وبذلك خلا الجو لمعاوية وبويع خليفة للمسلمين ، غير أن ثلاثة أحزاب بدأت تظهر على المسرح السياسى منذ مطلع خلافته ، وهى حزب الزبيريين ، وحزب الخوارج ، وحزب الشيعة . أما حزب الزبيريين فينسب إلى عبد الله بن الزبير أول

---

(١) الطبرى ١ : ٣١٠٦ ، وابن الأثير ٣ : ٨٧ .

(٢) الأخبار الطوال ص : ١٥١ .

(٣) ابن الأثير ٣ : ١٣٦ ، وشرح نهج البلاغة ٢ : ٢٠٦ .

(٤) الكامل للمبرد ٣ : ١٩٧ ، والأخبار الطوال ص : ٢١٣ ، وابن الأثير ٣ : ١٧١ .

مولود فى المدينة بالإسلام [١] ، وابن الزبير بن العوام حوارى الرسول الكريم ، وأحد رجال الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب لينتخب منهم خليفة للمسلمين من بعده . وقد ترعرع عبد الله فى ظل الإسلام وساهم فى شبابه بالفتوح ، إذ غزا مع النعمان بن مُقَرِّن أصبهان سنة إحدى وعشرين [٢] ، كما غزا مع سعيد بن العاص طبرستان سنة ثلاثين [٣] . وحين ثار خوارج الأمصار على عثمان لزم داره وذب عنه بسيفه [٤] ، والتزم مع والده جانب السيدة عائشة وطلحة حين طالبوا بدم عثمان بل يقال إنه كان من المحرضين لهم على الخروج إلى البصرة [٥] . وشارك فى موقعة الجمل وجرح وهو يذود عن السيدة عائشة ، وأقام بعد مقتل أبيه بالبصرة ، وشهد التحكيم ، ولم يلبث أن عاد إلى مكة بعد أن قتل على و بويع معاوية خليفة للمسلمين [٦] فاسترضاه معاوية وداراه ، وشغله عنه بإشراكه فى غزو بلاد الروم مع يزيد [٧] .

ولكن سرعان ما نشب الخلاف بينهما ، وكشف عبد الله عن عدائه السافر لمعاوية ومعارضته لسياسته عند ما أخذ يناور لأخذ البيعة لابنه يزيد ، إذ رفض المبايعة له ، وثبت على موقفه منه بعد وفاة أبيه ، واعتصم بداره فى المدينة [٨] ، فكتب يزيد إلى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة أن يأخذ عبد الله بن الزبير والحسين ابن على وعبد الله بن عمر أخذاً شديداً حتى يبايعوه [٩] . فبايع عبد الله بن عمر ، وامتنع الحسين بن على وعبد الله بن الزبير ، وذهبا إلى مكة سنة ستين ، غير أن ابن الزبير لم يدع لنفسه فى هذه السنة بمكة لوجود الحسين بن على معه بها ، بل أخذ يزين له الذهاب إلى الكوفة لأن له بها أنصاراً وأعواناً . وحدث أن راسل أهل الكوفة الحسين فى الخروج إليهم ، فذهب سنة إحدى وستين وقتل بكربلاء .

---

(١) الطبرى ١ : ٢٤٨٠ ، وأنساب الأشراف ٥ : ١٩٤ .

(٢) الطبرى ١ : ٢٦٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٢٨٣٨ .

(٤) المصدر نفسه ص : ٣٠٠٩ .

(٥) المصدر نفسه ص : ٣١٢٧ .

(٦) الطبرى ١ : ٣٢٠٧ ، ٣٣٥٤ .

(٧) المصدر نفسه ٢ : ٨٦ .

(٨) المصدر نفسه ص : ١٧٦ ، ٢١٧ .

(٩) المصدر نفسه ص : ٢١٧ .

وهكذا تهيأ الظرف المناسب الذى كان ينشده ابن الزبير بمكة ، فأخذ يدعو لنفسه ، وتصادف أن ثار أهل المدينة على يزيد متهمين له بالفجور والفسق ، وطردوا عامله وسائر بنى أمية [١] ، فسير لهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، فقضى على ثورتهم وقتل منهم خلقاً كثيراً فى موقعة الحرة المشهورة ، وتوجه إلى مكة يريد القضاء على ابن الزبير وأهل مكة الذين التفوا حوله وناصروه ، فمات قبل أن يصل إليها ، واستخلف على الجيش الحصين بن نمير ، فواصل السير نحو مكة حتى بلغ إليها ، وأحاط بها ، وبدأ يرميها بالمجانيق ، وقبل أن يدخلها أتاه نبأ موت يزيد ففك الحصار عنها ورجع إلى الشام [٢] .

ويتولى معاوية بن يزيد الخلافة ويسوس الناس بالرفق والعدل ، ويستنكر سياسة جده وأبيه وما قامت عليه من العنف بالعلويين والزبيريين [٣] . ولا تطول خلافته ، بل يتوفى بعد أشهر معدودة ، وحينئذ تضطرب الأمور فى كثير من الأمصار ، ولا يلبث أن يظهر مروان بن الحكم بدمشق تدعمه القبائل اليمنية ، ويهزم القبائل القيسية ويقمع ثورتها ويقتل زعيمها الضحاك بن قيس فى موقعة مرج راهط وبذلك خلص له حكم الشام فتوجه إلى مصر وأخضعها ، ولكن الأجل عاجله فتوفى سنة خمس وستين .

وفى أثناء اشتغال مروان بن الحكم بإخضاع الشام ومصر كان عبد الله بن الزبير قد تغلب على مكة وسمى نفسه أمير المؤمنين ، ومال إليه أكثر الناس ، إذ بايعه أهل مصر وفلسطين ودمشق وحمص وقنسرين والكوفة والبصرة وخراسان ، ولم تبق ناحية إلا حطبت فى حباله سوى الأردن [٤] ، فإنها لم تدخل فى طاعته لسيطرة أهل اليمن عليها . وبعد وفاة مروان بن الحكم بايع أهل الشام لابنه عبد الملك ، فتأنى وتمهل ولم يتسرع إلى مقاتلة ابن الزبير ، وإنما ظل ينتظر الفرصة المناسبة للفتك به . وحين تمكن من دحر الخوارج آنس من نفسه استعداداً ومقدرة . فدهم مصعب بن الزبير بالعراق [٥] ،

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٧٨ .
(٢) اليعقوبى ٢ : ٢٤٠ ، مروج الذهب ٣ : ٩١ .
(٣) اليعقوبى ٢ : ٢٤٠ .
(٤) اليعقوبى ٣ : ٢ .
(٥) ولى مصعب بن الزبير العراق لأخيه عبد الله منذ سنة ثمان وستين ، وغلب المختار الثقفى على الكوفة ، وقتله بها .

وقتله ومزق أتباعه شر ممزق سنة اثنين وسبعين . وعلى هذا النحو صفّى عبد الملك أعداءه بالشام والعراق ، وكان والده قد أخضع مصر، فاستقام له الأمر فى هذه الأمصار، وأخذ يُعِدُّ للقضاء على عبد الله بن الزبير بمكة ، ويختار الحجاج بن يوسف ويرسله على رأس جيش ضخم إليها ، فيحاصرها وما يزال بها حتى دخلها وقتل ابن الزبير (١) .

وبمقتل ابن الزبير بمكة انتهى حزب الزبيريين ، ولم تقم له قائمة . وهو حزب لم تكن له نظرية سياسية واضحة المبادئ والأهداف ، وكل ما هناك أن ابن الزبير كان من الثائرين على بنى أمية ، والداعين إلى انتزاع الحكم منهم ورده إلى قريش كما كان يؤثر انتقال مركز الخلافة من الشام إلى الحجاز . ويصور ذلك عبيدالله بن قيس الرقيات تصويراً دقيقاً ، فقد اتصل بمصعب بن الزبير ، ومضى يمدحه ، ويهجو الأمويين متوعداً لهم بالغارات التى تسحقهم سحقاً ، وتعيد لقريش مكانتها وسيادتها (٢) .

وأما حزب الخوارج فهو أهم حزب ناهض الأمويين وشهر السلاح ضدهم (٣) ومر بنا أن فريقاً من القراء الذين كانوا من أصحاب على فى موقعة صفين هم الذين أجبروه على قبول التحكيم ، غير أنهم رفضوا نتيجته منادين أن لا حكم إلا لله . فلما لم يذعن علىٌّ لهم انفصلوا عنه وارتحلوا إلى حروراء ، وبايعوا ابن الكواء ثم عبد الله ابن وهب الراسبى . وأراد على أن يردهم بالحسنى ، فارتد بعضهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى سيرتهم الأولى مرددين أن لا حكم إلا لله ، وظل علىٌّ متغافلاً عنهم حتى بلغه قتلهم لعبد الله بن حباب الصحابى المشهور فالتحم معهم بالنهروان وقتلهم شر قتلة (٤) ولكن بقاياهم مضت فى ثورتها عليه ومجاهدتها له ، وما زالت تفكر فى الغدر به حتى اغتاله ابن ملجم . وبذلك خلص الأمر لمعاوية ، غير أنهم لم يرضوا عنه ولا رأوا فيه الخليفة الصالح ، وأخذت نظريتهم السياسية تتضح ، فقد كفروا عليًّا وعثمان

---

(١) مروج الذهب ٣ : ١٢٢ .

(٢) ديوانه ص : ٩٥ .

(٣) انظر فيهم الخوارج والشيعة لفلهوزن ص : ٣ وما بعدها .

(٤) الأخبار الطوال ص : ٢٠٧ ، وابن الأثير ٣ : ١٤٨ .

وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضى بالتحكم أو صوب الحكمين أو أحدهما [١] ، مؤمنين بأن الخلافة حق لكل مسلم توفرت فيه صفة العدل واجتناب الجور ، بصرف النظر عن كونه عربيًّا أو عجميًّا أو حرًّا أو عبداً [٢] . وتوالت ثوراتهم على معاوية بالكوفة ، وأول من ثار منهم بها حوثرة الأسدى ، إذ نزل بالنخيلة والتقى بجيش معاوية وقتل [٣] . وفى سنة إحدى وأربعين خرج فروة بن نوفل ، ونازل جيش معاوية من أهل الشام وتغلب عليه ، فندب معاوية أهل الكوفة فقاتلوه وأسروه [٤] . وفى سنة ثلاث وأربعين خرج المستورد بن علفة فألب عليهم المغيرة بن شعبة والى الكوفة شيعة على فاقتتلوا قتالا شديداً وقتل المستورد [٥] . وفى سنة ثمان وخمسين ظهر حيان بن ظبيان بها فكان مصيره كمصير سابقيه من ثوار الخوارج [٦] .

وأما فى البصرة فلم تقم لهم قائمة إلا بعد سنة ثمان وخمسين ، إذ كان زياد ابن أبيه والى البصرة منذ سنة خمس وأربعين ، قد أخذ الناس بالشدة وجرّد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة ، وكان يقتل المعلن من الخوارج ويستصلح المسر [٧] . وخلفه ابنه عبيد الله فكان لا يلبثُ الخوارج ، بل كان يحبسهم تارة ، ويقتلهم تارة ، وأكثر ذلك يقتلهم ولا يتغافل عن أحد منهم [٨] . وفى سنة ثمان وخمسين قتل عروة بن أدية ، ومثل به تمثيلا فظيعاً [٩] ، فغضب أخوه مرداس لمقتله بهذه الصورة البشعة ، وفر هو وأربعون من الخوارج إلى خراسان ، فأرسل إليهم عبيد الله بن زياد جيشاً عداده ألفان فهزموا جيشه بأسره هزيمة منكرة [١٠] ، فبعث إليهم ابن زياد جيشاً من ثلاثة آلاف رجل ، وعليهم عباد بن علقمة التميمى ، فلم

---

(١) الملل والنحل ١ : ١١٥ ، والفرق بين الفرق ص : ٤٥ .

(٢) الملل والنحل ص : ١١٦ .

(٣) الكامل للمبرد ٣ : ٢٣٩ .

(٤) ابن الأثير ٣ : ١٧٧ .

(٥) الطبرى ٢ : ٢٨ ، ابن الأثير ٣ : ١٨٣٤ .

(٦) الطبرى ٢ : ١٨٢ .

(٧) الكامل للمبرد ٣ : ٢٦٠ .

(٨) المصدر نفسه ص : ٢٦١ .

(٩) الطبرى ٢ : ١٨٥ ، والكامل ٣ : ٢٥٩ ، وابن الأثير ٣ : ٢٢٠ .

(١٠) الطبرى ٢ : ١٨٧ ، والكامل ٣ : ٢٥٣.

ينتصر عليهم فى أول الأمر ، فأخذهم وهم فى الصلاة ، فهزمهم وقتل مرداساً وحمل رأسه إلى البصرة . وبينما كان عباد عائداً هم به بعضهم فقتله[١] ، فأحنق ذلك ابن زياد حنقاً عظيماً ، وأمر واليه على البصرة عبيد الله بن أبى بكرة ألا يدع أحداً من الخوارج إلا حبسه .

ويثور ابن الزبير بمكة ضد بنى أمية ، ويتوجه إليه زعماء الخوارج وأتباعهم[٢] وسرعان ما يخيب ظنهم فيه ، إذ وجدوه على غير رأيهم ، فانفضوا من حوله ، واختلف زعماؤهم أشد الاختلاف فى كثير من التفاصيل الدينية ، مما أعدّ لظهور فرقهم المعروفة وأشهرها الأزارقة والنجدات الصفرية والإباضية .

أما الأزارقة فهم أتباع نافع بن الأزرق ، ولم تكن للخوارج فرقة أكثر عدداً ولا أشد شوكة منهم ، كما كانوا غلاة متطرفين ، فقد أكفر زعيمهم القعدة الذين يرفضون القتال من فرقته ، وأظهر البراءة منهم ، وأكفر من لم يهاجر إليه من المسلمين وأباح قتلهم وقتل أطفالهم وأحل سبى أموالهم[٣] . وقد قصد بعد تحوله عن ابن الزبير إلى البصرة ، وأطلق سراح إخوانه من سجنها ، ثم توجه إلى الأهواز ، وأقام بها وأخذ يجبى الخراج ويروع الناس ويقتل الأطفال ، ثم انحدر نحو البصرة ، فالتقى مع مسلم بن عُبَيْس وما زالا يتقاتلان ونافع يتقهقر حتى كانت وقعة دولاب على نهر دُجيل بالأهواز ، فاقتتلوا أشد قتال حتى تكسرت الرماح وقتل نافع ومسلم سنة خمس وستين[٤] . وتولى قيادتهم بالأهواز عبد الله بن الماحوز ، فنهض لمقاتلته المهلب ابن أبى صفرة فى ولاية الحارث بن القباع على البصرة ، فقتل ابن الماحوز ، وما زال يصارعهم فى سلىّ وسلّبرى ، وهم يتضعضعون وعليهم الزبير بن الماحوز إلى أن تمكن من قتله عمر بن عبيد الله بن معْمَر ، ثم ينهض المهلب بن أبى صفرة بقتالهم ، ولم يزل بالمهلب وما زال يتعقب جماعاتهم مرة ينتصر عليهم ومرة ينتصرون عليه ، حتى قتل عبد الملك بن مروان مصعباً وولى الحجاج بن يوسف العراق ، فأمده بالجيش بعد

---

(١) ابن الأثير ٤ : ٤١ .

(٢) الطبرى ٢ : ٥١٤ ، ٥١٧ .

(٣) الملل والنحل ١ : ١٢١ ، الفرق بين الفرق ص : ٥٠ .

(٤) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٦ : ١٤٣ ، وابن الأثير ٤ : ٨١ .

الجيش ، وقطرى بن الفجاءة آخر قواد الخوارج الأزارقة يستظهر عليه ، حتى قضى عليه سفيان بن الأبرد الكلبي قضاء مبرماً [١] .

وأما النجدات فهم أتباع نجدة بن عامر الحنفى ، وكانوا على خلاف مع الأزارقة فى إكفار القعدة منهم [٢] ، ويروى المبرد مكاتبات بين نجدة ونافع يحاول فيها الأول إقناع الثانى بالعدول عن إكفار القعدة وسفك دماء المسلمين والاستيلاء على أموالهم [٣] . وكان نافع قد استقر باليمامة بعد خروجه من مكة مخالفاً لابن الزبير ثم بسط نفوذه على البحرين وعمان وحضرموت وأجزاء من اليمن . ولم يلبث أن اختلف مع أنصاره فخلعوه واختاروا أبا فُدَيْك قائداً لهم ، ثم قتلوه سنة اثنتين وسبعين [٤] وانطلق أبو فُدَيْك نحو البصرة فأغار عليها وهزم جيشها بقيادة أمية بن عبدالله واليها للأمويين هزيمة مرة [٥] . وفى سنة ثلاث وسبعين تغلب عليه جيش من أهل البصرة والكوفة ، وقتله [٦] ، وبمقتله انتهى دور النجدات وتوقفت ثوراتهم .

وأما الصفرية فهم أتباع زياد بن الأصفر ويقال إنهم سموا باسمه ، ويقال بل هم قوم نهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم [٧] . وانتشر مذهبهم فى الموصل ، وكانوا فى أول أمرهم أميل إلى القعود ، وظلوا كذلك إلى أن تولى قيادتهم صالح بن مسرّح [٨] فدعاهم إلى الثورة وما زال يدعوهم وهم يستجيبون حتى تكاثر عددهم فأغار بهم سنة ست وسبعين على جيوش الحجاج وألحق بها هزائم عديدة فى وقائع متوالية دارت الدائرة عليه فى إحداها وقتل [٩] . فقام بأمرهم من بعده شبيب بن يزيد الشيبانى ، فبعث الحجاج إليه خمسة قواد قتلهم الواحد تلو الآخر [١٠] ، ودخل الكوفة هو وزوجه غزالة وأمه جهيزة ، فتحصن

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص : ٤١١ ، ووفيات الأعيان ٣ : ٢٥٥ .
(٢) الملل والنحل ١ : ١٢٣ .
(٣) الكامل ٣ : ٢٨٤ .
(٤) الطبرى ٢ : ٨٢٩ .
(٥) المصدر نفسه ص : ٨٢٩ .
(٦) المصدر نفسه ص : ٨٥٢ .
(٧) الكامل ٣ : ٢٧٥ .
(٨) الطبرى ٢ : ٨٨١ .
(٩) المصدر نفسه ص : ٨٨٧ .
(١٠) وفيات الأعيان ٢ : ١٦٣ .

الحجاج فى قصر الإمارة، وعجز عن مدافعته عنها ، فاستغاث بعبد الملك بن مروان الذى أرسل إليه عساكر كثيرة من أهل الشام عليها سفيان بن الأبرد الكلبى ، ولما وصل إلى الكوفة هب معه الحجاج وتكاثروا على شبيب فانهزم وقتلت أمه وزوجه ، ونجا فى فوارس من أصحابه ، وتعقبه سفيان يقود أهل الشام حتى لحق به فى الأهواز ففر وقبل أن يعبر جسر دُجَيْل نفر به فرسه وغرق [١]. ولم يتوقف صفرية الموصل عن الثورة ، بل مضوا فيها ، ففى عهد يزيد بن عبد الملك خرج شوذب فقضى عليه جيش من الشام [٢] ، وفى عهد هشام بن عبد الملك ثار بهلول بن بشر على خالد القسرى والى العراق ، ولكنه هزم فى معركة الكحيل قرب الموصل [٣] . واستولى الضحاك بن قيس على العراق سنة سبع وعشرين ومائة ، وبايعه عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز واليها وسليمان بن هشام وصليا خلفه [٤] . وسرعان ما نهض الخليفة مروان ابن محمد له ، فأرسل إليه ابنه عبد الله ، ثم هب لمقاتلته بنفسه ، فقضى عليه سنة ثمان وعشرين ومائة [٥] .

وأما الإباضية فهم أنصار عبد الله بن إباض ، وكانوا فى أول الأمر بالبصرة ، ولم يكن لهم نشاط فى صدر العهد الأموى ، حتى إذا كانت سنة تسع وعشرين ومائة تزعمهم عبد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق واستولى على حضرموت واليمن ، وأرسل أباحمزة الشارى على رأس جيش للاستيلاء على مكة والمدينة ، فسيطر عليهما ووجه إليه مروان بن محمد جيشاً كثيفاً لقيه بوادى القرى وتغلب عليه ، ففر إلى مكة فتعقبه الجيش وقتله بها، وواصل السير إلى عبد الله بن يحيى واقتحم عليه صنعاء وقتله فيها واستردها مع حضرموت [٦] .

ويختلف الشيعة عن الزبيريين والخوارج فى أنهم رأوا أن تكون الخلافة لعلى وبنيه وتكونت نواة هذا الحزب فى حياة على، إذ كان يميل إليه جمع من الصحابة، كما دعا له

---

(١) المصدر نفسه ص : ١٦٣ — ١٦٤ .
(٢) الطبرى ٢ : ١٣٧٨ .
(٣) المصدر نفسه ص : ١٦٢٥ .
(٤) المصدر نفسه ص : ١٩١٣ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٩١٣ .
(٦) الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠ : ١٠٩ .

عبد الله بن سبأ، وجعل يطوف بالأمصار مؤلباً الناس للثورة على عثمان والمبايعة لعلى[١]. فلما قتل عثمان بايع أكثر الناس بالمدينة لعلى، غير أنه لم يُقِم بها طويلاً، بل ذهب إلى الكوفة ومكث بهامدة يقاتل معاوية والشيعة من حوله إلى أن قتل، فاستكانوا على مضض وما زالوا يكظمون سخطهم على معاوية دون أن يثوروا، حتى إذا ما أمعن ولاته بالكوفة فى سب على وذمه زاد حقدهم واضطرمت الثورة فى نفوسهم ، فانتفض حجر بن عدى أحد كبار الشيعة على المغيرة بن شعبة الثقفى ، ولم يجرؤ المغيرة على قتله [٢] . وحين تولى البصرة والكوفة زياد بن أبيه نحا نحو سابقه من لعن على ، فثار حجر بن عدى مرة أخرى على عمرو بن الحريث نائب زياد بالكوفة وقذفه الشيعة بالحجارة وهو على المنبر ، فغضب زياد، وأقبل من البصرة وقبض على زعمائهم ، وأرسلهم إلى معاوية ، فقتل حجراً وآخرين معه .

ويهدأ الشيعة ولا يتحركون حيناً من الدهر، ثم يكاتبون الحسين بن على بعد وفاة معاوية فى القدوم إليهم من مكة، فيحضر إلى الكوفة، ولا ينصرونه بل يتخاذلون عنه، ويقتله عبيد الله بن زياد بكربلاء . ويتعمق الألم والندم نفوسهم لتقاعسهم عن مظاهرته ، وتتألف منهم جماعة التوابين بقيادة سليمان بن صرد، وما تزال جماعتهم تتضخم إلى أن تجمع منهم عدد كبير ، فيخرجون ثائرين وعلى رأسهم ابن صرد ، ويلقاهم جيش أهل الشام فيهزمونه ، ثم لا يلبث هذا الجيش أن ينتصر عليهم ويقتل زعيمهم [٣] . ويتزعم فلول الشيعة المختار الثقفى ويأخذ فى الدعوة لابن الحنفية ، ويعرف مذهبه باسم الكيسانية ، وهو يقوم على أن النبى أوصى بالخلافة لعلى ولأبنائه من بعده ، وتدخل إليه بعض الأفكار المتطرفة التى أذاعها من قبل عبد الله بن سبأ مثل التناسخ والحلول والرجعة [٤] ، وأضاف المختار إليها شعوذات متعددة ، ونشر فى أتباعه فكرة المهدى المنتظر ، وراح يتكهن بالأسجاع ويرسل الحمام الأبيض فوق جيشه مدعياً أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء . ويستولى على الكوفة ، ويطرد منها عامل ابن

---

(١) الطبرى ١ : ٢٩٤٢ .

(٢) الطبرى ٢ : ١١٤ .

(٣) أنساب الأشراف ٥ : ٢١٠ .

(٤) مروج الذهب ٣ : ٨٧ ، والطبرى ١ : ٢٩٤٢ .

الزبير ، وينازل جيشاً من أهل الشام ويقهره [١] ، ثم ينهض له مصعب بن الزبير مستعيناً بأهل البصرة ، فيقضى عليه ويقتله .

وتكونت فرقة أخرى من الشيعة لهذا العصر ، وهى فرقة الزيدية نسبة إلى زيد ابن علىّ . وكانت أكثر اعتدالا من الكيسانية ، إذ اعترفت بخلافة أبى بكر وعمر مع وجود على وهو أفضل منهما فى رأيها . على أنها جاهدت بنى أمية جهاداً عنيفاً ، فقد خرج زيد نفسه سنة إحدى وعشرين ومائة وقتل [٢] ، وخلفه ابنه يحيى وقتل سنة خمس وعشرين ومائة فى خلافة الوليد ابن يزيد [٣] ، وخرج فى سنة سبع وعشرين ومائة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وانضم إليه كثير من أهل الكوفة ، ولكنه ضعف وتقهقر إلى بلاد الجبل وقتل .

وبجانب الثورات التى أشعلتها الأحزاب المعارضة للأمويين ثورات أخرى قام ببعضها الموالى [٤] ، وقام بغيرها بعض الأشراف من العرب ، مثل عمرو بن سعيد بن العاص الذى ثار على عبد الملك بن مروان وامتنع عليه بدمشق فاحتال له عبد الملك وقتله [٥] ، ومثل عبد الرحمن بن الأشعث الذى خرج على عبد الملك مع أنه كان قائداً من قواده وجهه إلى سجستان لمحاربة الترك ، غير أن الحجاج اتهمه بالتخاذل والجبن ، فاستشاط غضباً ، وخلع الحجاج ، ثم خلع عبد الملك نفسه ، وانحدر من سجستان إلى العراق ، واستولى عليها ، وقاتل الحجاج فى وقائع كثيرة كان له النصر فى أغلبها ، ولكن الحجاج انتصر عليه فى آخرها ، ففر إلى سجستان والتجأ إلى قائد الترك ، فأسلمه إلى الحجاج وقطعت رأسه [٦] . كذلك ثار يزيد بن المهلب بالبصرة ، وحبس عاملها عدى بن أرطأة ، وخلع يزيد بن عبد الملك ، وأيدته تميم وقيس ، فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً يقوده ابنه العباس ومسلمة بن عبد الملك ،

---

(١) الطبرى ٢ : ٧٠٩ ، ومروج الذهب ٣ : ١٠٦ .
(٢) مروج الذهب ٣ : ٢١٧ .
(٣) المصدر نفسه ص : ٢٢٥ .
(٤) اليعقوبى ٢ : ٢١٠ .
(٥) الطبرى ٢ : ٧٨٤ ، مروج الذهب ٣ : ١١٠ .
(٦) الطبرى ٢ : ١٠٤٦ وما بعدها ، مروج الذهب ٣ : ١٣٩ .

فالتحما معه بالكوفة فهزمهما ، ثم تدافعت عليه الجيوش وقتل سنة اثنتين ومائة [١] .

ومعروف أنه كان يقابل هذه الأحزاب جميعاً حزب الدولة ، ومن انضم إلى بنى أمية من القبائل . وهؤلاء بدورهم كانوا يرون أنهم أصحاب السلطان ، وأن غيرهم من المطالبين بالخلافة لاحق لهم فيها . ومعروف أيضاً أنه كان لبنى أمية دعاتهم وأعوانهم وخطباؤهم وشعراؤهم الذين كانوا يدافعون عنهم ويناصرونهم على كل المناوئين لهم [٢] .

وكان من شأن هذه الحياة السياسية الثائرة المتقبله أن تحدث بلبلة فى بعض النفوس ، وتخلق اضطراباً وقنوطاً عند نفر من الناس ، فلمن ينتسبون ؟ ومن ينصرون؟ لقد كان بعضهم يظاهر بنى أمية على أعدائهم ثم لا يلبث أن يكفر بهم لغدرهم وتنكرهم . وكان بعضهم يؤمن بمبادئ بعض الأحزاب وينضم إليها ويحارب معها ، فإذا تضعضعت أو قمعت حار فى أمره ، فلا هو بمستطيع الثبات على رأيه وموالاة حزبه ولا هو بقادر على التخلى عن مذهبه والفوز برضا الهيئة الحاكمة التى كان جهر بعدائه لها وشارك فى الثورة عليها ، فتوعدته وأهدرت دمه . وكان بعضهم يكفر بالجماعة الحاكمة وبالأحزاب المعارضة معاً ، ويتعمق نفسه إحساس باليأس من تلاحم الأمة واجتماع كلمتها .

ومن هذه العناصر الناقمة والخائفة واليائسة — تكونت طائفة جديدة من الصعاليك يصح أن نسميها « طائفة الصعاليك السياسيين » ، الذين أعدت الأوضاع السياسية المتقلبة المضطربة لنشأتهم وظهورهم ، والذين كانت حياتهم تشبه إلى حد كبير حياة غيرهم من الصعاليك الفقراء أو الخلعاء أو الجناة الفارين من العدالة ، فكلهم كانوا فقراء بؤساء ، وكلهم كانوا مطاردين مشردين ، وكلهم كانوا ساخطين غاضبين ، وكلهم لم يجدوا بداً مع هذه الحياة القاسية من التلصص والإغارة للسلب والنهب ، تحقيقاً لوجودهم وتحصيلا لأرزاقهم .

على أن الصعاليك السياسيين تمثلوا الحياة السياسية ومفاسدها تمثلاً

(١) الطبرى ٢ : ١٤٠٥ ، مروج الذهب ٣ : ٢١٠ .

(٢) انظر العصر الإسلامى ص : ٣٣٦ ، وتاريخ الشعر السياسى ص : ٢٣٦ .

دقيقاً ، ومن أجل ذلك كانوا أشد حقداً ، وأعنف تمرداً ، وأكثر خطراً ، ومن أجل ذلك أيضاً لم يقنع بعضهم بالتربص بالقبائل والهجوم عليها وانتهاب إبلها ، ولا بالترصد للقوافل واغتصاب أموالها وأحمالها ، وإنما جعل ديدنه تهديد العمال والخلفاء الحاكمين وتوعدهم ، والمشاركة العملية فى الثورة بهم لسحقهم والقضاء عليهم ، كما أخذ يجمع صعاليك القبائل ويغير بهم على أموال الدولة وينهبها ، أو يستولى على خراج بعض الأقاليم التى سيطر عليها ويستخلصه من أهلها ، ويوزعه على أفراد عصابته العاملين أو القاعدين ممن حال بعدهم عنه بينهم وبين المساهمة فى غاراته . فكلهم من عصابة واحدة ، وكلهم متعاونون متضامنون ، ولكل منهم حظه من هذه الأموال ، والفرصة قد تسنح للقاعد فيشارك فى الغزو ، وحينئذ ينبغى عليه أن يرد على رفاقه من القاعدين مما غنم نصيبهم على نحو ما ردوا عليه نصيبه مما غنموا ، لكى تستقيم حياتهم جميعاً فى اليسر والعسر وفى الشدة والرخاء (١) .

ولا تظنن أننا نستلهم من وحى الخيال هذا الوصف لحياة الصعاليك السياسيين وأعمالهم وتكافلهم ، فإن أشعارهم التى وصلت إلينا تنطق بثورتهم وتمردهم ، كما أن أخبارهم التى نقلت إلينا تكشف عن سخطهم على الدولة ومهاجمتهم لها ، ومشاركتهم فى الثورات التى أسعرها غيرهم ضدها ، وفى الغزوات التى شنوها هم أنفسهم عليها ، وقاتلوا جيوشها ، وهزموها ، وطردوا عمالها ، واستولوا على بعض ولاياتها واستخلصوا خراجها . استمع إلى مالك بن الريب الذى ذهبنا إلى أن فساد النظام الاقتصادى وما جره عليه من فقر وبؤس كان سبباً من أسباب تصعلكه ، يبين كيف أن فساد السياسة الأموية مع القبائل كان أيضاً من أسباب تلصصه ، يقول (٢) :

يا آلَ مَرْوانَ جَارِى مِنْكُمُ الحَكَمْ ... لو كُنْتُمُ تُنْكِرُونَ الغَدْرَ قُلْتُ لَكُمْ

عند الشُّهودِ وقد تُوفى به الذِّمم ... وأَتَّقِيكُمْ يَمِينَ اللهِ ضَاحِيَةً

ولا الذى فَاتَ مِنِّى قَبْلُ يُنْتَقَمُ ... لا كُنْتُ أُحْدِثُ سوءًا فى إِمَارَتِكُمْ

قُلْتُمْ لنا إِنَّنَا مِنْكُم لِتَعْتَصِمُوا ... نَحْنُ الذين إذا خِفْتُمْ مُجَلَّلَةً

---

(١) الطبرى ٢ : ٧٦٦ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٥ ، حماسة ابن الشجرى ص : ٧٢ .

حتَّى إذا ٱنْفَرَجَتْ عَنْكُمْ دُجُنَّتُها صِرْتم كجَرْم فلا إلٌّ ولا رَحِمُ[١]

فهو لايعادى بنى أمية محبة فى العداء ، ولايسىء السلوك فى خلافتهم رَغْبَةً فى السوء ، وإنما يجازيهم كيداً بكيد ، لما عرف من خيانتهم وغدرهم ، وتقبلهم وتغيرهم ، فهم لا يفزعون إليه وإلى أمثاله من فتيان تميم ، ولا يتذكزون ما يربط بعضهم ببعض من وشائج القربى والدم إلا حين تشتد بهم المحن فإذا ما تغلب الأمويين على أعدائهم تنكروا للتميمين الذين ساعدوهم . وتجاهلوا ما قطعوه لهم من الوعد ، بل تنكروا لما يربطهم بهم من رحم ، حتى لكأنهم بعيدون عنهم بعد قبيلة جرم اليمنية عن قبيلة تميم المضرية ! ولذلك فإنه ثائر عليهم ، منكر لحكمهم ، لا يجد غير التلصص والإمعان فى التصعلك طريقاً إلى العيش معهم .

والراجح أن مالكاً يلخص تلخيصاً دقيقاً ما ثار من عصبية بين القبائل فى هذا العصر ، وكيف أن الأمويين مالوا إلى القبائل اليمنية واعتمدوا عليها وعادوا القبائل المضرية وكادوا لها ، إلا فى وقت الشِّدَّة والضيق ، فإنهم كانوا يستعينون بها ويقطعون المواثيق لها بأن لا يعودوا إلى سياستهم المتقلبة معها . غير أن هذا التقارب بينهم وبينها لم يكن ليطول إلا طول الفتنة ، فإذا انتهت انتهى ، مما أدى إلى حقد مالك عليهم ، وكفره بهم ، وتحوله إلى التصعلك فى أيامهم .

وإذا كان تقلب الأمويين فى سياستهم مع القبائل المضرية دافعاً من الدوافع التى حملت مالك بن الريب على الخروج عليهم ، ورفضه لحكومتهم ، واتخاذه من التصعلك والتلصص وسيلة إلى الحياة معهم ، فإن رفيقه « أبا حَرْدَبَة المازنىَّ التميمىَّ[٢] » ، لم يكتف بوصفهم بالغدر والمكر ، وإنما راح ينذرهم ويتوعدهم بالغارات التى تسحقهم ، متمنياً على الله أن يمده بالكماة الشجعان الذين يديل بهم من دولتهم ، يقول[٣] :

فهل الإلَهُ يُشِيعُنى بِفَوَارِسٍ لِبَنى أُمَيَّةَ فى سِرَارِ جَمِير[٤]

---

(١) الإل : القرابة .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٣ .

(٣) الحيوان ٥ : ١٢٨ .

(٤) السرار : آخر ليلة من الشهر ، ويسمى الهلال قبل ليلة السرار بليلة ابن جمير .

أرأيت إلى غضبه وثورته وتهديده ؟ لقد كان للسياسة الجائرة المنحازة التى سلكها الأمويون مع القبائل المضرية سواء فى إقصائهم لها أو فى ظلمهم إياها ظلماً اقتصادياً وسياسياً ، أو فى احتيالهم عليها لتهب معهم للقاء أعدائهم ، ثم ابتعادهم عنها ومكرهم بها — أثر كبير فى ظهور هؤلاء الصعاليك السياسيين ، وفى توجيه حركتهم لا إلى الإغارة على الناس لتحصيل أقواتهم فحسب ، بل أيضاً إلى توعد الأمويين الحاكمين المتسلطين والسعى لتقويض دولتهم .

بل إن بعض الصعاليك السياسيين لم يقفوا عند النقد والتهديد ، فقد انضموا إلى الثائرين وشهروا السلاح على بنى أمية ، ومن أشهرهم عبد الله بن الحجاج الثعلبى الذى « كان شجاعاً فاتكاً صعلوكاً من صعاليك العرب متسرعاً إلى الفتن » [١] ، إذ خرج مع عمرو بن سعيد بن العاص على عبـد الملك بن مروان بدمشق [٢] . فلما قضى عبد الملك على عمرو لم يستسلم عبـد الله ولا استكان ولا فقد الأمل فى الإطاحة بعبد الملك، بل ظل يتلمس السبيل إلى الخلاص منه ، وإذا هو ينضم إلى نجدة بن عامر الخارجى ، ويساهم معه فى مقاتلة جيوش عبد الملك ، ولا ينتصر عليها ، بل يتقهقر أمامها . وحينئذ يهرب عبد الله ، وتضيق الأرض عليه من شدة طلب عبد الملك له وهو يقول مصوراً خوفه وفزعه [٣] :

رَأَيْتُ بِلاَدَ اللهِ وَهْىَ عَرِيضَةٌ عَلَى الخائِفِ المَطْرُودِ كِفَّةَ حَابِلِ [٤]
تؤدِّى إليه أَنَّ كُلَّ ثَنِيَّةٍ تَيَمَّمَها تَرْمِى إليه بِقَاتِلِ [٥]

ومع هـذا الذعر الذى ملأ عليه نفسه حتى تخيل أن بكل شعب من شعاب الجبـال التى التجأ إليها واختفى بهـا شرطيا يترصده ليقتله ، فإنه لم يذعن لعبد الملك ، ولا ييئس من القضاء عليه ، بل ظل يبحث عن أعدائه الذين

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ : ١٥٨ .
(٢) المصدر نفسه ص : ١٥٨
(٣) المصدر نفسه ص : ١٦٢ .
(٤) كفة الحابل : مصيدة الصائد .
(٥) تؤدى : تخيل . الثنية : الطريق فى الجبل .

يمكن أن ينتفضوا ضده ويسحقوه ، وإذا هو يجد ضالته هذه المرة عند عبدالله ابن الزبير بمكة ، فيلتحق به ، ويجاهد معه جيوش عبد الملك التى قادها الحجاج ، ويستمر بجانبه يناهض الحجاج وجنده حتى تغلب عليه وقتله [١] .

وأذكر صعلوك سياسى أنشأته الظروف السياسية المتقلبة المضطربة هو عبيد الله ابن الحر الجعفى ، الذى كان فى أول عهده رجلا من خيار قومه صلاحاً وفضلا وصلاة واجتهاداً ، والذى شارك فى الفتوح الإسلامية [٢] . فلما قتل عثمان وهاج الهيج بين على ومعاوية انحاز إلى المطالبين بدم عثمان ، ووالى معاوية ، وقاتل معه ضد على فى موقعة صفين . وظل يقيم بالشام إلى أن قتل على وبويع معاوية خليفة للمسلمين ، فتركها وهاجر إلى الكوفة ، وراقب منها تطورات الأمور . حتى إذا مات معاوية ، واستخلف يزيد ، وثار ابن الزبير بمكة ، ورأى التطاحن بين الفئات المختلفة المتصارعة على الخلافة والحكم — يئس من وحدة صفوف المتنازعين ، وقنط من اجتماع آرائهم على الحق والعدل والخير . وزاد من يأسه وقنوطه موت يزيد ، واضطراب أهل الكوفة وثورتهم على عبيد الله بن زياد ، وحينئذ خلع عذاره وتصعلك وخرج من الكوفة بمن انضم إليه من خلعاء القبائل ، ويمموا وجوههم نحو المدائن ، فكان يأخذ أموال السلطان ويفرقها بين أصحابه ويرسل إلى رفاقه الآخرين بالكوفة [٣] .

والحق أن أبا حردبة المازنى ، وعبد الله بن الحجاج الثعلبى ، وعبيد الله بن الحر الجعفى ، ومن اجتمع إليه من الخلعاء والشذاذ هم أقوى ممثلين للصعاليك السياسيين الذين تباين أهدافهم أهداف غيرهم من طوائف الصعاليك ، إذ لم يقتصر همهم على اغتصاب أرزاقهم بحكم مشاركتهم لسواهم من الصعاليك فى الفقر والتشرد ، وإنما تعدّى هذه الغاية إلى غاية أبعد ، فقد كانوا يبتغون القضاء على نظام الحكم الأموى ، ومن أجل ذلك هددوا عماله وخلفاءه مساهمين فى الثورة بهم ومصارعة جيوشهم ، وسالبين أموال الدولة ، ومانعين خراج بعض المناطق التى سيطروا عليها من الوصول إلى بيت المال .

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ : ١٥٨ .

(٢) الطبرى ٢ : ٧٦٦ ، وخزانة الأدب للبغدادى ١ : ٢٩٧ .

(٣) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩٢ .

وبين أن الحياة السياسية لعهد بنى أمية ، وما صاحبها من تَفَرُّق وانشقاق فى صفوف الأمة ، وما حدث بسببها من اضطرابات وثورات ، كانت من العوامل التى أدت إلى إنشاء طائفة من الصعاليك السياسيين ، فقد أفرادها الأمل فى استقامة الحياة ، وكفروا بالجماعة الحاكمة وبالأحزاب الثائرة ، وانطلقوا ليقيموا بسيوفهم وجنودهم دولة الصعاليك التى ينشدونها .

الفصل الثانى

الصعاليك فى المجتمع الأموى

١

طوائفهم وحياتهم

من هو الصعلوك فى المجتمع الأموى ؟ وهل من خلاف بينه وبين الصعلوك فى المجتمع الجاهلى ؟

الصعاليك فى المجتمع الأموى أربع فئات : أولاها فئة الصعاليك الفقراء الذين أنشأتهم السياسة الاقتصادية الجائرة التى اتبعتها الدولة مع القبائل وفقاً لمواقفها منها ، فالقبائل التى كانت تسير فى ركابها وتثبت على موالاتها ، وتستمر فى مساعدتها وتأييدها ضد أعدائها كانت تعاملها معاملة فيهـــا الانحياز وفيها المحاباة ، إذ دأبت على تخفيف الصدقات عنها إما بتقليل قيمتها وإما بالرفق فى استيفاء ما فرضته عليها ، كما كانت تجزل الأعطيات لها وتسبغ الصِّلات عليها . أما القبائل التى كانت تحطب فى حبال خصومها ، وتناصر الثائرين بها فكانت تسومها أعنف أنواع العذاب ، إذ كانت تجور فى فرض الصدقات عليها ، وتتجبر فى استخلاصها منها ، كما كانت تحجز عنها العطاء المفروض لها ، ولذلك نجم الصعاليك الفقراء فيها . وقدمنا أن نشأتهم كانت نتيجة طبيعية لهذه السياسة الظالمة ، وأنها كانت متصلة بالأيام التى عم فيها العسف والجور ، مثل أيام عبد الملك بن مروان . وخير من يمثل هذه الفئة من الصعاليك الفقراء هم مالكُ بنُ الرَّيْبِ التميمىُّ ، وأبو النَّشْناش التَّميمى وطَهْمان بنُ عمرٍ والكلابىُّ ، وجَحْدرُ بنُ مالكٍ الحنفىُّ ، والسَّمْهَرِىُّ بنُ بشرٍ العُكْلىُّ .

أما الفئة الثانية من الصعاليك الأمويين فتتكون من خلعاء القبائل وشذاذها ، الذين انحرف سلوكهم فى قبائلهم أو فى غيرها ، فخلعتهم وتنصلت منهم ، وتوقفت عن المطالبة بحقوقهم والنهوض بجرائرهم . وكان المظنون أن يختفى صعاليك هذه الفئة بعد تحول العرب من عهد القبائل المتناصرة التى لاتخضع لهيئة حاكمة موحدة إلى عهد الدولة المنظمة التى دان فيها العرب وغير العرب من المسلمين لحكومة مركزية بدمشق . غير أن تمسك القبائل بتقاليدها ومحاولة شيوخها فرض سلطانهم على أبنائها ابتغاء المحافظة على مركزها ووحدتها وشرفها أمام القبائل الأخرى أدى إلى ظهور هذه

الفئة من الصعاليك مرة ثانية، من أمثال الحطيم العكلي، ومسعود بن خرشة التميمي، وعبيد بن أيوب العنبري، ويعلى الأحول اليشكري.

وثالثة الفئات فئة الصعاليك الفارين من العدالة ممن جنوا على غيرهم واعتدوا على سواهم، إما بقتلهم للناس أو بسرقتهم لأموالهم، وممن شكوا إلى العمال، وبلغت جرائمهم إليهم، فطالبوا قبائلهم بهم أو بحثوا في قبائلهم عنهم، لكي يوقعوا الحدود عليهم جزاء لما اقترفوا من الآثام، ففروا من الطلب والعقاب، من أمثال القتال الكلابي، والقتال الباهلي، والهيزدان بن خطار، وعبدالله بن الأحدب السعدي التميمي والأحيمر السعدي التميمي، ومسعود بن خرشة التميمي.

وأما الفئة الرابعة من الصعاليك الأمويين ففئة الصعاليك السياسيين الذين لم يروا طائلا في تصارع الأحزاب المختلفة وتطاحنها على الخلافة والحكومة، والذين استيأسوا من عدل الدولة الأموية، فناصبوا خلفاءها وعمالها العداء، وخرجوا عليهم منذرين مهددين، وساخطين ثائرين، من أمثال أبي حردبة المازني التميمي، وعبد الله بن الحجاج الثعلبي، وعبيد الله بن الحر الجعفي.

وبذلك عاد إلى الظهور في المجتمع الأموي نوعان من الصعاليك الذين ظهروا في المجتمع الجاهلي، أما النوع الأول فهم الصعاليك الفقراء، وأما النوع الثاني فهم الصعاليك الخلعاء. وبذلك أيضاً نشأ صنفان جديدان من الصعاليك لم ينشآ في المجتمع الجاهلي وهما: الصعاليك الجناة الفارون من العدالة، والصعاليك السياسيون. وكادت تتلاشى من المجتمع الأموي فئة خامسة من الصعاليك كان لها وجودها في المجتمع الجاهلي، وهي فئة الصعاليك السود الذين اصطلح القدماء على تسميتهم بالأغربة، لأن أمهاتهم كن من الحبشيات الملونات، ولأن العرف في الجاهلية جرى على أن لا يكون لهم نفس الوزن الذي كان لأبناء الحرائر العربيات، فثاروا على هذا الظلم الاجتماعي، وكفروا بنظم المجتمع الجاهلي. ولكن هذه الفئة لم تختف اختفاء مطلقاً من المجتمع الأموي، وإنما تضاءلت وقل عدد أفرادها، ذلك أننا نظفر ببعض اللصوص من العبيد السود في هذا العصر كانوا يقطعون السبيل، ويتلصصون على الناس من أمثال الغداف الحبشي الذي لم يكن في الأرض أشد منه، وكان يقطع

الطريق على القافلة وحده بما فيها من الحماة والخفراء[١]، وأفلحَ الذى قطع الطريق على القوافل بخراسان بمفرده عشرين سنة [٢] . غير أننا لا نعلم شيئاً عن سبب تصعلك الغداف وأفلح ، إذ من الجائز أن تكون التفرقة العنصرية والاجتماعية مصدر ثورتهما وخروجهما على القانون والنظام واحترافهما للتلصص ، ومما يقوى هذا الاحتمال أن بعض القبائل العربية ظلت لا تعدل أبناءها الأصلاء بمواليها [٣] . ومن الممكن أن يكون حب المغامرة والمخاطرة هو الذى دفعهما إلى التصعلك والتلصص .

من هذه الطوائف الأربع تكونت عصابات الصعاليك فى العصر الأموى ، وهى عصابات لا تختلف عن عصابات الصعاليك فى العصر الجاهلى ، إذ يجمع بينهم الفقر والامتناع عن الظلم ، كما يتصفون جميعاً بالقوة والصلابة والأنفة . ومن الطريف حقًّا أن نرى الصعاليك الأمويين ينفرون من القيام بالأعمال الفرعية ويأبون إسناد الأمور الحقيرة إليهم ، كأنما كانوا يرون فى قيامهم بها احتقاراً لهم ، وحطًّا من أقدارهم ، بل لكأنما كانوا يرون أنها لا تصلح لهم ، وأنهم لا يصلحون لها ، لأنهم إنما خلقوا لجليل الأعمال وخطير الأمور ، تماماً مثلما كان الصعاليك الجاهليون يستشعرون ويُقَدِّرون [٤]. ومما يدل على ذلك أوضح الدلالة ما يروى من أن سعيد ابن عثمان بن عفان حين استتاب مالك بن الريب وألحقه بجيشه احتاج وهو بطريقه إلى خراسان إلى بعض اللبن ، فطلب صاحب إبله فلم يجده ، فقام مالك عليها وحلبها فأحسن حلبها ، فقال له سعيد: هل لك أن تقوم بأمرها وأجْزِلَ لك الرزق إلى ما أرْزُقك من العطاء وأضَعَ عنك الغزو ؟ فرفض وأنشأ يقول[٥] :

إنِّى لأَسْتَحْيِي الفوارسَ أَنْ أُرَى ... بأَرضِ العِدَا بَوَّ المَخَاضِ الرَّوائمِ[٦]

وإنى لأستحيى إذا الحَرْبُ شَمَّرت ... أَنَ ارْخَىَ وَقْتَ الحَرْبِ ثَوْبَ المُسَالمِ

(١) رسائل الجاحظ ١ : ١٩٣ ، المحبر ص : ١٣٠ .

(٢) رسائل الجاحظ ١ : ١٩٣ .

(٣) العقد الفريد : ٤١٣ .

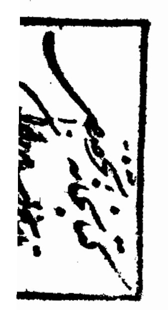
(٤) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص : ٣٤ .

(٥) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٦ .

(٦) البو : ابن الناقة . الروائم : العاطفة . المخاض : النوق الحوامل ، أو النوق التى امتلأت سمنا ونتاجاً .

وما أنا بالثَّانِى الحَفِيظَةَ فى الوَغَى ولا المُتَّقِى فى السِّلْمِ جَرَّ الجَرَائِمِ (١)
ولا المُتَأَنِّى فى العَوَاقِبِ للذى أَهُمُّ بِهِ من فاتِكَاتِ العَزَائِمِ
ولكنَّنِى مُسْتَوحِدُ العَزْمِ مُقْدِمٌ على غَمَرَاتِ الحَادِثِ المُتَفَاقِمِ
قليلُ اختلافِ الرأى فى الحرب باسِلٌ جميعُ الفؤادِ عند حَلِّ العظائم

فهو لا يريد أن يكون خادماً للنوق فى أرض الأعداء حيث رفاقه وإخوانه من المقاتلين والمجاهدين يستعدون للنزال والطعان، ولا يرتضى كذلك أن يكون خليًّا مسالماً ساعة استعار نار الحرب، وإنما يرفض ذلك كله أعنف الرفض، وينبو عنه أشد النبو، بل يرى فيه عاراً عليه، وخزياً له، لأنه لم يخلق لمثل هذه الأعمال، ولأنه لا يرهب المعاطب لا فى وقت الأمن ولا حين تضيق المسالك وتكثر المهالك، وإنما هو حديد القلب، بعيد الهمة، ثابت الرأى يقذف بنفسه فى الردى دون أن يفكر فى مصيره.



وأشد ما كان يؤلم الصعاليك الأمويين ويؤذيهم تخلى قبائلهم عنهم وامتناعها عن مناصرتهم. وأنشدنا للسمهرى بن بشر العكلى والقتال الكلابى أبياتاً فى الفصل السابق يُنْحِى فيها كل منهما على أهله باللوم ويُعَنِّفهم لقعودهم عن مشاركته فى حياته وتقاعسهم عن النهوض لمساعدته، حتى لقد ود كل منهما لو لم يكن ينتسب إلى قبيلته. ونضيف إليها أبياتاً أخرى للقتال الكلابى الذى اتصلت جناياته، واستثقلت قبيلته ما كان يكلفهامن أعباء الوقوف بجانبه ومظاهرته على أعدائه لكثرة ما أجرم، يقول (٢):

هَلْ مِنْ معَاشِرَ غيْرِكُمْ أَدْعُوهُمُ فَلَقَدْ سَئِمْتُ دُعَاءَ يا لكِلاب
ولَقَدْ لَحَنْتُ لَكمْ لِكَيْمَا تَفْهَمُوا وَوَحَيْتُ وَحْياً ليس بالمُرْتَاب (٣)

فقد مل الاستغاثة بقبيلته لطول ما استنجد بها ولا من مجيب، ولكثرة

(١) الثانى: الطاوى. الحفيظة: الغضب والحمية.
(٢) ديوانه ص: ٣٦.
(٣) لحن: عرض وكنى. وحى: أشار إشارة خفية.

ما استصرخها ولا من سامع . ومع ذلك فهو يحس أنه لا نصير له غيرها ، وأن من حقه عليها أن تهب لمؤازرته لتُخَلِّصَهُ مما هو فيه من المشاكل .

وزاد من شقائهم وبلائهم أن الخلفاء والعمال كانوا يطاردونهم ويجتهدون فى طلبهم ، آخذين قبائلهم بجرائمهم ، ومشددين عليها لكى تساعد فى البحث عنهم ، ومخصصين الجوائز الكبيرة لمن يرشد إليهم أو يقبض عليهم. فحين قَتَلَ السمهرى ابن بشر العكلى هو وبهدل ومروان الطائيان عَوْنَ بن جعدة، وبلغ الخبر عبد الملك ابن مروان كتب إلى الحجاج بن يوسف وهو عامله على العراق ، وإلى هشام بن إسماعيل وهو عامله على المدينة ، وإلى والى اليمامة أن يطلبوا قَتَلَةَ عون ويبالغوا فى طلبهم، وأن يأخذوا السعاة به أشد أخذ، ويجعلوا لمن دَلَّ عليهم جُعلا [١]. وبالفعل قبض على السمهرى ودفع إلى عامل المدينة فقتله [٢] . وعند ما اغتال القتال الكلابى إسماعيل بن هَبَّارٍ ، ونقل الأمر إلى مروان بن الحكم قال : من يدلنى على القتال من مملوك فهو حر ، ومن كان حرًّا فله مكافأة ضخمة [٣] . ولما أخذ جحدر بن مالك الحنفى يغير على أهل هجر ونواحيها ، ورفع خبره إلى الحجاج كتب إلى عامله باليمامة يوبخه ويأمره بالاجتهاد فى تعقبه . فأرسل إلى فتية من بنى يربوع ، وجعل لهم جُعلاً عظيما إن هم قتلوه أو أتوا به أسيراً . فلم يزالوا يترصدون له حتى قبضوا عليه وجاءوا به إليه. فبعث به إلى الحجاج ، فعاقبه أشد العقاب، إذ خيَّره بين أمرين : فإما أن يقطع رأسه، وإما أن يصارع أسداً ضارياً وهو مكبل ، فإن صرعه عفا عنه ، وإلا فقد لقى جزاءه . فارتضى الشرط الثانى ونازل الأسد وقتله ، فصفح عنه [٤] . وعند ما وقع شِظَاظٌ الضّبى رفيق مالك بن الريب فى قبضة الحجاج لم يجلده حدّ السرقة ، بل صلبه بالبصرة صلباً [٥] .

وبسبب تعقب الخلفاء والولاة لهم ، وإنزالهم أقسى العقوبات بمن كانوا يقبضون

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥١ .
(٢) المصدر نفسه ص : ٥٣ .
(٣) المحبر ص : ٢٢٧ .
(٤) شرح شواهد المغنى ص : ١٣٩ .
(٥) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٩ .

عليه منهم ، إما بقتله أو صلبه وإما بحبسه أو جلده استبد بالفارين المطاردين المطلوبين منهم الفزع ، وسيطر عليهم الذعر ، وضاقت عليهم الأرض بما وسعت ، وخيِّل إليهم أن العيون والجواسس يتربصون بهم فى كل ركن ، وأن الشرط سيخرجون لهم من كل مكان . استمع إلى الخطيم العكلى اللص يصف خوفه من السلطان وحنينه إلى أهله وعشيرته ، يقول [١] :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَبِيتَنَّ ليلةً ... بـأَعْلَى بَلِيٍّ ذى السَّلَامِ وذى السِّدْرِ

وهل أَهْبِطَنْ روضَ القَطَا غَيْرَ خَائِفٍ ... وَهَلْ أُصْبِحَنَّ الدَّهْرَ وَسْطَ بنى صَخْرِ

وهل أَرَيَنْ بَيْنَ الحَفِيرَةِ والحِمَى ... حِمَى النِّيْرِ يَوْماً أَوْ بـأَكْثِبَةِ الشِّعرِ

جميعَ بنى عَمرو الكِرام وإِخْوَتى ... وذَلِكَ عَصْرٌ قد مَضَى قَبْلُ ذَا العَصْرِ

فقد ملأت عليه الرهبة أرجاء قلبه ، وظن أنه سيقضى حياته مطروداً هائماً مفزَّعاً وأنه لن يكتب له الأمان ولا العودة إلى الأهل والوطن . ومن أجل ذلك اشتد به الوجد واستبد به الخوف ، وفاضت نفسه شوقاً إلى أحبابه وذويه وإلى مرابع صباه .

واستمع إلى السمهرى بن بشر العكلى اللص يصور فرقه وتأبده فى الصحراء مع رفيق له بعد أن طلبه عبد الملك بن مروان ، إذ يقول [٢]:

أَلم تَرَأَنِّى وَابْنَ أَبْيضَ قَدْ جَفَتْ ... بِنَا الأَرْضُ إلا أن نَؤُمَّ الفَيَافِيا

طَرِيدَيْنِ من حَيَّيْن شَتَّى أَشدَّنا ... مخافَتُنا حتى عَلَلْنَا التَّصَافِيا

فقد تشرد مع صاحب له لص مثله لم يكن من قبيلته ، وإنما التقى به فى القفار ، فتآلفا وتآخيا ، لاشتراكهما فى المصير ، وبلغ من إحساسهما بالخوف أنهما تخيلا أن الأرض نبت بهما ولفظتهما ، ولم يعد أمامهما إلا أن يبعدا الضرب فى المجاهل ابتعاداً عن الأنظار وطلباً للأمان .

وهذا القتّال الكلابى يصف وَجَلَهُ من مروان بن الحكم بعد أن تعقبه وشدد فى طلبه لقتله إسماعيل بن هبار ، وفراره من سجنه ، يقول [٣] :

---

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٨٤ ، ٣ : ٣٤٧ .
(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥٥ .
(٣) ديوانه ص : ٧٧ ، والحيوان ٦ : ٢٥٢ .

أَيرسِلُ مروانُ الأَميرُ رسالةً لآتيــه إنّى إذَنْ لَمُضَلَّلُ
وَمَا بِىَ عِصْيَانٌ ولا بُعْدُ مَنْزِلٍ ولكنَّنى من خَوْفِ مَرْوانَ أَوْجَلُ
سأُعْتِبُ أَهل الدِّين مما يَريبُهم وأَتْبَعُ عقلى ما هَدَى لِىَ أَوَّلُ
أَوَ الْحَقُ بالعنقاءِ فى أَرض صَاحَةٍ أَو الباسقاتِ بين غَوْلٍ وغُلْغلٍ[1]
وفى باحَةِ العَنْقَاءِ أَو فى عَمَايَةٍ أَو الأُدَمَى من رَهْبَةِ الموتِ مَوْئلِ[2]

فهو مذعور لا يأمن لمروان ولا يذعن له ، لأنه إن أسلم نفسه إليه كان مصيره الهلاك والقتل . وما هو بعاص لأوامره ونواهيه وإنما هو حريص على الحياة محب لها ، خائف من الموت كاره له ، ترتجف فرائصه من شبحه الرهيب الذى لا يرى نجاة له منه إلا بالاختفاء فى مجاهل الأرض .

وهذا الأحيمر السعدى يصور رهبته من الموت الذى كان ينتظره ، بعد أن جنى جناية فطلبه السلطان ، وأباح دمه ، فيقول[3] :

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بالذِّئْبِ إِذْعَوى وصوَّتَ إنسانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ
رَأَى اللّهُ أَنِّى لِلأَنِيسِ لَشَانِئٌ وتُبْغِضُهُمْ لِى مُقْلَةٌ وضَمِيرُ
فَلِلَّيْلِ إِذْ وَارَانِىَ الليلُ حُكْمُه وللشَّمْسِ إنْ غَابَتْ عَلَىَّ نُذُورُ

فقد ملأ عليه الرعب أنحاء نفسه ، فأبعد فى الهرب ، وانقطع عن الناس ، وأصبح لا يطمئن إلا فى البلد القفر والمكان الخالى . وبلغ من رعبه أنه كره الناس أشد الكره ، وألف الحيوان أعظم الإلف ، وأصبح لا يأمن إلا بمصاحبته وسماع صوته ، لأنه كان يعلم عندئذ أنه بأرض نائية مأمونة لا يمكن أن يصل أحد إليها ولا أن يراقبه إنسان فيها . ومع تأبده وابتعاده عن الناس فقد ظل الرعب يؤرقه والخوف يفزعه ، وإذا هو يستطيل ساعات نهاره ، ويتمنى أن تختفى الشمس ويسدل الليل عليه أستار ظلامه ، لعله يواريه عن الأعين ويخفيه عن الأنظار .

---

(١) العنقاء : أكمة بجبل فى بحرين . غلغل : جبل بالبحرين . غول : جبل أو واد .
(٢) الباحة : الساحة . الأدمى : أرض ذات حجارة فى بلاد قشير . موئل : منجى .
(٣) الوحشيات ص : ٣٤ ، والشعر والشعراء ص ٧٨٧ ، والمؤتلف والمختلف ص : ٤٣ .

ويطغى تصوير هذا الخوف وذلك الرعب الذى كان يعيش فيه الصعاليك المطاردون على شعر عبيد بن أيوب العنبرى ، حتى ليستغرق أكثره ، وحتى ليتميز به من سائر الصعاليك الأمويين . وها هو ذا يخاطب الحجاج وقد طلبه قائلا [١] :

أَنِفْنِىَ طَعْمَ النَّوْمِ أَوْ سَلْ حَقِيقَةً ... عَلَىَّ فإِنْ قَامَتْ فَفَصِّل بنَانِيا

خَلَعْتَ فُؤادى فَاسْتَطَارَ فَأَصْبَحَتْ ... تَرَامىَ بِىَ البِيدُ القِفَارُ تَرَامِيا

أرأيت إلى فزعه من عذاب الحجاج وبطشه ؟ لقد جفت عيناه النوم، وانهارت أعصابه ، وخارت نفسه ، وذهب عقله ، وعاش فى خوف مطبق ، وتشرد مستمر واقرأ له هذه الأبيات التى يقول فيها [٢] :

لَقَدْ خِفْتُ حَتَّى لو تَمُرُّ حَمَامَةٌ ... لَقُلْتُ عَدوٌّ أَو طَلِيعَةُ مَعْشَرِ

فإِنْ قيلَ أَمْنٌ قُلْتُ هٰذِى خَدِيعَةٌ ... وإِنْ قِيلَ خَوْفٌ قُلْتُ حقًّا فَشَمِّرِ

وخِفْتُ خَلِيلِى ذَا الصَّفَاءِ وَرَابَنِى ... وَقِيلَ فُلانٌ أَو فلانَةُ فَاحْذَرِ

وهذا خوف مابعده خوف ، وتوجس ما بعده توجس ، فقد استحالت حياته رعباً خالصاً ، وغصت بالهواجس والأشباح ، فإذا هو لا يأنس بشىء ، ولا يرى فى شىء بشير أمل وخير ، بل نذير سوء وشر ، وإذا هو يظن أن كل ما بالوجود شرط يترصدون له لكى يقبضوا عليه ، وإذا هو لا يثق بأصدق أصدقائه ، بل يشك فيه ويبتعد عنه، وإذا هو لا يجد الأمان إلا فى البرارى حيث لاحياة ولاحركة ولا صوت.

ومن أجل ذلك عاش الصعاليك الأمويون مطاردين مشردين ، خائفين وجلين . ولم يكن أمامهم من منجاة من الطلب والعقاب إلا الهرب فى الصحراء والاختفاء فيها. وعلى نحو ما صوروا خوفهم وفزعهم من السلطان وعذابه صوروا أيضاً تشردهم فى الصحراء وهيامهم على وجوههم بفيافيها . فهذا عبيد بن أيوب العنبرى الذى كان جوّالا فى مجهول الأرض ، لما اشتد خوفه وطال تردده ، وأبعد فى الهرب كما يقول الجاحظ [٣] — يشبه نفسه بالحيوان الوحشى لما يجمع بينهما من الابتعاد عن الأمكنة

(١) الحيوان ٦ : ١٦٦ ، والشعر والشعراء ص : ٧٨٥ ، العقد الفريد ٢ : ١٦٢ .

(٢) حماسة البحترى ص : ٤١١ ، والحيوان ٦ : ١٦٥ ، ومجموعة المعانى ص : ٧٧ .

(٣) الحيوان ٦ : ١٦٥ .

المأهولة والاستقرار فى الأمكنة الخالية المهجورة ، يقول [١] :

وأَصْبَحْتُ كالْوَحْشِيِّ يَتْبَعُ ما خَلَا ويَتْرُكُ مَأْنُوسَ البِلادِ المُدَعْثَرِ [٢]

بل هو يصف نفسه مرة ثانية بأنه « أخو فلوات » [٣] ، ومرة ثالثة بأنه « أخو قفرات [٤] » .

واقرأ هذه الأبيات للقتال الكلابى التى يصور فيها شكره ووفاءه لجبل عماية ، وتعظيمه إياه ودعاءه بالخير له ، لأنه يقوم مقام الأم الحنون لكل شريد ، فقد وجد فى شعابه وقلاعه الملجأ الأمين والحصن الحصين الذى امتنع فيه على مروان ابن الحكم وجنوده ، يقول [٥] :

جَزَى اللهُ عَنَّا والجزاءُ بكَفِّه عمايةَ خيرًا أُمَّ كُلِّ طريد [٦]

فلا يَزْدَهِيهَا القَوْمُ إن نزلوا بها وإنْ أَرسل السلطانُ كُلَّ بريد [٧]

حَمَتْنِىَ منها كلُّ عَنقَاءَ عَيْطَلٍ وكلُّ صَفَا جمٍّ القِلاتِ كَؤُود [٨]

ولطول تشردهم فى الجبال المهجورة ونقابها ، والتجائهم إلى الصحارى المقفرة وشعابها ، ولشدة استيحاشهم وتوجسهم بها ، أخذوا يصفون مصاحبتهم لحيوانها ، وأنْسَهُمْ به ، وأنْسَهُ بهم ، ومُطاعَمَتَهُم له ، ومُطاعَمَتَهُ لهم ، ومن ذلك قول الأحيمر السعدى [٩] :

---

(١) المصدر نفسه ص : ١٦٥ .

(٢) المدعثر : الموطوء .

(٣) المصدر نفسه ص : ١٦٨ ، وانظر مجموعة المعانى ص : ٣٧ .

(٤) الحيوان ٦ : ٢٣٦ .

(٥) ديوانه ص : ٤٥ .

(٦) عماية : جبل بنجد .

(٧) يزدهيها : يستخفون بها .

(٨) عنقاء : صفة للهضبة وهى الطويلة المرتفعة . العيطل : الهضبة الطويلة . الصفا : الصخر . القلات : جمع قلت وهى النقرة فى الجبل .

(٩) الشعر والشعراء ص : ٧٨٨ .

أَرَانِى وذِئْبِ القَفْرِ إِلْفَيْنِ بَعْدَما بَدَأْنا كِلاَنَا يَشْمَئِزُّ ويُذْعَرُ
تَأَلَّفَنى لمَّا دَنَا وأَلِفْتُــهُ وأَمْكَنَنى للرَّمْىِ لَوْ كُنْتُ أَغْدِرُ
ولكِنَّنى لَمْ يَأْتَمِنِّى صَاحِبٌ فَيَرْتَابَ بِى مَا دَامَ لا يَتَغَيَّر

أرأيت كيف اطمأن الذئب إليه وكيف اطمأن هو له ؟ لقد خشى كل منهما صاحبه حين التقيا لأول مرة ، ولكنهما حين طال بهما اللقاء لم يلبثا أن وثق كل منهما بالآخر ، فإذا هو يحافظ على الذئب ويرعاه ، لأن الذئب لم يفكر فى الغدر به ، ولا عدل عن الوفاء له .

ويشتهر عبيد بن أيوب العنبرى بأنه أكثر من الإلمام بوصف هذا الجانب فى شعره حتى لينفرد بذلك من بين غيره من الصعاليك الأمويين . ومما يروى له فى ذلك قوله [1] :

علامَ تُرَى ليلِى تُعذِّب بالمُنَى أَخَا قَفَرات كَانَ بالذِّئْبِ يَأْنَسُ
وصارَ خَلِيلَ الغَولِ بَعْدَ عَدَاوَةٍ صَفِيًّا وَرَبَّتْهُ القِفَارُ البَسابِسُ
فليس بِجِنِّىٍّ فَيُعْرَفُ نَجْلُه ولا أَنَسِىٍّ تَحْتَوِيه المَجَالِسُ
يَظَلُّ ولا يَبْدُو لِشَىْءٍ نَهارَه ولِكنَّهُ يَنْبَاعُ واللَّيْلُ دَامِسُ [2]

فهو يزعم أنه صاحب الذئب ورافق الغول من بعد نفوره منه ، مع أن الغول ليس له وجود !

والظاهرة اللافتة للنظر فى أشعار الصعاليك الأمويين على ما كان فى حياتهم من الملاحقة والمطاردة ، والتهديد والوعيد ، والفزع والفرق ، ومن مرافقتهم للوحوش وإلفهم لها — أنهم يحنون حنيناً زائداً إلى الاستقرار ، ويتشوقون شوقاً فياضاً إلى أهلهم وأحبابهم وبلادهم ، مستذكرين أيامهم الماضية حين كانوا آمنين مطمئنين فى أوطانهم وبين أهليهم ، ومسترجعين ذكرياتهم الخالية مع صاحباتهم وما طوى فيها من

(١) الحيوان ٦ : ١٦٨ ، ٢٣٦ ، وحماسة البحترى ص : ٤١١ .
(٢) ابناع الرجل : وثب بعد سكون .

مودة ووصل برىء ، يقول الخطيم العكلى اللص وهو مشرد مطلوب [١] :

أَعُوذُ بِرَبِّى أَنْ أَرَى الشَّامَ بَعْدَها وعَمَّانَ ما غَنَّى الحَمَامُ وغَرَّدا
فَذَاكَ الذى أَنْكَرْتِ يا أُمَّ مالكٍ فأَصبحت منه شاحب اللون أسودا
لها بَيْنَ ذى قَارٍ فَرَمْلٍ مُخَفِّقٍ من القُفِّ أَوْ مِنْ رَمْلَةٍ بَيْنِ أَبْرَدا [٢]
أَواعِسُ فى بَرْثٍ من الأَرْضِ طَيِّبٍ وأَوْدِيَةٌ يُنْبِتْنَ سِدْرًا وغَرْقَدَا [٣]
أَحَبُّ إلينا من قُرَى الشَّام منْزِلاً وأَجْبَالِها لَوْ كَانَ أَنْأَى تَوَدَّدَا

فهو ينزع إلى محبوبته وبلادها ويفضل طبيعتها الصحراوية وأوديتها وشجرها، وحياتها البدوية على حواضر الشام وقراها وجبالها .

وعلى ما سيطر على نفس القتال من حب للبطش ، وانغماس فى الجريمة، واستخفاف بالحياة ، واستهتار بالقتل ، حتى لقد لقب بالقتال لشدة تمرده وفتكه [٤] ، وعلى ما غلب على حياته من التشرد والتخفى فإن ذلك لم يشغله عن التفكير فى المرأة ، والتعلق بها ، والخضوع لها، واستمع إليه يعبر عما يضطرب فى نفسه من شوق إليها وضعف أمام جمالها ، يقول [٥] :

وإنِّى لَيَدْعُونِى إلى طَاعَةِ الهَوَى كَوَاعِبُ أَترابٌ مِراضٌ قُلُوبُها

واستمع إلى السمهرى بن بشر العكلى يصف ما بصاحبته من حنين إليه ، لطول مفارقته لها ومفارقتها له ، وكيف أنه يبادلها شوقاً بشوق وأمنية بأمنية، وكيف أنه يتوق إلى الالتقاء بها والعيش معها على مسارح شبابه وشبابها، تلك التى نفر عنها وأصبح من المستحيل عليه أن يعود إليها ، يقول [٦] :

---

(١) معجم البلدان ٦ : ٢١٧ ، ٧ : ٤١٠ .
(٢) مخفق : رمل بأسفل الدهناء .
(٣) الوعساء والبرث : كل أرض سهلة لينة .
(٤) كنى الشعراء ص : ٢٩٥ ، وألقاب الشعراء ص : ٣١٢ ، والأغانى (طبعة الساسى) ٢٠ : ١٥٨ ، وسمط اللآلى ص : ١٣ ، وخزانة الأدب ٣ : ٦٦٨ .
(٥) ديوانه ص : ٣٠ .
(٦) معجم البلدان ٥ : ٧ .

تَمَنَّت سُلَيْمَى أَنْ أُقيم بأَرْضها وأَنّى وَسلْمَى وَيْبُها ما تَمَنَّت

أَلا لَيْتَ شِعرى هل أَزُورَنَّ ساجرًا وقد رَوِيَتْ ماءَ الغوادى وعُلَّت[١]

وهذا عطارد بن قُرّان الحنظلىّ اللص يستعيد وهو مشرد منتظر ارتحال محبوبته عنه، وكيف تماسك أمامه، وكظم ما به من وجد وما أحس من ألم الفراق الممض خوفاً من أن يراه صاحباه، ولكن عبراته سرعان ما خانته فإذا هى تسيل على خديه يقول[٢]

ولما رأيتُ البِشْرَ أَعرضَ وٱنْثَنَتْ لأَعْرَافِهم مِنْ دونِ نَجْدٍ مَوَاكِبُ[٣]

كَتَمْتُ الهَوَى من رَهْبةٍ أَن يَلُومَنى رَفِيقَاىَ وٱنْهَلَّتْ دُمُوعٌ سَوَاكِب

ولا يملك جحدر بن معاوية المحرزى اللص وهو بعيد عن مرابع صباه إلا أن يدعو لأطلالها بالخير والرحمة الواسعة، فقد نشأ على أرضها، وبادل فيها لداته من الفتيات الجميلات المحبة والوصال، يقول[٤]:

يا دارُ بَيْنَ بُزَاخَةٍ فَكَثِيبِها فَلِوَى غَبيرٍ سَهْلِها أَوْ لُوبِها[٥]

سَقَتِ الصبا أَطلال رَبْعِك مُغْدِقاً يَنْهَلُّ عَارِضُها بِلُبْسِ جُيوبِها[٦]

أَيَّامَ أَرْعَى العِينَ فى زَهْرِ الصِّبَا وثِمَارَ جَنَّاتِ النساء وطِيبِها

أما طهمان بن عمرو الكلابى فيزجر نفسه عن التعلق بخليلته والتشوق إليها، وأين هو منها حتى يتذكرها ويشغل بها؟ إنه بعيد عنها مشرد فى الجبال، سيئ الحال، يقول[٧]:

فيالَكِ مِنْ نَفْسٍ لجُوجٍ أَلَمْ أَكُنْ نَهَيْتُكِ عَنْ هَذا وأَنْتِ جَمِيعُ

---

(١) ساجر: ماءٌ فى بلاد بنى ضبة وعكل.

(٢) معجم البلدان: ٢: ١٨٩.

(٣) الأعراف: النوق. البشر: جبل يمتد من عرض الفرات من أرض الشام.

(٤) معجم البلدان ٢: ١٦٢.

(٥) بزاخة: ماء بعينه. اللوب: الأرض السهلة. غبير: ماء.

(٦) الجيوب: الأرض ذات الحجارة والغلظ.

(٧) معجم البلدان ٥: ١٨٧. وديوانه ص: ٣٦

وما زال صَرْفُ الدَّهْر حَتّى رَأَيْتنى أُطَلّى عَلَى سهوانَ فهو مَرِيعُ[١]

ولكن طيفها يأبى إلا أن يظل يلاحقه ويلم به ويؤرقه عند الفجر ، وهو ضارب فى أعماق الصحراء مع رفاقه الذين أتعبتهم الرحلة وأضناهم السير ، فغطوا فى النوم غطيطا[٢] :

طَرَقَتْ أُمَيْمَةُ أَيْنُقاً ورحَالا ومُصَرَّعين من الكَرَى أَزْوَالا[٣]
وكأنما جَفَل القَطَا برحَالِنا والليلُ قَدْ تَبِعَ النُّجُومَ فَمالَا

وليس معنى ما قدمنا أن الصعاليك الأمويين يتَّصِفُون بالضعف والخور ، لأنهم صوروا ما وقع فى قلوبهم من الرعب والذعر ، وماذا داخل نفوسهم من السأم والبرم بحياة التشرد والملاحقة ، ولأنهم نزعوا إلى الحياة الهادئة الوادعة ، وإنما كل ما هناك أن هذه مشاعر كانت تطبق عليهم فى ساعات الضيق والقلق أما بعد ذلك فقد كانوا شجعاناً أشداء أقوياء ، جبابرة عتاة ، يشهد على ذلك أن معظمهم يوصفون بأنهم فتاك أو فرسان . فمالك بن الريب كان لصاً فاتكاً [٤]، وكذلك كان يعلى الأحول اليشكرى [٥] وطهمان بن عمرو الكلابى [٦] . أما الأحيمر السعدى فكان من فرسان العرب فى الإسلام [٧] . ويوصف عبدالله بن الحجاج الثعلبى بأنه شاعر فاتك شجاع من معدودى فرسان مضر ذوى البأس والنجدة منهم [٨] ، وعلى هذا النحو كان القتال الباهلى [٩] ، والقتال الكلابى [١٠] . أما عبيد الله بن الحر

---

(١) أطلى : أمرض . سهوان : جبل .
(٢) معجم البلدان ٥ : ٣٥٨ ، وديوانه ص : ٢٩ .
(٣) الأزوال : جمع زول ، وهو الخفيف الظريف .
(٤) الشعر والشعراء ص : ٣٥٣ ، معجم الشعراء ص : ٢٦٥ .
(٥) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١١١ .
(٦) سمط اللآلى ص : ٤٧٣ .
(٧) العقد الفريد ١ : ١٣٧ .
(٨) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ : ١٥٨ .
(٩) المؤتلف والمختلف ص : ٢٥٢ .
(١٠) الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠ : ١٥٨ .

الجعفى فكان شجاعاً فاتكاً [١] بل كان أذكر فى الفروسية من أشهر أبطالها فى الإسلام [٢] . ويوصف السمهرى ابن بشر العكلى بأنه كان لصًّا خبيثاً [٣] ، وكان عبد الله بن الأحدب السعدى أشد منه وألص [٤] .

ويدل على ذلك أيضاً تصويرهم هم أنفسهم لشجاعتهم وصبرهم وقوة احتمالهم وصمودهم للمكاره واستهانتهم بالحياة . فمالك بن الريب يعلن لمروان بن الحكم بعد أن شدد فى طلبه بأنه لا يفر منه لجبن فيه ، بل محافظة على حياته ، كما يصف نفسه بأنه لا يخاف من المخاطر ولا تقهره الخطوب ، فقد بلا الصحراء ، وتمرس بحياتها ، وعرف دروبها ، ووصل إلى وبار ، ذلك المكان الذى لا يصل إليه أحد ، ولا يقدر على العيش فيه أى فرد ، يقول [٥] :

أَلَا مَنْ مُبْلِغ مَرْوَانَ عَنِّى ... بِأَنِّى لَيْسَ دَهْرِى بِالفِرَارِ

ولا جزعاً من الحَدَثان دَهْرى ... ولكنِّى أَدُورُ لَكَمْ وَبَارِ

والخطيم العكلى اللص يشيد ببعد همته وصلابة قلبه ، وأنه يطرح نفسه فى مطارح الموت دون مبالاة أو اكتراث ، بل إن الموت نفسه ليخشى أن يقحم نفسه فى هذه المهالك التى يرمى الخطيم نفسه عليها ويغامر بحياته فيها ، يقول [٦] :

وإنِّى لَمَاضِى العَزْمِ لو تَعْلَمِينَهُ ... وَرَكَّابُ أهوالٍ يَخَافُ بها الرَّدَى

والسمهرى بن بشر العكلى يتغنى بحزمه وعزمه ، ورباطة جأشه ، وخبرته الواسعة بالصحراء ، حتى لقد دار أرض اليمامة كلها بدون هاد يرشده أو رفيق يؤنسه ، يقول [٧] :

---

(١) ذيل سمط اللآلى ص : ١٠٤ ، وجمهرة أنساب العرب ص : ٤١٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢١ .

(٣) ذيل السمط ص : ٣٨ .

(٤) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥٢ .

(٥) معجم ما استعجم ٤ : ١٣٦٦ .

(٦) معجم البلدان ٦ : ٢١٧ .

(٧) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥٢ .

وما كنتُ مِحيارًا ولا فَزِعَ السُّرَى ولكن حَذَا حُجْرًا بِغَيرِ دَلِيل

وعبيد بن أيوب الذى أكثر من وصف خوفه وتوجسه، لا يقل قوة واحتمالا وبأساً عن سابقيه ، واقرأ له هذين البيتين (١) :

ويومٍ كَتَنُّورِ الإماءِ سَجَرْنَه وأَلْقَيْنَ فيه الجَزْلَ حَتَّى تَضَرَّما
رَمَيْتُ بِنَفْسِي فى أَجيج سَمُومِهِ وبالعَنْسِ حَتَّى ضَبَّ مَنْسِمُها دَمَا (٢)

أرأيت إليه كيف يغامر بنفسه ويلقيها إلى التهلكة ؟ أرأيت إليه كيف يقذف بها فى الشداد دون تردد أو تفكير ؟ إنه يشبه بعض المحن التى ألمت به وتغلب بثباته عليها بنيران التنور الحامية التى أشعلها القيان وما زلن بها يمددنها بالحطب والوقود حتى اشتد لهبها وتوقّد حرها .

واقرأ هذه الأبيات للقتال الكلابى فإنك تكاد تظن أنها ليست لصعلوك أموى ، بل لصعلوك جاهلى (٣) :

إذا هَمَّ هَمًّا لم يَرَ الليلَ غُمَّةً عليه ولم تَصْعُبْ عليه المَرَاكِبُ
قَرَى الهَمَّ إذ ضَافَ الزَّماعَ فأَصبحتْ منازله تَعْتَسُّ فيها الثعالبُ (٤)
جَلِيدٌ كريمٌ خِيمُهُ وطباعُهُ على خَيْرِ ما تُبْنَى عليه الضَّرائبُ (٥)
إذَا جاعَ لم يَفْرَحْ بأَكلة ساعةٍ ولم يَبْتَئِسْ من فقدِهَا وهو ساغب
يرى أن بعد العُسْرِ يُسْرًا ولا يرى إذا كانَ يُسْرٌ أَنه الدّهْرَ لازِبُ (٦)

---

(١) مجموعة المعانى ص ٧٦ .

(٢) العنس : الناقة القوية الصلبة ، ضب : سال . المنسم : طرف خف البعير ، أو ظفر الناقة الذى فى يدها .

(٣) ديوانه ص : ١ ، وانظر شرح حماسة أبى تمام للمرزوقى ٢ : ٦٥٢ ، والمؤتلف والمختلف ص : ٢٥٢

(٤) الزماع : المضاء فى الأمر والعزم عليه . تعتس : تسير بالليل ، وتعتس فيها الثعالب : يريد أنها خالية من الأنيس ، وأن الوحوش هى التى تسكن بها ، وتتردد فيها .

(٥) الخيم : الطبيعة . الضرائب : جمع الضريبة وهى الخليقة .

(٦) لازب : مستمر .

وأيُّ فرق بين معانى هذه الأبيات ومضمون شعر عروة بن الورد أبى الصعاليك الجاهليين ؟ إن القتال يستمد استمداداً مباشراً منه ، ويتأثر تأثراً واضحاً به . فإذا عزم على شيء مضى إلى تنفيذه دون أن يحول بينه وبين تحقيقه أى مانع من هول الليل أو خطر الطريق ، فما هى إلا أن يفكر فيما يريد حتى يسعى إلى بلوغه معتمداً على قوته وعزيمته ، ومؤثراً فى سبيله التعب على الراحة ، والمكان المخوف الموحش على البلد الآمن الهادئ ، لأنه يثق بنفسه ثقة مطلقة ، ويعتد بها إلى أقصى حد .

وليست هذه هى المشابه الوحيدة بينه وبين عروة ، بل هناك مشابه أخرى ، فهو كريم النفس نبيل صبور ، إذا شبع لم يبطر ، وإذا جاع لم ييأس ، لأنه يؤمن بأن الأيام لا تدوم على حال ، بل تتبدل وتتغير من حال إلى حال ، ومن أجل ذلك فإنه إذا استغنى لا يستخفه الغنى ولا يستغويه ، لأن الغنى لا يبقى بل يفنى ، وإذا افتقر عفّ ولم يكتئب ، لأن الفقر لا يدوم بل يزول .

فأنت ترى أن الصعاليك الأمويين يتفقون مع الصعاليك الجاهليين فى أشياء ، ويفترقون عنهم فى أشياء : يتفقون معهم فى أنهم جميعاً كانوا فقراء مشردين متأبدين فى الصحراء ، كما كانوا أيضاً أقوياء أولى بأس شديد لا يرهبون من الموت ولا يتمسكون بالحياة . ويفترقون عنهم فى أن بعضهم أخذه الرعب واستخفه العقاب ، كما أن نفراً منهم اشتد بهم الشوق إلى أهلهم وأوطانهم ، وإلى محبوباتهم وخلانهم .

٢
عصاباتهم وأعمالهم

عاش الصعاليك الأمويون على اختلافهم فقراءَ وخلعاءَ وجناةً فارين وسياسيين ثائرين فى ظروف صعبة قاسية ، فقد تبرأت قبائلهم منهم ، وتخلت عنهم وأخذت الدولة تطاردهم وتتعقبهم ، فتأبدوا فى القفار ، واستوطنوا مجاهل الأرض ، وانبتوا من مجتمعهم وحرموا من أى عناية بهم ، فإذا هم تتعذر أسباب الرزق عليهم ، حتى لقد كان بعضهم يضطر إلى إقامة أوده ، وحفظ رمقه بعروق النبات ، وأوراق الشجر ، أو بما كان يصطاده من حيوان الصحراء [١] . وفى ظل هذه الأحوال السيئة التى عاشوا فيها من تشرد وتأبد ، وملاحقة وتعقب ، وفقر وجوع ، تخلوا عن قبائلهم كما تخلت عنهم ، وكفروا بها كما كفرت بهم ، وتمردوا على الدولة التى أخذ عمالها وشرطها يلاحقونهم ويشددون فى طلبهم ، ويجتهدون فى القبض عليهم ، واتخذوا من الصحراء المقفرة ، والأماكن النائية المنيعة ، والمناطق التى ضعف فيها سلطان الدولة مستقراً لهم .

وبذلك أشبهت حياتهم فى هذه الجوانب حياة سابقيهم من الشعراء الصعاليك الجاهليين الذين توزعتهم طبقتان : طبقة خاملة ، وطبقة عاملة [٢] . أما الطبقة الخاملة فهى التى ارتضى صعاليكها الذل وأساغوا المهانة . وأما الطبقة الثانية فهى التى ثار صعاليكها على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الفاسدة ، وامتنعوا عن الضيم ، وأنفوا من الخمول ، فخرجوا من قبائلهم والتجأوا إلى الصحراء ، حيث كانوا يتجمعون بها ، وينطلقون منها للانقضاض على القوافل والأسواق والقبائل ، شريعتهم القوة ، ووسيلتهم الإغارة والغزو ، وغايتهم السلب والنهب [٣] .

أما الصعاليك الأمويون فلم ينقسموا إلى هاتين الطبقتين المختلفتين ، وإنما

---

(١) الحيوان ٦ : ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص : ٣٢ .

(٣) المصدر السابق ص : ٥٣ .

كانوا جميعاً من طبقة واحدة ، لم يعرف أفرادها القعود والخمول ، ولا استساغوا الهوان والذل ، بل آمنوا أشد إيمان وأعمقه بشريعة أسلافهم من الصعاليك الجاهليين العاملين ، واصطنعوا وسيلتهم ، وسعوا إلى غايتهم ، تدل على ذلك دلائل كثيرة ، منها : أن القدماء لم يحدثونا عن أى صعلوك أموى خامل ذليل . ومنها : أن أحداً منهم لم يُعْلِن فى أشعاره ، ولم يُحْمَل إلينا من أخباره ما ينبىء بأنه قبل الهوان والمذلة والحياة الخاملة لامن قبيلته ولامن الدولة وولاتها . وربما كان مالك بن الريب التميمى خير من نطق بلسانهم معبراً عن أنفتهم وعزتهم ، إذ يقول [١] :

وما أَنا كالعِير المُقيمِ لِأَهْلِهِ ... على القَيْدِ فى بَحْبُوحَةِ الضَّيْم يَرتَعُ

وهو نفسه ينبئنا بأنه لا سبيل إلى الحياة الكريمة مع الظلم ، ولا وسيلة إلى الغنى مع الفقر إلا استخدام القوة ، والاعتماد على السيف ، وتعاطى الإغارة على التجار ، إذ يقول [٢] :

سَيُغْنِينِى المَلِيكُ ونَصْلُ سَيْفِى ... وكرَّاتُ الكُمَيْتِ عَلَى التِّجار

فحسبه ربه يحميه ، وسيفه يدافع عن نفسه به ، وفرسه يغير به على القوافل . واستمع إلى عبيد الله بن الحر الجعفى يردد المعانى السابقة ، ولكن فى تفصيل أكثر وإصرار أقوى ، إذ يقول [٣] :

يُخَوِّفُنِى بالقَتْل قومِى وإنَّما ... أَموتُ إذا جاءَ الكتَابُ المُؤَجَّل

إذا كُنْت ذَا رُمْح وَسَيْفٍ مُصَمِّمٍ ... عَلَى سَابِح أَدْنَاكَ مِمَّا تُؤَمِّلُ [٤]

وإنَّكَ إنْ لا تَرْكَبِ الهَوْلَ لا تَنَلْ ... من المال ما يَكْفِى الصَّدِيقَ ويَفْضُلُ

إذا القِرْنُ لَاقانى ومَلَّ حَيَاتَه ... فَلَسْتُ أُبالى أَيُّنَا مَاتَ أَوَّلُ

وهذه شجاعة تبلغ حد الاستهانة بالحياة والاستخفاف بالموت فى سبيل تحقيق الغاية ، وبلوغ المراد . فقد استقر فى نفسه أن لكل إنسان أجلا معلوماً لن يتأخر

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٤

(٢) الشعر والشعراء ص : ٣٥٣ .

(٣) حماسة ابن الشجرى ص : ٢٨ .

(٤) السيف المصمم : الصارم الذى لا ينثنى ، بل يمضى فى العظم ويقطعه .

عنه ولن يتقدم عليه ، كما استقر فى نفسه كذلك أنه لا يمكن أن يثْرى وهو قاعد خامل لا يتحرك ولا يلتمس رزقه ومعاشه . وبجانب ذلك آمن أيضاً بأن سعيه وراء الغنى ، وعمله من أجل الثروة العريضة لا يمكن أن يتحققا له إلا بسيفه ورمحه وجواده ، وإلا بركوبه للأخطار وتجشمه للأهوال ، دون خوف أو مبالاة أو إحجام.

وثالث الأدلة وأقواها : أن كل الصعاليك الأمويين يوصفون بأنهم لصوص ، سواء كانوا من المشهورين الذين احتفظ القدماء بتراجم لهم وعنوا بهم ، أو من المغمورين الذين أهملهم حملة الأخبار ورواة الأشعار . ومن الصنف الأول : مالك بن الريب التميمى [١] ، ويعلى اليشكرى [٢] ، وعبيد بن أيوب العنبرى [٣] ، والأحيمر السعدى [٤] ، ومسعود بن خرشة التميمى [٥] ، وأبو النشناش التميمى [٦] ، والسمهرى بن بشر العكلى [٧] ، والهيزدان بن خطار [٨] ، وجحدر بن مالك الحنفى [٩] وعبيد الله بن الحر الجعفى [١٠] ، فهؤلاء جميعاً من الشعراء الأمويين الصعاليك اللصوص الذين نقل القدماء إلينا أخبارهم واحتفظوا لنا بأشعارهم .

أما الصنف الثانى من الصعاليك الأمويين اللصوص فلم تصل إلينا إلا قطع نادرة من أخبارهم ، ومنتخبات قليلة من أشعارهم ، بحيث لا نستطيع أن نعرف معرفة دقيقة سبب تصعلكهم وتلصصهم . ولكنهم على كل حال يوصفون بأنهم من اللصوص ، وأهم من حمل إلينا أسماءهم وأطرافاً موجزة من أخبارهم وأشعارهم هو

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٣ ، ومعجم الشعراء ص : ٢٦٥ ، وشرح شواهد المغنى ص : ٢١ .

(٢) الأغانى ١٩ : ١١١ .

(٣) البيان والتبيين ٤ : ٦٢ ، والكامل للمبرد ١ : ٣٤١ ، وسمط اللآلى ص : ٣٨٤ ، والشعر والشعراء ص : ٧٨٤ .

(٤) الشعر والشعراء ص : ٧٨٧ ، والمؤتلف والمختلف ص : ٤٣ ، وسمط اللآلى ص : ١٩٥ .

(٥) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ١٦٦ .

(٦) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ١٧١ .

(٧) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ ، ٢ ، ٥ ، وذيل سمط اللآلى ص : ٣٨ .

(٨) معجم الشعراء ص : ٤٦٩ .

(٩) شرح شواهد المغنى ص : ١٣٩ ، وخزانة الأدب ٣ : ٣٤١ ، والمحاسن والأضداد ص : ٧٦ ، معجم البلدان ٣ : ٢٢٣ .

(١٠) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩١ ، وخزانة الأدب ١ : ٢٩٧ .

ياقوت الحموى ، الذى يستمد أغلب ما يرويه لهم فى كتابه معجم البلدان من كتاب اللصوص لأبى سعيد السكرى العالم البصرى الثَّبْتُ ، والراوية الصادق المتوفى سنة خمس وسبعين ومائتين للهجرة [١] . وقد ظل كتابه معروفاً متداولا بين العلماء حتى نهاية القرن الحادى عشر الهجرى . وآية ذلك أن عبد القادر البغدادى المتوفى سنة ثلاث وتسعين وألف للهجرة قد رآه ونقل عنه فى مواطن متفرقة من خزانة الأدب[٢] . ولو قدّر لكتاب اللصوص لأبى سعيد السكرى أن يصل إلينا مع ما فقد من كتب اللصوص التى ألفها سابقوه من العلماء من أمثال لقيط بن بُكير المحاربى المتوفى سنة تسعين ومائة للهجرة ،والذى صَنَّف كتاباً فى الخرّاب واللصوص[٣] وأبى عبيدة معمر المثنى المتوفى سنة عشر ومائتين للهجرة ، والذى ألَّفَ كتاباً فى لصوص قريش[٤] وكتاباً ثانياً فى المَلاص[٥] ، وربما كان هو كتاب الصعاليك الذى ينقل عنه أبو عبيد البكرى فى سمط اللآلى [٦] ، ومثل أبى عثمان الجاحظ المتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة ، والذى صَنَّف أيضاً كتاباً فى اللصوص[٧] ضاع ولم نظفر منه إلا بقطعة صغيرة فى كتابه الحيوان [٨] ، وبفصل طويل فى محاضرات الراغب الأصفهانى أقامه على ما اقتبسه منه ووسمه بعنوان « التلصص وما يجرى مجراه [٩] » لو قُدِّر لكل هذه الكتب أن تصل إلينا لاستوسقت لنا مجموعة من الأخبار والأشعار التى نتمكن معها من تكوين فكرة واضحة لا يشوبها الغموض عن هؤلاء اللصوص

على أن الذى يعنينا هو أن هؤلاء الصعاليك العاملين المجهولين كانوا من

---

(١) نزهة الألباء ص : ٢١١ ، والفهرست لابن النديم ص : ١١٧ (طبع المطبعة الرحمانية بمصر) .

(٢) انظر على سبيل المثال خزانة الأدب ٣ : ٢٩٧ .

(٣) معجم الأدباء ١٧ : ٣٧ .

(٤) الفهرست لابن النديم ص ٨٠ .

(٥) المصدر نفسه ص : ٨٠ .

(٦) سمط اللآلى ص : ١٨٤ .

(٧) معجم الأدباء ١٦ : ١٠٧ .

(٨) الحيوان ٣ : ٤٠٩ .

(٩) محاضرات الأدباء ٣ : ١٨٩ .

اللصوص كما يصفهم القدماء ، ويسوق ياقوت الحموى طوائف كثيرة منهم ، أشهرهم الخطيم العكلى [١] ، وجحدر المحرزى [٢] ، وعطارد بن قرّان [٣] ، وعياش الضّبى [٤] ، وتليد الضبى [٥] ، وطهمان بن عمرو الكلابى [٦] ، وسليمان ابن عياش [٧] ، والعطّاف العقيلى [٨] ، وعرقل بن الخطيم [٩] وأيمن بن الهماز العقيلى [١٠] ، وعبيد بن عياش البكرى [١١] .

ولم يمارس الصعاليك الأمويون أعمالهم من الإغارة والغزو فرادى ، وإنما كان منهم من يفضل العمل المنظم الذى يتخذ شكل عصابات تتألف من مجموعة من الصعاليك يغيرون وينهبون ويقتسمون ما غنموا من الأسلاب ، كما كان منهم من يفضل الإغارة بمفرده والسلب وحده . فقد كان لمالك بن الريب التميمى عصابته التى كانت تتكون مَن أبى حردبة المازنى ، وشِظَاظٍ الضبى ، وغويث أحد بنى كعب ابن حنظلة [١٢] . وكانت هذه العصابة من ألص العصابات وأشدها وأخطرها ، حتى لقد روّعت الناس ، وأفزعت السابلة ، وحتى عرف أمرها ، وتناقل الناس أخبارها ، وحذروا من أخطارها ، وفيها يقول الراجز [١٣] :

---

(١) معجم البلدان ٢ : ١٤٤ ، ٢٨٤ ، ٦ : ٢١٧ ، ٧ : ٤١٠ .

(٢) المصدر السابق ٢ : ١٦٢ ، ٣٣٦ .

(٣) المصدر السابق ٢ : ١٨٩ ، ٤ : ٩٥ ، وانظر سمط اللآلى ص : ١٨٤ ، والمختار من شعر بشار ص : ٨٥ .

(٤) معجم البلدان ٤ : ١٢٠ .

(٥) معجم البلدان ٣ : ٨٦ .

(٦) المصدر السابق ٥ : ٣٥٨ .

(٧) المصدر السابق ٢ : ١٨٣ .

(٨) المصدر السابق ٥ : ٤٢٩ .

(٩) المصدر السابق ٤ : ٢٨٣ .

(١٠) المصدر السابق ٣ : ٢٧٣ .

(١١) المصدر السابق ٣ : ٣٦٧ .

(١٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٣ ، والشعر والشعراء ص : ٣٥٣ ، والطبرى ٢ : ١٧٨ .

(١٣) معجم ما استعجم ٣ : ١٠٢٧ ، والطبرى ٢ : ١٧٨ ، والأغانى ١٩ : ١٦٣ ، واللسان ٩ : ٣٢٥ .

الله نَجَّاك من القصيم وبَطْن فَلْجٍ وبنى تميم
ومن أَبى حَرْدَبة الأَثِيم ومالك وَسَيْفِهِ المَسْمُومِ
ومن شِظاظِ الأحمر الزنيم ومن غُوَيْثٍ فَاتِح العُكُوم [١]

وكانت لأبى النشناش التميمى أيضاً عصابته التى كانت تشتمل على شذاذ العرب كما يقول أبو الفرج [٢] وكانت للسمهرى بن بشر العكلى عصابته التى تكونت منه ومن بهدل ومروان الطائيين [٣]، وكانت لعبيد الله بن الحر الجعفى عصابته ، بل جيشه من خلعاء القبائل الذين التفوا حوله ، وانقادوا له ، وآمنوا بزعامته [٤].

وانفردت كل عصابة من هذه العصابات بمنطقة من المناطق استقرت بها ، وأخذت تغتصب وتسلب فيها ، إذ كان مالك بن الريب التميمى ومن انضموا إليه يقطعون الطريق على الحجيج ببطن فلج ، ويخيفون السبيل فيه [٥] وكان أبو النشناش التميمى ومن اجتمع إليه يعترضون القوافل بين الحجاز والشام [٦] وكان السمهرى بن بشر العكلى وعصابته يغيرون على الناس بطريق الكوفة ومكة أو بطريق نخل والمدينة [٧] أما عبيد الله بن الحر الجعفى فكان يسيطر بجيشه من الخلعاء على بعض ولايات الدولة وأمصارها ويستخلص خراجها ، وينهب ما ببيوت أموالها [٨] وعلى هذا النحو تخصص بعض الصعاليك فى الإغارة على منطقة بعينها ، فقد كان جحدر بن مالك الحنفى ينزل باليمامة ويغير على نواحيها [٩] ، وكان طهمان بن عمرو

---

(١) العكوم : جمع عكم وهو الحبل يشد به المتاع ، الزنيم : الدعى الملحق بالقوم وليس منهم ، المعروف بالشر واللؤم .
(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ . ١٧١ .
(٣) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥١ .
(٤) الطبرى ٢ : ٧٦٦ .
(٥) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٣ ، والطبرى ٢ : ١٧٨ .
(٦) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ١٧١ .
(٧) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥١ .
(٨) ص : ٢٣١ .
(٩) شواهد المغنى ص : ١٣٩ ، وخزانة الأدب ٣ : ٣٤١ .

الكلابي يقيم بالعارض وهو جبل باليمامة[١] ، حتى إذا جاء الليل انحدر منه وسطا على الدور ، ثم عاد إليه[٢].

وإذا كان الصعاليك الجاهليون قد وفّروا لغاراتهم كل ماحقق النجاح لها وبلوغ أهدافها ، من مثل قوة الجسد ، وشجاعة القلب ، وصدق العزيمة ، وسرعة العدو ، وسعة الحيلة ، وعمق الدهاء ، والقدرة على الخلاص من المآزق الحرجة ، كما وفروا لها أيضاً السلاح الذى يعتمدون عليه فى هجومهم ودفاعهم ، كما يقول الدكتور يوسف خليف[٣] ، فإن الصعاليك الأمويين لا يقلون عنهم فى هذا الشأن ، فقد كانوا أشداء أقوياء ، بعيدى الهمة ، صبورين مخاطرين مغامرين لا يبالون بالموت فى سبيل الغاية ، وكانوا كذلك بصيرين بالصحراء ودروبها ومسالكها والمواطن الخالية منها ، تلك التى يمكن لهم أن ينفردوا فيها بضحاياهم ، كما وفروا لغزواتهم بجانب ذلك كله السلاح من سيوف ورماح وخيل . وأنشدنا لهم أبياتاً وقطعاً كثيرة فى مواضع متفرقة من هذا الفصل ، وأثبتنا من أخبارهم ما يدل على ذلك ويصوره أوضح التصوير .

ولم يعتمد الصعاليك الأمويون فى غاراتهم على السلاح وحده ، فقد كانوا يستعينون به فى المواقف التى تدعو إلى استخدامه ، أما بعد ذلك فكانوا يستعينون بالحيل فى سلبهم ونهبهم . ومن طريف ما رواه الجاحظ من حيل جحدر بن ضبيعة الثعلبي اللص أنه كان إذا نزلت به رفقة قريباً منه ، أخذ قربة بالية فجعل فيها قرداناً ثم نثرها بقرب الإبل ، فإذا وجدت الإبل مسّها نهضَتْ ، وشدّ القربة فى ذنب بعض الإبل ، فإذا سمعت صوتها وعملت فيها القردان نفرت . ثم كان يثبُ فى ذروة ما ندّ منها ويستولى عليه[٤] . وفى ترجمة مالك بن الريب بالأغانى أطراف من الحيل التى كان يلجأ إليها أبو حردبة المازنى وشظاظ الضبى ، منها أن أبا حردبة كان إذا أعجبه بعير من قافلة ، غافل رجالها حتى إذا أخذت عيونهم سنة من النوم سرق البعير وعليه صاحبه ، وغيبه فى مكان بعيد ثم عاد إلى القافلة ، بعد أن يكون رجالها

(١) معجم البلدان ٦ : ٩٣ .
(٢) ديوانه ص : ٥٤ .
(٣) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص : ٥١ .
(٤) الحيوان ٥ : ٤٣٣ .

قد صحوا من غفلتهم ، وسألوا عن صاحبهم. فإن جعلوا له جُعَالة زعم لهم أنه خبير بالأثر ودلهم على صاحبهم وأخذ ما فرضوه له ووعدوه به ، وإلا فقد فاز بالبعير وما عليه [١] . ومن أطرف ما يروى من حيل شظاظ الضبى فى لصوصيته أنه كان ذات يوم يمشى فى الطريق يبتغى شيئاً يسرقه فلم يجد شيئاً. فاستظل بظل شجرة ينام تحت فيئها الركبان بمكان ليس فيه ظل غيرها ، وإذا رجل يسير على حمار ومعه بعض المتاع يقصد تلك الشجرة يريد أن يستريح من مشقة السفر. فقال له شظاظ : إن المقيل الذى تريد أن تقيله يُخْسَف بالدواب فيه ، فلم يلتفت الرجل إليه ، وأناخ حماره واستراح ، فظل يراقبه حتى إذا نام أقبل على حماره فاستاقه ، ولما نأى به قطع طرف ذنبه وأذنيه وقاده إلى مكان بعيد وخبأه فيه . وحين استيقظ الرجل من نومه قام يطلب حماره ويقفو أثره ، فبينما هو كذلك عثر على أطراف ذنبه وأذنيه ، فندم لأنه لم يستمع إلى نصيحته ، وَوَلَّى هارباً خوف أن يُخسَفَ به . وأخذ شظاظ جميع ما بقى من رحله ومتاعه ولحق بأهله [٢] .

وعلى كل حال فإن مثل هذه الحيل قليلة ، كما أن الصعاليك الأمويين لم يعتمدوا كل الاعتماد عليها ، وإنما هو الظرف الذى اضطرهم إليها ، ويمكن أن تكون من آثار استقرار المجتمع بعض الاستقرار ، فإننا سنرى اللصوص العباسيين يهتمون بها ويستكثرون منها [٣] ، ويهملون استخدام السلاح لتحضر المجتمع ، وازدحام المدن بالسكان ، وقيام الشرطة على حراسة الأسواق وغيرها من المرافق التجارية .

ونستطيع أن نزعم مطمئنين أن الصعاليك الأمويين دارت أعمالهم إما على الإغارة على القبائل لسرقة إبلها ، وإما على قطع السبل ، وإما على الترصد للقوافل لانتهاب أحمالها وأموالها ، وإما على التربص بالتجار فى الأسواق لسرقة أنفس ما يعرضون من الثياب والبضائع ، إلا ما كان من عبيد الله بن الحر الجعفى فإنه لم يصطنع شيئاً من ذلك ، وإنما جعل همه انتهاب أموال الدولة .

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٧ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٨

(٣) انظر كتاب الأذكياء لابن الجوزى ص : ١٨٣ وما بعدها .

أما الإغارة على القوافل واغتصاب إبلها فتخصص فيها غير واحد وغير عصابة فهذا القتال الكلابى يهدد بنى حُصَين الذين كانوا ينزلون قرب ماء يسمى« الفياشل » بغزوهم قائلاً [١] :

فلا يَسْتَرِثْ أَهلُ الفياشِل غَارَتِى أَتَتْكُمْ عِتاقُ الطَّيْرِ يَحْمِلنَ أَنْسُرا

والعطاف العقيلى اللص يقول واصفاً سرقته للإبل هو وأفراد عصابته [٢] :

إذا كَلَّ حَادِيها من الإنْسِ أَوْدَنَا بَعَثْنَا لَهَا من وُلْدِ إبْلِيسَ حَادِيا
فلن تَرْتَعِى جَنْبىْ ضِرافٍ ولن تَرَى جبُوبَ سَلِيل ما عَدَدْتُ اللياليا [٣]

أرأيت إليهم كيف كانوا يتربصون بالراعى ليسرقوا إبله ؟ لقد كانوا يمهلونه ويستمرون فى مراقبته حتى إذا تعب ولم يظهر أحد من الناس، أرسلوا إلى إبله شيطاناً من شياطينهم ليسوقها ويهرب بها .

وهذا شظاظ الضبى يبين المكان الذى كان يسرق منه الإبل قائلا [٤] :

مَنْ مُبْلغٍ فتيانَ قَومى رسالةً فلا تَهْلكُوا فَقْرًا على عرْقِ نَاهِق
فإنَّ بهِ صَيْدًا عَزيزًا وهَجْمَةً طِوالَ الهَوَادِى بائِنَاتِ المَرَافِق [٥]
نجائبَ عِيدِىٍّ يكونُ بُغاؤُهُ دُعاءً وقد جَاوَزْنَ عُرْضَ الشَّقَائق

وعرق ناهق أرض للدولة ، وكان أهل البصرة يرعون إبلهم فيها ، كما كان من يريد الحج يصدر إبله إليها إلى أن يحين وقت الحج . وهو يبشر رفاقه بأنهم لن يموتوا جوعاً وشظفاً ، فعرق ناهق قريب منهم ، وما عليهم إلا أن يتوجهوا إليه ، فإن به إبلا كثيرة راعية يمكن أن يغيروا عليها وينهبوها .

أما مقاتل بن رَباح فكان يشن الغارات على بنى تغلب بأرض الجزيرة . وها هو ذا ينصح من يريد أن يحذو حذوه بأن يسلك بالإبل التى يسرقها منهم الطريق الواقع

---

(١) معجم البلدان ٦ : ٤٠٧ ، وانظر اللسان ١٤ : ٣٥ .
(٢) معجم البلدان ٥ : ٤٢٩ .
(٣) ضراف : موضع بعينه . جبوب : أرض غليظة . السليل : واد .
(٤) الوحشيات ص : ٩٣ ، ومعجم البلدان ٦ : ١٥٣ .
(٥) الهجمة : المائة من الإبل .

إلى الغرب من منازلهم ، ويبعد بها حتى يصل إلى أرض هجر ، حيث الأسواق التى يمكن أن يبيعها فيها ، وينصحه أيضاً بأن يغيراسمه وينتسب إلى غير قبيلته لكى لا يعرف أنه من اللصوص ، يقول [(١)] :

إذا أَخَذْتَ إبلاً من تغلبِ فلا تُشَرِّق بى وَلكِنْ غَرِّبِ
وبعْ بِقَرْحَى أَو بَحَوْضِ الثَّعلبِ وإن نُسبْتَ فَانْتَسِبْ ثم اكْذِبِ [(٢)]
ولا أَلُومَنَّك فى التَّنَقُّب [(٣)]

ويبدو أن اليمامة كانت بها أسواق الإبل ، ومن أجل ذلك كان اللصوص ييممون وجوههم بما يسرقونه من الإبل إليها ليبيعوها بها [(٤)] .

ولم تقتصر غاراتهم على نجد واليمامة وأرض الجزيرة بالشام ، بل اتسعت دائرتها حتى شملت مصر ، فقد ذهب عبيد بن عياش البكرى اللص مع صاحب له فى اللصوصية إلى مصر ، وطردا إبلا لرجل نصرانى ومازالا بها حتى أورداها حَجْر اليمامة ، ليبيعاها فيها ، وفى ذلك يقول عياش [(٥)] :

سَرَتْ من قصور الحَوْفِ ليلاً فأَصبحتْ بِدِجْلَةَ ما يَرْجُو المقام حَسِيرُها [(٦)]
نباطِيَّةٌ لم تَدْرِ ما الكُورُ قَبْلَها ولا السَّيْرُ بالمَوْمَاةِ مُذْدَقَّ نَوْرُها [(٧)]
يَدُورُ عليها حَادِيَاها إذا دَنَتْ وأَنتَ على كَأْسِ الصَّلِيب تُدِيرُها
سَلُوا أَهلَ تيماءَ اليهودَ مَمَرَّها صَبِيحةَ خَمْسٍ وهى تَجْرى صفورُها [(٨)]

---

(١) معجم البلدان ٣ : ٣٦٤ ، ٤٩٠ .

(٢) حوض الثعلب : مكان خلف عمان ، وقيل موضع وراء هجر .

(٣) التنقب : البعد .

(٤) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ١٦٦ .

(٥) معجم البلدان ٣ : ٣٦٧ .

(٦) الحسير : الضعيف المهزول . الحوف : من قرى مصر .

(٧) الكور : الرحل . لم تدرما الكور : يريد أنها لم ترحل ولا اعتادت على السفر . الموماه : الصحراء . دق نورها : ذهب وبرها الأول .

(٨) صفورها : ضوامرها .

أَلا لا يُبالى عَارمٌ ما تَجَشَّمت   إِذا واجَهَتْهُ سوقُ حَجْرٍ ودُورُها

وأطرف من هذا كله أن بعضهم كان إذا سرق الإبل خاف أن يتعقبه أصحابها قبل أن يبتعد عنهم بها ، لذلك كان يتمنى أن تنهل الأمطار الغزيرة التى تطمس أثره وأثارها ، حتى يضل أهلها إذا بحثوا عنها ، ولا يعرفوا أين توجه بها ، يقول أبو لطيفة اللص[١] :

يا ربِ يارب العشاءِ والسَّحر   أَقْدِرْ لنا الليلةَ من خَيْرِ القَدَر
قَطْرًا وريحاً قَدْرَ ما يَعْفُو الأَثَر

أما قطع الطرق واعتراض القوافل فتعاطاهما نفر آخر من الصعاليك الأمويين ، وانحصرت مناطق عملهم فى الطرق الممتدة إما من العراق إلى الحجاز ، وإما من العراق إلى اليمامة ، وإما من الشام إلى الحجاز . ومن هؤلاء الصعاليك قطّاع الطرق ، ومعترضى القوافل السمهرى بن بشر العكلى الذى كان يغير على الناس بطريق الكوفة ومكة[٢] ، وأبو النشناش الذى كان يقطع الطريق مابين الشام والحجاز[٣] ، ومالك بن الريب الذى كان ينقض مع عصابته على القوافل بطريق البصرة واليمامة[٤] وكانوا إذا طال عليهم الانتظار ، وامتد بهم التربص يستبشرون الخير بنهيق الحمير لأنه كان يؤذن بأن القوافل قد دنت منهم ، وفى ذلك يقول الأحيمر السعدى[٥] :

نَهَقَ الحمارُ فقلت أَيْمَنُ طَائِرٍ   إِنَّ الحمارَ من التِّجَارِ قَرِيبُ

واستمع إلى سليمان بن عياش اللص يصف طول انتظاره وتربصه بالقوافل قائلا[٦] :

يَقَرُّ لعينى أَن تُرَى بين عصبةٍ   عِراقِيةٍ قد جُزَّ عنها كتابها

(١) مجموعة المعانى ص : ٢١٧ .
(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥١ .
(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ١٧١ .
(٤) الطبرى ٢ : ١٧٨ .
(٥) الشعر والشعراء ص : ٧٨٨ ، والمؤتلف والمختلف ص : ٤٣ .
(٦) معجم البلدان ٢ : ١٨٣ .

وأَن أَسمع الطُّرَّاق يلقون رفقةً مُخَيِّمةً بالسبي ضاعت ركابها
أُتيح لها بالصَّحْن بين عُنَيْزَةٍ وبسيان أَطلاسٌ جَرودٌ ثيابها [١]
ذئابٌ تَعَاوَتْ من سليم وعامر وعبسٍ وما يُلْقَى هناك ذئابها
أَلا بِأَبي أَهل العراق وريحهم إذا فُتِّشَتْ بعد الطِّرادِ عِيَابها [٢]

فهو يتمنى أن ينقض مع غيره من الصعاليك بل من ذئاب العرب من سليم وعامر وعبس على قافلة عراقية بين البصرة ومكة ، وأن يكون أصحابها معسكرين ، وإبلهم تائهة مفقودة ، فإن ذلك أحب شيء إليه ، لأن حقائب التجار العراقيين مغرية لما تحتوى من نفيس المتاع وعظيم الأموال .

واحترف بعضهم الإغارة على الأسواق لنهب مابها من الإبل وروائع التحف الجلدية وغيرها مما كان يحمل إليها ويعرض فيها . فهذا جحدر بن مالك الحنفى يصف كيف كان يختطف الناقة الفتية من حَجْر مدينة اليمامة وأم قراها من صاحبها الذى كان يقدم بها إليها ليبيعها فيها ، وكيف كان يفر بها ويتتبعه صاحبها بعض الوقت حتى يفقد الأمل فى اللحاق به ، ويخاف على نفسه لأنه ليس من الأعراب الأشداء ، بل من أهل القرى الجبناء ، ويزعم أنه لم يكن يسرق إلا لكى يشترى لنفسه الثياب بعد أن تكون ثيابه قد تقطعت وبليت ، يقول [٣] :

وإن امرأً يَعْدُو وحَجْرٌ وراءه وجَوٌّ ولا يَغْزُوهُما لَضَعِيفُ [٤]
إذا حُلَّةٌ أَبليتها ابْتَعتُ حُلَّةً بسَانِيَةٍ طَوْعِ القيادِ عَلِيف [٥]
سَعَى العَبْدِيُّ إِثْرِى سَاعَةً ثم رَدَّه تَذَكُّرُ تَنُّور له ورَغِيف

ويصف بعض اللصوص من بنى أسد كيف أنه كان ينتهز اشتغال التجار

---

(١) الأطلاس هنا : الثياب البالية . عنيزة وسبيان : موضعان .
(٢) العياب : جمع عيبة وهو ما تحفظ فيه الثياب الغالية .
(٣) معجم البلدان ٣ : ١٧٧ .
(٤) جو : اسم لناحية باليمامة .
(٥) السانية : الناقة . عليف : معلوفة معنى بها .

بشراء الإبل من أصحابها بسوق قرح فى وادى القرى ، ويغافلهم ويسرق منهم أحسن نوقهم وعليها رحلها ومتاعها ، يقول[١] :

ولمَّا رَأَيْتُ التَّجْرَ قد عَصبُوا بها مُساومَةً خَفَّت بِهِنَّ يَمِينى[٢]
فأَرْأَيْتُ منها عَنْسة ذاتَ جُلَّةٍ كَسِرٍّ أبى الجَارُودِ وهو بَطِينُ

أما أيمن بن الهماز العقيلى اللص فيصور بدوره كيف كان يسرق أجود البضائع الجلدية وأغلاها من التجار ، وكيف كان يتظاهر بأنه رجل مسكين غريب ، ثم يأخذ فى مساومتهم ، فيتشككون فيه لضعفه وفقره ، ولأن مظهره لا يدل على أنه ممن يقدرون على الشراء ودفع غالى الثمن ، حتى إذا سهوا ولهوا سلبها وفرَّ بها ، يقول[٣] :

ومن يَرَنِىَ يَوْمَ الحَزِيز وسِيرَتِى يقُلْ رجُلٌ نَائِى العشيرة جَانبُ
يقولُ لِىَ الحَضَرىُّ هَلْ أَنْتَ مُشْتَرٍ أَدِيماً نَعَمْ إِنْ أَسْتَطِعْ تَقَاربُ
ظَلِلْتُ أُرَاعِيها بِعَيْنٍ بَصِيرَةٍ وظَلَّ يُرَاعِى الإِنْسَ عند الكواكب
دَعَا وَيْحَهُ الحَضَرِىُّ حينَ اَخْتَطَفْتُهَا أَجَلْ وهو أَنَّ الحضرحَضْرُ مُحارب

أما عبيد الله بن الحر الجعفى فأحجم عن هذه الأعمال ولم يجعل هَمَّه الإغارة على القبائل ، ولا على القوافل ، ولا على الأسواق ، ولم يقطع الطرق ولا روَّع الناس ولا اعتدى عليهم ، وإنما جعل قصده الإغارة على بيوت مال الدولة فى كثير من النواحى ، وأخذ يستولى على ما بها من الأموال ويوزعه على أفراد جيشه من الصعاليك . وخاض فى سبيل ذلك حروباً ضارية ضد عمال الدولة وقوادهم فى ولاية عبيد الله بن زياد على العراق . ثم تحول إلى مصارعة جيش المختار الثقفى الذى أرسله إليه بعد أن سيطر على الكوفة ، للقضاء عليه ولإنقاذ أموال المناطق التى بايعت له منه ، ولكنه هزم جيشه شر هزيمة[٤]. ولما قتل المختار وبايع أهل

---

(١) معجم البلدان ٧ : ٤٩ .
(٢) عصبوا بها : عنوا بفحصها .
(٣) معجم البلدان ٣ : ٢٧٣ .
(٤) الطبرى ٢ : ٧٦٧ .

العراق لعبد الله بن الزبير ، وولى أخاه مصعباً على العراق اصطدم ابن الحر بجيوشه المتوالية وقاتلها قتالا عنيفاً وفتك بها فتكاً ذريعاً[١].

وكان فى أثناء اصطدامه بهذه الجيوش المختلفة مشغولا بصعاليكه وأفراسهم وتجهيزها وتهيئتها للغزو والنهب ، وفى ذلك يقول[٢]:

أَقُولُ لِفِتْيَانِ الصَّعَالِيكِ أَسْرِجُوا　　عَنَاجِيجَ أَدْنَى سَيْرِهِنَّ وَجِيفُ[٣]

وأغار على بلاد كثيرة ، واغتصب ما بخزائنها من أموال مؤيداً بصعاليكه الذين لم يكن يتعالى عليهم ، ولا يَخُصُّ نفسه بنصيب أكثر منهم ، فقد أغار على الأنبار وأخذ ما كان فى بيت مالها وقسمه بين أصحابه[٤] ، وغزا كَسْكَر وقتل عاملها وسلب ما ببيت مالها وفرقه بين رفاقه[٥] ، وعلى هذا النحو صنع بِنِفَّر ، إذ توجه إليها واحتجز خراجها ووزعه على إخوانه[٦] . ثم أغار على شَهْرَزُور ، واستولى على ما كان فى بيت مالها ، ونازل عاملها فهزمه وظفر به وضرب عنقه[٧].

ولعل فى كل ما قدمنا ما يوضح كيف أن الصعاليك الأمويين على تنوع طوائفهم ، وعلى اختلاف الأسباب التى أدت إلى تصعلكهم قد شاكلوا الصعاليك الجاهليين فى أعمالهم ، فقد آمنوا بالقوة شريعة ، وبالغزو وسيلة ، وبالنهب غاية . وتوزعتهم عصابات عديدة ، وأقامت كل عصابة منهم بمنطقة من المناطق أو بطريق من الطرق ، وتخصصت فى نوع معين من الإغارة ، إذ كان منهم من يسطو على إبل القبائل ، وكان منهم من يقطع السبل وينهب القوافل ، وكان منهم من يغزو الأسواق ، وكان عبيد الله بن الحر الجعفى يغير على أموال الدولة .

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩٣ .
(٢) المصدر نفسه ص : ٢٩٣ .
(٣) العناجيج : الخيل الكريمة .
(٤) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩٢ .
(٥) المصدر نفسه ص : ٢٩٣ .
(٦) المصدر نفسه ص : ٢٩٥ .
(٧) المصدر نفسه ص : ٢٩٦

٣

غاياتهم وأهدافهم

شغلت بال الشعراء الصعاليك الأمويين مجموعة من المشاكل أشهرها مشكلة الفقر والغنى ، وقضية العصبية القبلية ، ومسألة الثورة على الدولة وتقويض أركانها . ولكن مشكلة الفقر والغنى هى المسألة الوحيدة التى أحسوها وقاسوا جميعاً منها وكانت لهم أراؤهم الصريحة فيها ووسائلهم الواضحة إلى التغلب عليها . فقد لاحظوا ملاحظة دقيقة أن الثروة لم تكن مقسومة قسمة عادلة فى مجتمعهم ، وإنما كانت الأموال مكدسة عند نفر من الناس ، بينما كان غيرهم فقراء معوزين ، ولاحظوا أيضاً أن الدولة لم تكن تعمل على توفير أسباب الحياة الكريمة للفقراء والمحتاجين مما كانت تستوفيه من أموال الصدقات والخراج ، وإنما كانت تهتم بجمعها ، وتحتفظ بها فى خزائنها ، وتتحيز بل تجور فى إنفاقها ، لأنها كانت تجرى منها على أعوانها وأشياعها وتحجبها عمن نصب نفسه لانتقادها ومناهضتها .

وعبروا عن هذه المساوئ والمفاسد الاقتصادية والاجتماعية أوضح تعبير ، وصوروها أصدق تصوير . فهذا الأحيمر السعدى يهتف محتجاً على النظام الاقتصادى المختل ، وينادى بالعدالة الاجتماعية ، إذ رأى نفسه يائساً لا ناقة له ولا بعير ، بينما غيره يملك الإبل الكثيرة ، يقول[1] :

وإنِّى لأَستحِيى من الله أَن أُرَى ... أَطُوفُ بِحَبْلٍ لَيْسَ فيه بَعِير
وأَنْ أَسْأَلَ المرءَ اللَّئيم بَعِيرَه ... وبُعْرَانُ رَبِّى فى البلاد كثير

أما مالك بن الريب فيسجل على الدولة أنها تستخرج الأموال من الشعب

(١) الوحشيات ص : ٣٤ ، والشعروالشعراء ص : ٧٧٨ ، وعيون الأخبار ١ : ٢٣٧ ، والمؤتلف والمختلف ص : ٤٣ ، وسمط اللآلى ص : ١٩٦ .

وتبخل عليه بماله من نصيب مفروض فيها ، يقول[١] :

أَحَقًّا على السُّلطان أَمّا الذى له فَيُعْطَى وأَمّا ما عليه فَيَمْنَعُ

ومع أن أكثرهم لم يظهرونا على ما كانوا يقاسونه من الضياع والجوع نتيجة لهذا الاختـــلال الاقتصادى ، ونتيجة لتخلى قبائلهم عنهم ، ومطاردة الدولة لهم إلا ما كان من عبيـــد بن أيوب الذى حدثنا من دون أصحابه بما كان يلقى من الفاقة والحرمان ، حتى كان يأكل جذور شجر الحنظل المر ، وأزهار أعشاب الصحراء التى كان يتجرعها غصصاً مُهلِكةً[٢] :

أَلا يا ظِباءَ الوَحْش لا تُشْهِرُنَّنِى وأَخْفِينَنِى إِذْ كُنْتُ فِيكُنَّ خَافيا

أَكَلْتُ عُروقَ الشَّرْىِ مَعْكُنَّ وَالْتَوَى بِحَلْقِىَ نَوْرُ القَفْرِ حَتَّى وَرَانيا[٣]

وحتى كان يأكل لحم ما يصيده من حيوان الصحراء نيًّا لأنه لم يكن يقدر على الصبر بعض الوقت لنصب الأثافى و إقامة القدر عليها و إشعال النار تحتها لإنضاجها[٤] :

إذا صَادَ صَيْدًا لَفَّه بِضِرامِهِ وشِيكاً ولم يَنْظر لنصب المراجل[٥]

ومع أن أغلبهم أضفوا على أنفسهم الصفات الحميدة من النبل والعفة والصبر على الشدائد واحتمال الجوع على نحو ما يتضح فى قول عبيد بن أيوب[٦] :

رأَتْ خَلَقَ الأَدْرَاسِ أَشْعَثَ شَاحِباً على الجَدْبِ بَسَّاماً كريمَ الشَّمَائِلِ[٧]

وعلى نحو ما يتضح فى أبيات القتال الكلابى البائية التى استشهدنا بها فى موطن سابق[٨]، فإنهم أظهرونا على ما كانوا يعانونه من العقد النفسية لفقرهم وغنى غيرهم .

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٤ .

(٢) الحيوان ٦ : ١٦٧ ، مجموعة المعانى ص : ١٣١ .

(٣) الشرى . الحنظل . وراه : من الورى وهو الشرق القاتل .

(٤) الحيوان ٦ : ١٦٧ .

(٥) ينظر : يتمهل .

(٦) الحيوان ٦ : ١٦٧ .

(٧) الأدراس : الثياب البالية .

(٨) ديوانه ص : ١ .

فأبو النشناش التميمى يرى أن الإملاق والإخفاق فى بلوغ المراد من الغنى أسوأ ما يمكن أن يبتلى به إنسان[١] :

فلَمْ أَرَ مِثْل الفَقْرِ ضَاجَعَه الفَتَى ولا كَسَوادِ الليل أَخْفَقَ طَالِبُهْ

ويذهب عبيد الله بن الحر الجعفى — كما ذهب عروة بن الورد أبو الصعاليك من قبله [٢] إلى أن الفقر يصيب الإنسان بالخمول والذل ، أما الثراء فيكتب لصاحبه الجاه والمجد [٣] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفَقْرَ يُزْرى بأَهْلِهِ وأَنَّ الغنَى فيه العُلَى والتَّجَمُّل

ومن أجل ذلك آمنوا بأن أصلح وسيلة إلى الفوز بالغنى والتمتع بحسناته والانعتاق من الفقر والتخلص من سيئاته هى الغزو والاغتصاب والانتهاب . واستقر فى أعماقهم أن لا خير فى حياة بائسة خاملة ، وإنما الخير كل الخير فى الحياة العزيزة العاملة ، واستقر فى أعماقهم كذلك أنه لا سبيل إلى نيل ما يريدون من الثروة والمكانة الممتازة إلا بركوب الأخطار واقتحام المهالك ، مسلّمين بأن كأس المنية لابد من أن تدور على كل إنسان ، وأنه لن يتخلف عن تجرعها أى إنسان ، فلكل أجله وساعته ، وخير له أن يقتل بشرف وهو يسعى لفرض وجوده وإصلاح حاله من أن يلقى حتفه وهو قاعد ذليل . وفى ذلك يقول أبو النشناش التميمى[٤] :

فَعِشْ مُعْذِرًا أَوْمُتْ كريماً فإنَّنى أَرى المَوْتَ لا يُبْقِى عَلَى من يُطالبُهْ

ومن أجل ذلك أيضاً انفصلوا عن مجتمعهم ، وثاروا على النظم القبلية والحكومية لأنها لم تحقق لهم ما يبتغون من العدل والمساواة بغيرهم من الأغنياء ، ومضوا إلى الصحراء ، وأخذوا ينفذون من القوانين والقواعد ما يكفل لهم الحياة التى يريدونها : حياة الغنى والثراء ، والأنفة والإباء ، معتمدين على القوة لبلوغ مطالبهم وآمالهم .

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب والوثائق القومية) ١٢ : ١٧٢ ، شرح حماسة أبى تمام للمرزوق ١ : ٣٢٠ .

(٢) ديوانه ص : ٤٥ .

(٣) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩٦ .

(٤) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ١٧٢ .

ولعلنا لا نخطئ إذا زعمنا بعد ذلك أن أول أهدافهم وأهمها كان تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس سواء فى الثروة أو المركز دون تأثر بمكانتهم وحظوظهم فى الحياة . ولا تظنن أننا نرجم بالغيب فيما ذهبنا إليه ، فقد كانوا يحتكمون إلى هذه المثل والقيم فى حياتهم ، ومع أن الكثرة المطلقة من أخبارهم وأشعارهم لم تصل إلينا لضياع المصادر التى أفردها القدماء لها ، فان النزر اليسير الذى بقى منها يدل على ذلك بعض الدلالة ، ويرجحه بعض الترجيح . فهذا عبيد الله بن الحر الجعفى يصف صعاليكه وما كانوا يأخذون به أنفسهم من التلاحم والتعاون والمساواة ، وما كانوا يتحلـّون به من الجلال والوقار والتسامى والتعالى[1] :

وللليل أَبناء وللصُّبحِ إخوةٌ   وأبناءُ ليلى مَعْشرى وقَبيلى

إذا نَطَقُوا لم يُسْمَعِ اللَّغْوُ بَيْنَهم   وإن غَنِمُوا لم يَفْرَحُوا بِجَزيلِ

بل إنه ليحدثنا فى كثير من الوضوح عن سياستهم العادلة ، وما كانت تقوم عليه من الإنصاف المطلق ، والتساوى فى الحظوظ التى كانت تفرض لكل منهم فيما كانوا ينهبونه من الأموال ، ويستولون عليه من الأسلاب[2] :

إذا ما غنِمْنا مَغْنَماً كان قِسْمَةً   ولم نَتَّبعْ رَأْىَ الشَّحِيح المُتَارِك

أَقُولُ لَهُمْ كِيلُو بكمَّةِ بَعْضِكُمْ   ولا تَجْعَلُونى فى الندى كابْنِ مَالِك[3]

وتلك هى المشكلة الأولى التى أثرت فى حياة الصعاليك الأمويين تأثيراً سيئاً ، وعانوا من نتائجها معاناة شديدة ، كما كانت لهم أنظارهم فيها وحلولهم لها ، وهى حلول أساسها التمرد والثورة ، ووسيلتها الإغارة والغزو ، وهدفها السلب والنهب . وثانيـــة المشاكل التى شغلوا بها ، هى مشكلة العصبية القبلية . ومن الحق أنها لم تستحوذ على اهتمامهم جميعا ، فقد شغل بهـــا خلعاؤهم وجناتهم ، أولئك الذين كان من رأيهم أن القبيلة ينبغى لها أن تحافظ على أبنائها

(١) حماسة ابن الشجرى ص : ٢٩ .

(٣) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩٢ .

(٣) ابن مالك : إبراهيم بن الأشتر .

وتنصرهم ظالمين أو مظلومين لا أن تتخلى عنهم ، وتتبرأ منهم ، وتتركهم يواجهون مصيرهم بمفردهم ، لسبب بسيط ، وهو أنهم كانوا يؤمنون بالعصبية القبلية وبالحياة الجاهلية وما طوى فيها من تعصب واعتداد بالأصول والأنساب ، ومن فوضى وتنازع وتصارع ، ومن اعتماد على القوة والسيف ، ومن تمجد بالبطولة والشجاعة والبطش والفتك ، ومن تمسك بالأخذ بالثأر . واستشهدنا فى صدر هذا الفصل بأبيات للسمهرى بن بشر العكلى والقتّال الكلابى يوبّخ فيها كل منهما عشيرته أعنف التوبيخ لتوانيها عن مساعدته ، ويحضها أشد الحض على مساندته فى محنته. بل لقد ضاق كل منهما بعشيرته وسخط عليها وتمنى لو أنه لم يكن منها .

ولا يقف إيمانهم بالقيم الجاهلية عند اللوم والتعنيف والضيق والحقد على قبائلهم إذا هى تحللت منهم ، بل يتعداها إلى حد المطالبة لها بأن تهب للثأر لهم ممن أساءوا إليهم ، على شاكلة مانرى فى قول السمهرى بن بشر العكلى وهو سجين [١] :

فَمَنْ مُبْلغٍ عنى خَلِيلَىَ مالكاً رِسَالَةَ مَشْدُودِ الوِثَاقِ غَرِيب

وَمَنْ مُبْلغٍ حَزْماً وَتَيماً وَمَالِكاً وأَرْبَابَ حامى الحَفْرِ رَهْطَ شبيب

لِيُبْلُوا التى قَالَتْ بِصَحْراءِ مَنْعِجٍ أَلِى الشِّرْكُ يا ابْنَىْ فائِدِ بنِ حَبِيب [٢]

لِتَضْرِبَ فى لَحْمى بسَهْمٍ ولم يَكُنْ لها فى سِهَامِ المُسْلِمِينَ نَصِيبُ

فهو يحرض أخاه وزعماء قبيلته وهو محبوس ينتظر العقاب على الانتقام ممن دلت عليه الشرطة وهو مختفٍ عنهم فى الصحراء ، لأن المكافأة الضخمة التى خصصها عبد الملك بن مروان لمن يساعد فى القبض عليه قد أغرتها ، فاجتهدت فى البحث عنه حتى وجدته وأرشدتهم إليه، فوقع فى قبضتهم وسيق إلى الحبس، كما يُحمّلهم مسئولية قتلها والثأر له منها .

وكانوا كلما تمادت قبائلهم فى إهمالها لهم وتغافلها عنهم يزدادون حنقاً وغيظاً عليها ، ولا يقنعون بالشماتة بها إذا غلبها غالب ، أو نكل بها منكّل ، بل يتحولون

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥٤ .

(٢) انظر خبر قبض ابنى فائد وأختهما على السمهرى فى الأغانى ٢١ : ٥٣ .

إلى هجائها أقذع الهجاء . ومن ذلك ما يروى من أن القتال الكلابى رمى زوج ابنته أم قيس بخادمها ، لأنه أغارها وخطب عليها . فجاء رَدّاد زوج ابنته بالشهود على قذفه إياه بالأمة ، فأقيم القتال ليُحَدّ ، فلم تنتصر له قبيلته ، لبغضها له ، وزهدها عنه ، وقامت عشيرة رَدّاد فاستوهبت منه حَدّه فوهبه لها (١) ، فاستشاط القتال غضباً وأنشأ يهجو عشيرته هجاء لا ذعاً منه قوله (٢) :

إذا ما لَقِيتُمْ رَاكبًا مُتَعَمِّما فَقُولوا له : ما الرَّاكب المُتَعَمِّمُ
فإنْ يَكُ من كَعْبِ بنِ عَبْدٍ فإنَّهُ لَئِيمُ المُحَيّا حَالِكُ اللَّوْن أَدْهَمُ
دَعَوْتُ أَبا كَعْبٍ رَبيعةَ دَعْوَةً وَفَوْقى غَواشى المَوْت تُنْحى وتَنْجُم (٣)
ولم أَكُ أَدْرى أَنّه ثُكْلُ أُمّه إذا قيل للأَحْرارِ فى الكُرْبَة اقْدُمُوا
فلو كنتَ من قوم كرامٍ أَعِزَّةٍ لَحَامَيْتَ عَنّى حينَ أَحْمَى وأَضْرَم (٤)
دعوتُ فكم أَسَمَعْت من كل مُؤْدَنٍ قَبيحِ المُحَيّا شَانَهُ الوَجْهُ والفَمُ (٥)
ولكِنَّما قومى قُمَاشَةُ حَاطبٍ يُجَمِّعُها بالكفِّ والليلُ مظلمُ (٦)

فقد استغاث بقومه ساعة المحنة والبلاء فلم يهبوا لإغاثته ولا أسرعوا للاستشفاع له من سياط الموت التى كانت ستنزل به ، مما جعله يَصِمُ قبيلته وسادتها باللؤم والجبن ، وينفيهم عن المروءة ويجردهم من صفاتها الحميدة من الأنفة والحمية والنجدة ؛ ومما جعله يصفهم بأقبح الصفات من قصر فى أعضاء الجسم وتشويه فى الخلقة مما لا يتوفر إلا فى أخس الرجال وأبعدهم عن الشجاعة والإباء .

ولم تُنْصِتْ قبائلهم إليهم ولا أخذت نفسها بآرائهم ، بل ازورت عنهم وأصمّت آذانها عن سماع أقوالهم ، فبرموا بها ونقموا عليها ، وانتظروا الفرص التى تُقْهَرُ فيها .

---

(١) سمط اللآلى ص : ٨٤٦ .
(٢) ديوانه ص : ٨٥ . وانظر الأغانى ٢٠ : ١٦٣ .
(٣) الغواشى : الدواهى . تنحى : تضرب وتطعن . تنجم : تظهر .
(٤) حمى : أخذته الغيرة . ضرم : احتد غضبا .
(٥) المؤدن : قصير العنق ضيق المنكبين مع قصر الألواح واليدين .
(٦) القماشة : فتات الأشياء . يطلق على على أزذال الناس .

وكانوا إذا تعرضت لمكروه يشمتون بها ويشفون حقدهم عليها ، على نحو ما نرى في قول الأحيمر السعدى الصعلوك الخليع [١] :

نُبِّئْتُ أَنَّ الحيَّ سعدًا تَخَاذَلُوا حِمَاهُمْ وَهُمْ لو يَعْصِبُونَ كَثِيرُ
أَطَاعُوا لِفِتْيَانِ الصَّبَاحِ لِئامِهِمْ فَذُوقُوا هَوَانَ الحَرْبِ حيث تدور

إذ كان من رأيه أن لاتتفرق قبيلته ولا تولِّى أمورها وقيادتها ضعافها حتى تحمى أرضها وترد الغُزَاة عنها . غير أنها رفضت الاستجابة لندائه والعمل بنصيحته ، فتمزقت وحدتها ، وتزعّمها طغامـُها ، وكان ذلك سبب انهزامها أمام أعدائهـا الذين غزوا بلادها وفتكوا بها . ومن أجل ذلك فإنه سعيد بما أصابها ، مسرور لما لحق بها من الهزيمة والخزى والعار .

وإلى مثل ذلك يذهب عبيد بن أيوب الذى ينتمى إلى نفس قبيلة الأحيمر السعدى ، إذ يرى أن استكانة قبيلتهم ومذلتها وهوانها تعود إلى تمزقها وجبن أبنائها وانقسامهم وتقاعسهم إزاء الملمات والكوارث ، يقول [٢] :

إذا ما أَرَادَ اللهُ ذُلَّ قبيلةٍ رَمَاها بِتَشْتِيتِ الهَوَى والتَّخاذل
وأول عَجْزِ القَوْمِ عَمَّا يَنُوبُهُمْ تَدَافُعُهُمْ عَنْهُ وطُولُ التَّوَاكُل

ومن تتمة الحديث عن مظاهر الروح الجاهلية عندهم أنهم لم يكونوا يؤمنون بحل المنازعات القبلية بالوسائل السلمية ، كأن يأخذ أهل القتيل دية قتيلهم ، وإنما كانوا يفضلون الأخذ بثأر قتلاهم . ومن أوضح ما يدل على ذلك أن جدة القتّال الكلابى كانت من بنى العجلان ، وأن بنى جعفر قتلوا رجلا منهم ، فأخذ يحرِّض أخواله للأخذ بثأرهم ، غير أنهم قبلوا الدية فعيرهم بذلك قائلا [٣] :

لعمرى لَحَيٌّ من عقيلٍ لَقِيتُهُم بِخَطْمَةَ أَو لَاقَيْتُهُمْ بالمَنَاسِك [٤]
أَحَبُّ إلى نَفْسِي وَأَمْلَحُ عندها من السَّروات آل قَيْسِ بن مالك [٥]

(١) معجم البلدان ١ : ٧٥
(٢) مجموعة المعانى ص : ٢٦ .
(٣) الأغانى ٢٠ : ١٦١ ، وديوانه ص : ٧١ .
(٤) خطمة : جبل .
(٥) السروات : الأشراف .

إذا ما لَقِيتُمْ عُصْبَةً جَعْفَرِيَّةً كَرِهْتُمْ بَنِى اللكْعَاءِ وَقْعَ السَّنابك[١]
فَلَسْتُمْ بِأَخْوَالى فلا تصلبَنَّنى ولكِنَّها أُمِّى لإِحْدى العَوَاتِك[٢]
قُتِلْتُمْ فلمَّا أن طَلَبْتُم عَقَلْتُمُ كذلك يُؤْتى بالذَّلِيلِ كذلك[٣]

وأى فرق بين هـذه العصبية والدعوة إلى سفك الدماء مما ينـادى به القتال وبين العصبية الجاهلية وما قامت عليه من الحمية ؟ إنه يتبرأ من أخواله من بنى العجلان لأنهم آثروا السلم على الحرب ، وارتضوا الدية على الثأر ، ويرميهم لذلك بالجبن والتخاذل واستساغة العار .

ودفعهم إيمانهم بالعصبية القبلية ومثلها إلى الإشادة بالعشائر التى ظلت تعيش معيشة أقرب إلى الجاهلية وقيمها منها إلى حياة الإسلام وما قامت عليه من التسامح والصفح ، وفضِّ المنازعات بالتفاهم والطرق السامية . ويكثر القتَّال الكلابى خاصة من التنويه ببنى فزارة ، لأنه كان يرى فيهم المثل الأعلى فى البطولة والفروسية ، ولأنهم كانوا يحكِّمُون السيف بينهم وبين خصومهم ولا يؤمنون بالدية والصلح . وقد أشاد بهم غير مرة[٤] ، ومن ذلك قوله يمجِّدهم ويثنى عليهم[٥]:

سَقَى الله حَيًّا من فَزَارَةَ دَارُهُمْ بِسَبِّى كِرَاماً حَيْثُ أَمْسُوا وأَصْبَحُوا[٦]
هُمُ أَدْرَكُوا فى عَبْدِ وُدٍّ دِماءَهم غَداةَ بَنَاتِ القَيْنِ والخَيْلُ جُنَّحُ[٧]
كأَن الرِّجَالَ الطَّالِبينَ تِرَاتِهِمْ أُسودٌ على أَلْبادها فَهْىَ تَمْتَح[٨]

وثالثة المسائل التى عنى بها الصعاليك الأمويون هى مسألة التمرد على الدولة ،

(١) اللكعاء : الحمقاء .
(٢) العواتك : من بنى سليم .
(٣) عقل : قبل الدية .
(٤) ديوانه ص : ٥٥ .
(٥) ديوانه ص : ٣٩ .
(٦) سبى : ماء لبنى سليم .
(٧) بنات القين : يوم أخذت فيه فزارة ثأرها من قبيلة كلب فى أيام عبد الملك بن مروان .
(٨) التراث : الثارات . الألباد : ما يوضع على ظهور الخيل تحت السروج . تمتح : تراوح أيديها فى الجرى .

ومحاولة اقتطاع أجزاء منها لإقامة حكومة الصعاليك فيها. وعلى نحو ما انفرد الصعاليك الخلعاء والجناة بتبنى قضية العصبية القبلية ، والإيمان بأهدافها والسعى لها ، لأنها كانت ألصق بحياتهم وأشد تأثيراً عليهم ، اعتقد الصعاليك السياسيون بأن أهم أهدافهم هو إيجاد دولة صالحة عادلة . ولذلك فإنهم ناهضوا الأمويين وقاتلوهم قتالاً عنيفاً . ورددنا مراراً وتكراراً أن أبا حردبة المازنى وعبد الله بن الحجاج الثعلبى وعبيد الله بن الحر الجعفى هم الذين يمثلون الصعاليك السياسيين . واستشهدنا لهم بأخبار وأشعار تبين كيف أنهم هددوا خلفاء بنى أميــة وعمالهم ، وكيف أن بعضهم انضم إلى الأحزاب المناوئة لهم ، وشارك فى الثورة عليهم ، وكيف أن بعضهم جعل غايته السيطرة على بعض الكُوَر وقتل ولاتها والاستيلاء على مابخزائنها من الأموال ، وجباية خراجها .

ونضيف إلى ذلك أن الصعاليك السياسيين كانوا من القبائل التى غضب بنو أمية عليها وأبعدوها عن المشاركة فى الحكم ، وخاصة عبد الله بن الحجاج الثعلبى ، فقد كان من قيس عيلان ، أولئك الذين مال الأمويون عنهم منذ مطلع حكمهم ، فنقموا لذلك عليهم وانتهزوا الفرص للانقضاض عليهم لتقويض دعائم دولتهم ، حتى إذا حانت الفرصة لهم بعد موت يزيد بن معاوية ، واضطراب الأمصار ثاروا مع الضحاك بن قيس وحاربوا مروان بن الحكم فى موقعة مرج راهط ، ولكن مروان تمكن من قتل زعيمهم والقضاء عليهم . ولذلك لم يكن من الغريب أن يحقد بعض صعاليك قيس عيلان على بنى أمية ويثوروا ضدهم ، نكاية بهم ، وانتقاماً منهم .

على أن عبيد الله بن الحر الجعفى هو الصعلوك السياسى الوحيد الذى كانت له آماله وأعماله ، مما ميزه عن غيره من الصعاليك السياسيين ؛ ذلك أنه كان طموحاً محباً للرئاسة ، فلما رأى تمزق الأمة واختلافها وتصارع أحزابها على الحكم ، استقر فى نفسه أنه ليس أقل شأناً وخطراً من زعماء الأحزاب الأخرى ، فجمع صعاليكه وكوّن لنفسه حزباً منهم ، وأخذ يغير بهم على ولايات الدولة ويفتك بعمالها ويستولى عليها بعض الوقت ، حتى إذا تضعضع وجوده فى بعضها تحول عنها إلى غيرها وفعل بها ما فعل بسابقتها . ولابد أن نلاحظ أنه لم يكن على وفاق مع سائر الأحزاب المناوئة لبنى أمية ، وإنما كان على خلاف معها ، فقد ناهض حزب الزبيريين ، كما ناهض حزب الشيعة .

ومع أنه كان محبـًّا للزعامة فإنه لم يكن ميالا إلى التعالى على صعاليكه ، وإنما كان يشعرهم بأنه واحد منهم ، وأنه لا فرق بينه وبينهم . ومرّبنا أنه وصف تماسكهم وتعاونهم وكأنما هم إخوة متحابون متعاضدون ، ومرّ بنا أيضاً أنه كان يسوى فى العطاء بينهم ، ولا يميز بين أحد منهم . ومن أجل ذلك كنا نزعم أنه كان يعمل لإقامة دولة الصعاليك التى تتخذ من العدالة والمساواة شعاراً لها ، ويقال إنه لم يكن سيئ الخلق والسلوك بل كان غيوراً لا يأتى القبيح ولا يعاقر الخمر[١] . وكان يجهد للمحافظة على النظام فى البلاد التى يسيطر عليها ، كما كان لا يؤذى الناس ولا ينهب أموالهم ، وإنما كان يستولى على أموال الدولة[٢] وكان يضرب على أيدى من يعيثون فساداً فى البلاد التى طرد عمالها منها واستقام له الأمر فيها ، وكان أهلها ينقادون له ويغتبطون لحرصه على مصلحتهم . فحين نزل بالأنبار وأقام بها أُخبر أن حبشياً يقال له الغداف يقطع الطريق بين عانة والأنبار ويدخل الأنبار فى النهار ويعتدى على أهلها ونسائهم ، ويتوقاه أهلها لخوفهم منه ، فأخذته الحمية والغيرة ، واستوصفه ، وأقسم على أصحابه أن لا يتبعه أحد منهم ، وخرج متوجهاً حتى أتى مكانه وقتله وأخذ سلاحه وفرسه ، ثم رجع إلى الأنبار فاستقبله أهلها بالتكبير والتهليل ، وفى ذلك يقول[٣] :

إنّى رَأَيْتُ بَوادٍ مُقْفِرٍ رَجُلاً ... مِثْلَ الهِزَبْرِ إذا مَا سَاوَرَ البَطَلا
سَايَرْتُهُ سَاعةً ما بى مَخَافَتُهُ ... إلا التَّلَفُّتُ حَوْلى هل أَرَى رَجُلا
دَهْدَهْتُهُ بَيْنَ أَنْهارٍ وأَوْدِيةٍ ... لا يَعْلَمُ الناسُ غيرى عِلْمَ ما فَعَلا

فأنت ترى أن الصعلكة فى المجتمع الأموى لم يتغير مفهومها ومعناها عما كانا عليه فى الجاهلية . فقد ظل الصعاليك الأمويون يشبهون الصعاليك الجاهليين فى فقرهم وإبائهم وترفعهم ، وفى تشردهم وانقطاعهم عن مجتمعهم ، وفى تجردهم للغـارات وسعيهم وراء الغنى . وكل ما هنـاك من فرق أن بعض طوائف الصعاليك الجاهليين قلت فى المجتمـع الأموى ، مثل طائفة الأغربة السود ،

---

(١) الطبرى ٢ : ٧٦٧ .
(٢) الطبرى ٢ : ٧٦٧ .
(٣) المحبر ص : ٢٣١-٢٣٢ .

وأن بعضهم أخذه الخوف واستبد به الذعر مما كان يتوعده به الخلفاء والعمال من العقاب ، واشتد به الحنين إلى الأهل والوطن والأصحاب ، كما أن بعضهم كانت له أهداف اجتماعية وسياسية لم تكن من مطالب الصعاليك الجاهليين ، مثل الدعوة إلى تماسك القبيلة واحتفاظها بكيانها ، لا أن تخاف من السلطان وتذعن للقانون ، وتنسى أصولها وقيمها ، وتفارق حياة الفروسية ، ومثل الدعوة إلى تكوين دولة الصعاليك التي لها قواعدها من العدل والمساواة .

الفصل الثالث

موضوعات أشعارهم وخصائصها

١

موضوعات جديدة

وصف السجون وحياتها :

لعل أهم موضوع جديد تميز به شعر الصعاليك الأمويين من شعر الصعاليك الجاهليين ، هو وصف السجون وحياتها . وإنما جدّ هذا الموضوع على أشعارهم لأن حياتهم اختلفت عن حياة سابقيهم من الصعاليك الجاهليين الذين كانوا يعيشون فى مجتمع قَبَلِىٍّ لا حكومة له ولا سلطان لأحد على أحد فيه. أما الصعاليك الأمويون فعاشوا فى مجتمع تحكمه دولة لها قوانينها وقواعدها ، ولها نفوذها المبسرط على سكانها ومواطنيها ، كما أصبح من واجبها أن تحافظ على الناس وترعى أمورهم ، وتحقق لهم الأمن والطمأنينة فى مختلف أنحاء حياتهم . فهى المسئولة عنهم ، وهى التى كان عليها أن تتعقب كل مفسد ولص وقاتل وأن تبحث عنه ، حتى تعثر عليه ، وتنزل به ما يستحق من العقاب .

ومر بنا أن الصعاليك الأمويين قد احترفوا الإغارة والغزو للسلب والنهب ، معتدين على النـــاس ، وقاطعين السبل ، وغازين الأسواق ، وسالبين أموال الدولة ، ومضطرين فى بعض الأحيان إلى قتل بعض النـــاس أو العمال لإنجـــاح غاراتهم والفوز بغاياتهم . ولذلك عدّتهم الدولة من المفسدين فى الأرض ، والعابثين بالنظام والخارجين على القانون ، وأخذت تطاردهم وتجتهد فى طلبهم ، فارضة المكافآت المغرية لمن يساعد فى القبض عليهم ، حتى إذا ما وقع بقبضتها أحد منهم سامته أشد العذاب والتنكيل .

والناظر فى أخبار الصعاليك الأمويين يرى أن أغلبهم ظفرت الدولة بهم وأودعتهم السجن . وممن قبض عليه منهم وزج فى ظلمات الحبس : مالك بن الريب

التميمى [١] ، وأبو النشناش التميمى [٢] ، وجحدر المحرزى[٣]، وجحدر بن معاوية العكلى[٤]، وجحدر بن مالك الحنفى[٥]، ويعلى الأحول اليشكرى الأزدى[٦] والسمهرى ابن بشر العكلى[٧]، وعطارد بن قران[٨]، وعياش الضَّبى[٩]، وشظاظ الضبى[١٠] والقتَّال الكلابى[١١]، وعبدالله بن الحجاج الثعلبى[١٢]، وعبيد الله بن الحر الجعفى[١٣] ونال كل منهم جزاءه ، إما بالحبس لمدة معلومة ، وإما بالجلد، وإما بالقتل ، كل حسب ذنبه .

وبذلك غايرت حياتهم من هذه الناحية حياة رفاقهم من الصعاليك الجاهليين ، وأنطقهم الحبس بأشعار كثيرة ، تعددت أغراضها ، وتفرعت معانيها ، تصلح — فضلا عن تصويرها لمشاعرهم الخاصة — لأن تكون وثائق تاريخية نتعرف بها على السجون الأموية وأمكنتها ، ووسائل التعذيب فيها ، ومن كانوا يقومون على حراستها ويتولون تعذيب المسجونين بها .

فمن ناحية وصفوا سجونهم وقدمها وأحراسها وأبوابها ، وكيف كانت تشتمل على مسجونين كثيرين اختلفت ذنوبهم، وأُقيموا فيها لا يبرحونها ولا يُخْرَجُون منها. فهذا جحدر بن معاوية العكلى يصور كرهه لسجن الحجاج بالكوفة ، واندراسه واشتماله على مجموعة من المحبوسين كانوا يلقون فيه أعتى أصناف العقاب حتى لكأن النار التى يتوعد الله بها المشركين استمدت لهبها وهولها منه ، كما كانوا لا يفارقونه

---

(١) الشعر والشعراء ص : ٣٥٣ .
(٢) الأغانى (طبعة الساسى دار الكتب) ١٢ : ١٧١ .
(٣) معجم البلدان ٢ : ٣٣٦ .
(٤) مجموعة المعانى ص : ١٣٩ .
(٥) شرح شواهد المغنى ص : ١٣٩ ، وخزانة الأدب ٣ : ٣٤١ .
(٦) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١١١ ، ومعجم البلدان ٥ : ٣٦ ، ٢٤٣ .
(٧) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥٣ .
(٨) معجم البلدان ٤ : ٩٥ .
(٩) المصدر نفسه ص : ١٢٠ .
(١٠) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٩ .
(١٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ : ١٦٣ .
(١٣) الطبرى ٢ : ٧٧١ .

ولا يزايلونه ولا تفتح لهم أبوابه ، يقول[١] :

يا رب أَبْغَضُ بيتٍ عند خالقه   بيتٍ بكُوفَانَ منه أُشْعِلت سَقَر
مثوى تَجَمَّعَ فيه الناسُ كُلُّهم   شَتَّى الأمور فلا وِرْدٌ ولا صَدَر
دار عليها عفاءُ الدهر مُوحِشَةٌ   من كل أُنسٍ وفيها البَدْوَ والحَضَرُ

ومن ناحية ثانية وصفوا قيودهم وأنواعها وألوانها ، وما كانوا يقاسون من الآلام لثقلها وشدِّها على أرجلهم وأيديهم ، وكيف كانت تعضّها عضًّافيشكون ويبكون و يصيحون ويتأوَّهون ، على نحو ما نرى فى قول عطارد بن قران[٢] :

لَيْستْ كليلةِ دَوّارٍ يُؤَرِّقنى   فيها تَـأَوُّه عانٍ من بنى السِّيد
ونحن من عُصْبةٍ عَضَّ الحديدُ بهم   مِنْ مُشْتَكٍ كَبْلَه فيهم ومَصْفُودِ

وهذا عبيد الله بن الحر الجعفى يصور سجنه وبابه المنيع وحارسه القوى ، ونفوره من حياته فيه ، وقيوده السوداء التى كانت مربوطة برجليه ربطاً محكماً كما كانت ضيّقة ضيقاً شديداً حتى كان لا يستطيع التحرك فيها إلا بصعوبة ، يقول[٣] :

مَنْ مُبْلغُ الفتيانِ أَنَّ أَخاهم   أَتَى دُونَه بابٌ شديدٌ وحَاجِبُهْ
بمنزلةٍ ما كان يَرْضَى بمثلها   إذا قامَ عَنَّتْهُ كُبُولٌ تُجاوِبُهْ
على الساقِ فوقَ الكَعْب أَسودُ صامتٌ   شديدٌ يُدانى خَطوَهُ ويُقَارِبُهْ

ومن ناحية ثالثة تحدثوا عن حرّاسهم وظلمهم لهم ، وعنفهم بهم دون رحمة أو شفقة ، وكيف كانوا يحولون بينهم وبين زوارهم ، وصوروا كذلك كيف كانوا يعذبونهم ويضربونهم ، ووسائل التعذيب وأدواته وطرقه ، وآثاره فى أجسامهم ، حتى كانوا لا يخرجون إلا وقد برّح العذاب بها وظهر عليها . ومن خير ما يُمثّل سوء المعاملة التى كانوا يلقونها من الحراس قول القتّال الكلابى[٤] :

---

(١) مجموعة المعانى ص : ١٣٩ ، ومعجم ما استعجم ٤ : ١١٤١ .
(٢) معجم البلدان ٤ : ٩٥ .
(٣) الطبرى ٢ : ٧٧١ .
(٤) ديوانه ص : ٧٥ — ٧٦ .

وكالئُ بابِ السجن ليس بمُنْتَهٍ وكان فراري منه لَيْس بِمُؤْتَلِى(١)
إذا قلت رَفِّهْنِى من السِّجْن ساعةً تَدَارَكْ بها نُعْمَى عَلَىَّ وأَفْضِلِ
يَشُدُّ وَثاقى عَابِساً وَيَتُلُّنِى إلى حَلَقاتٍ فى عمودٍ مُرَمَّل(٢)
أَقولُ له والسيفُ يَعْصِبُ رَأْسَهُ أنا ابنُ أَسماءَ غَيْرَ التَّنَحُّل(٣)

فقد رَجَا حارسه أن يفك قيده ويخرجه من سجنه ولو ساعة واحدة يتنفس فيها الحرية ، ويتخفف مما يقاسي من الضيق . غير أنه لم يستجب لندائه ورجائه ، بل زاد من تضييقه عليه ، إذ أحكم قيده بعنف على رجليه ، وأوثق سلسلته بقوة فى حلقة مربوطة بعمود كان ملطخاً بالدم .

ويحس جحدر المحرزى ألذع الألم لما أصابه من الخزى والهوان وهو محبوس ، فى حين كان غيره من المحبوسين الجبناء يتغنَّون بحبسهم ويعدونه مفخرة لهم . ويتحدث أيضاً عما كان يُصَبُّ عليهم من سياط التعذيب المبرِّح ، حتى ليشبه من يفرج عنه منهم ، ويغادر سجنه بمن شوته النار شيًّا ، وكَوَتْهُ كيًّا ، يقول(٤) :

أَقولُ للصَّحْبِ فى البيضاءِ دُونَكُمُ مَحلَّةٌ سَوَّدت بيضاءَ أقطارى(٥)
مَأْوَى الفُتُوَّة للأنذال مُذْ خُلِقَتْ عِنْدَ الكرام مَحَلُّ الذُّلِ والعار
كأَنَّ ساكِنَها من قَعْرِهَا أَبَدًا لَدَى الخروج كمُنْتَاشٍ من النَّار

ويأسى مالك بن الريب أشد الأسى لما كان يلقى فى حبسه بمكة من البلاء الذى كان ينزله به حارسه ، يقول(٦) :

أَتَلْحَقُ بالرَّيْبِ الرِّفاقُ ومَالِكٌ بمكةَ فى سِجْنٍ يُعَنِّيه راقبه

ويصرخ يعلى الأحول مما كان يُساُمه من شديد العقاب ، ومما كان يجده من

---

(١) ليس بمؤتلٍ : ليس بمقصر .
(٢) يتلُّ : يجر بقسوة وغلظ . مرمل : ملطخ بالدم .
(٣) التنحُّل : الادعاء .
(٤) معجم البلدان ٢ : ٣٣٦ .
(٥) البيضاء : حبس بالبصرة .
(٦) الشعر والشعراء ص ٣٥٣ .

الضيق وهو فى سجنه ، وتتراءى له ذكرياته الماضية يوم أن كان حرًّا طليقاً ، يلهو ويلعب على ماء سجا ، ويوم أن كان جوّالا فى الصحراء لا يخشى أهوالها ، ولا يَضِلُّ فى مجاهلها ، لخبرته الواسعة بها ، يقول[١] :

إلى الله أَشْكُو مَحْبِسى فى مُخَيِّسٍ ... وَقُرْبِ سَجاً يارب حين أَفِيلُ[٢]

وإنّى إذا ما الليلُ أَرْخَى سُتُورَه ... بِمُنْعَرجِ الخلِّ الخَفِىِّ دَليل[٣]

أما جحدر الحنفى فيصف كيف كانوا يعذبون ، إذ كانت أرجلهم توضع فى الفَلَق ، وهى خشبة فيها خروق على قدر سعة الساق ، تدخل أرجل المحبوسين فيها وتكون على نسق واحد ، ثم يضربون ، ويشبه أرجلهم والدماء تسيل منها برقبةٍ أخذ الجزار يجرد لحمها والدماء تنزف منها ، يقول[٤] :

يُغْشَوْن مُقْطَرةً كأَنَّ عَمُودَها ... عُنَقٌ يُعَرِّقُ لَحْمَها الجَزَّار

ومن ناحية رابعة صوروا خوفهم وهلعهم وهم فى حبسهم ، وكيف كانوا إذا فتحت الأبواب عليهم يصابون بالذعر والفزع ، وتشرئب أعناقهم وتتطلع عيونهم لتبصر ما جاء به الحارس إليهم من أنباء أو أوامر ، وفى ذلك يقول جحدر الحنفى وهو محبوس بسجن اليمامة[٥] :

ياصاحبيَّ وبابُ السِّجنِ دُونَكُما ... هل تُؤْنِسانِ بصحراءِ اللِّوَى نارا

لو يُتْبَعُ الحقُّ فيما قدمُنِيتُ به ... أَو يُتْبَع العدلُ ما عُمِّرْتَ دَوَّارا

إذا تَحَرَّكَ بابُ السِّجْنِ قَامَ له ... قَوْمٌ يَمُدُّونَ أَعْنَاقاً وأَبْصَارا

ويرثى السمهرى بن بشر العكلى نفسه رثاء مؤثراً لصاحبته التى طافت عليه وهو نائم فى حبسه ، ورجله مقيدة بقيد أسود ضخم ، مردداً لها أنه لا يخاف من أن تطول الفرقة بينه وبينها ولا أن تترامى المسافة التى تفصله عنها ، لأن لذلك نهاية ، وإنما أشد شىء يخشاه ويرهبه أن ينفذ فيه حكم الإعدام ، وحينئذ يكون الفراق

---

(١) معجم البلدان ٥ : ٣٦ .

(٢) المخيس : السجن . فال : لعب .

(٣) الخل : الطريق النافذ بين الرمال المتراكبة

(٤) معجم البلدان ٤ : ٩٤ .

(٥) معجم البلدان ٤ : ٤٥ .

الذى لا التقاء معه ، فإن كتبت له الحياة فذلك ما يرجوه ويتمناه، وإن قدر عليه الموت فذلك مالا مهرب منه ، يقول[١] :

أَلا طَرَقَتْ لَيْلَى وساقى رهينَةٌ بأَسمرَ مشدودٍ عَلَى ثقيلُ
فما البينُ ياسَلْمَى بأَنْتَشْحطَ النَّوَى ولكن بَيْنًا ما يُرِيدُ عَقِيلُ
فإن أَنْجُ منها أَنْجُ من ذى عظيمةٍ وإنْ تَكُنِ الأُخْرَى فتلك سَبيلُ

ووصفوا من ناحية خامسة تضرُّعهم إلى الله وتمنِّيهم عليه أن ينقذهم مما هم فيه من الشدة والشقاء ، وأن يُنْجِيَهم مما يتَوَجَّسُون من عظيم البلاء، على شاكلة ما نرى فى قول جحدر الحنفى[٢] :

إنى دَعَوْتُك يا إلهَ محمدٍ دعْوَى فأَوَّلُها لِى اسْتِغْفارُ
لِتُجيرَنى من شرٍّ ما أَنا خائفٌ رَبَّ البَرِيَّة لَيْس مِثْلَكَ جَارُ
تَقْضِى ولا يُقْضِى عليك وإنما ربى بِعِلْمكَ تَنْزِلُ الأَقْـدَارُ
كانتْ مَنَازِلُنَا التى كُنَّا بها شَتَّى وأَلَّفَ بَيْنَنا دَوَّارُ
سجنٌ يُلاَقى أَهْلَهُ من خَوْفِه أَزَلًا ويُمْنَعُ مِنْهُم الزُّوَّار[٣]

فقد ضاقت به الحياة بحيث لم يجد من أحد يلجأ إليه ويعوذ به إلا الله سبحانه وتعالى ، لعله يعفو عنه ، ويخلصه مما ينتظره من النهاية السيئة ، كما تحدث أيضاً عن رفاقه من المسجونين الذين سيقوا إلى حبس اليمامة من جهات مختلفة ، واجتمعوا بداخله ، فاستبد بهم الذعر ، وأصبحت حياتهم جحيماً لا يطاق ولا يحتمل لشدة ما سيطر عليهم فيه من الفَرَق ، ولطول ما حيل بينهم وبين أهلهم وزوارهم .

وحين اتصل حبسه وثقل عليه ، واعتلت نفسه وملت ما هى فيه من محنة وشدة استغاث بالله أن يُخْرِجه منه ويسخِّر له صاعقة تهدمه وتقوض أركانه ، وتمحق من شاد بنيانه ، يقول[٤] :

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥٤ .
(٢) معجم البلدان ٤ : ٩٤ .
(٣) الأزل : الشدة .
(٤) معجم البلدان ٤ : ٩٥ .

يارب دَوَّارَ أَنْقِذْ أهلَه عَجِلا وانْقُضْ مَرائِرَه من بعد إبْرَام
ربِّ ارْمِهِ بخرابٍ وَارْمِ بانِيَهُ بصولة من أبى شبلين ضرغام

ومع ذلك فقد كان بعضهم يجاهد نفسه ويَصْبِرها على ما تَلْقَى من الشدة والضيق على نحو ما يتضح فى قول عبيد الله بن الحر الجعفى (١) :

أقول له صَبْرًا عَطِيّ فإنما هو السِّجنُ حتى يَجْعَلَ اللهُ مَخْرَجا
أرى الدَّهْرَ لى يومين يوماً مُطَرَّدًا شريدًا ويوماً فى الملوكِ مُتَوَّجا

وعطية الذى ذكره أحد أصحابه من الصعاليك الذين حبسوا معه فى سجن مصعب ابن الزبير ، وهو يهوِّن عليه الخطب ، فالأيام لا تدوم على حال ، وحسبه حياته الشخصية دليلا على ذلك ، فهو فيها حيناً من الملاحقين ، وحيناً آخر من الملوك المتوَّجين .

ويعنِّف عياش الضبى نفسه ويحمِّلها مسئولية ما آل إليه من الحبس ، فقد أحسنت الظن بأحد أصدقائه وهو مطارد مطلوب ، فأخلف ظنها فيه ، ومشى به إلى الأمير فقبض عليه ، ولولا هذه الخديعة الغادرة لما تمكن أحد من القبض عليه . ومع ذلك فقد سلَّح نفسه بالصبر على هذا الموقف الصعب الذى لا يقوى على احتماله من وشى به ، بل يضعف أمامه ويصاب بالخور ، يقول (٢) :

ألم ترَنى بالدَّير دَيرِ ابن عَامِرٍ زَلَلْتُ وزَلّاتُ الرجالِ كثيرُ
فلولا خَلِيلٌ خَانَنى وأَمِنْتُه وَجدّكَ لم يَقْدِرْ عَلَىَّ أَمِيرُ
فإنِّىَ قد وَطَّنتُ نفسى لما تَرى وقَلْبُكَ يا ابْنَ الطيلسَان يَطِيرُ

ويشيع فى أشعارهم التى فاضت بها قرائحهم وجرت على ألسنتهم وهم فى ظلمات سجونهم حنين لاحد له إلى الانطلاق من الأصفاد ، والفكاك من القيود التى حرمتهم من الحرية والتنقل فى الصحراء ، كما ينزعون نزوعاً قويًّا إلى بلادهم وأوطانهم التى بعدوا عنها ، وإلى أهليهم وصواحبهم . فهذا أبو النشناش التميمى يشبه نفسه

---

(١) الطبرى : ٧٧٩ .

(٢) معجم البلدان ٤ : ١٢٠

وهو مكبَّل بالأغلال لا يتحرك ولا يزايل سجنه ومكانه بعدأن كان طوّافاً فى البلاد بالفرس الذى طالما عدا أسرع عدو وأشده فى حلبات السباق ثم قيد ومنع من العدو يقول[١] :

كأنِّى جَوادٌ ضَمَّهُ القَيْدُ بَعْدَما جَرَى سابِقاً فى حَلْبَةٍ وَرِهَان

ويفيض يعلى الأحول اليشكرى الأزدى فى الحديث عن تشوقه إلى موطنه وهو محبوس فى سجن من سجون مكة ، ويعدد أغلب مواضعه ، ويتشوق أيضاً إلى طبيعته الجميلة ، وما يلوح فى سمائها من بروق وسحب ، وما يصدح على أشجارها من أطيار ، وما يجرى فى أنحائها من أنهار ، وما يتردد فى أرجائها من حيوان ، وما ينتشر فيها من أودية وما ينبت بها من أشجار مختلفة ، ويفضل حياتها على حياة مكة وحيوانها وثمارها ، ويحن كذلك إلى أصحابه وأهله ومجالس سمرهم ولهوهم ، يقول[٢] :

أَرِقتُ لِبَرْقٍ دونه شَدوان يمانٍ وأَهْوَى البَرْقَ كُلَّ يمان

فَبِت لَدَى البَيْتِ الحَرَام أَشِيمُهُ ومطْوَاىَ من شَوْقٍ له أَرِقَان[٣]

إذا قُلْتُ شِيمَاه يقولان والهوى يُصَادِفُ مِنَّا بَعْضَ ما تَرَيَان

جَرَى منه أَطراف الشَّرَى فمشيَّع فأَبيان فالحيَّان من دَمَران

هنالك لو طوَّفتما لَوَجَدْتما صديقاً من اخوانٍ بها وغوان

وعَزْف الحمام الوُرْقِ فى ظِلِّ أَيْكَةٍ وبالحَىِّ ذى الرَّوْدَين عَزْف قيان

فليت القِلاص الأُدْمَ قد وَخَدتْ بنا بوادٍ يمانٍ ذى رُباً ومَجانى

بوادٍ يمان يُنْبتُ السِّدْرَ صَدْرُه وأَسفله بالمَرْخ والشَّبَهان

وليت لنا بالجوز واللَّوْز غَيْلةٌ جَنَاها لنا مِنْ بَطْنِ حَلْيَة جانى[٤]

وليت لَنَا بالدِّيك مُكَّاءَ روضةٍ على فَنَنٍ مِنْ بطن حَلْيَة دَانى

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ : ١٧١ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١١١ .

(٣) المطوى : الطوية . شام : نظر .

(٤) الغيلة ، شجر الأراك وهو رطب .

وقريب من هذه الأبيات التى تمتلئ حزناً وحنيناً أبيات أخرى لجحدر بن مالك الحنفى لا تقل عنها روعة ، ولايقل أساه فيها عن أسى يعلى ، إذ قالها وهو مسجون بحبس الحجاج فى واسط ، وكان ينتظر أن تقطع رقبته . وهو فيها كئيب مبتئس يبكى بكاءً حارًّا ، ويحن حنيناً يكاد يخنقه إلى زوجه أم عمرو التى تؤرقه خيالاتها التى تسرى إليه وتلم به . ويرسل فى ختامها رسالة مع أخوين له إلى أهله الذين إن وصلتهم وعلموا مابها من أنه ينتظر الموت فإن فتيانهم وفتياتهم سيذرفون الدموع عليه بغزارة ، يقول[1] :

أَلَيْسَ اللهُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمرٍو وإيَّانا فَذَاك بنا تَدانِى

بَلَى وتَرَى الهِلالَ كما أَراه ويَعْلُوها النهارُ كما عَلَانى

أَيا أَخَوَىَّ مِنْ جُشَم بن بكْرٍ أَقِلاَّ اللوْمَ إنْ لا تَنْفَعانى

إذا جَاوَزْتُما سَعَفات حجْرٍ وأَوْدِيَةَ اليَمامةِ فانْعيَانى

إلى قَوْمٍ إذا سَمعُوا بِقتْلى بَكَى شُبَّانُهُمْ وَبَكَى الغَوانى

وقُولَا جَحْدَرٌ أَمْسَى رَهِيناً يُحَاذِرُ وَقْعَ مَصْقُولٍ يَمانى

وتكاد تذوب نفس السمهرى بن بشر العكلى حسرة ولوعة لشدة حنينه إلى صاحبته ليلى التى يزوره طيفها وهو بداخل سجنه موثوق الرجل بالقيود . ويتمنى لو جمع القدر بينه وبينها ، وعاشا وماتا معاً ، يقول[2] :

لَقَدْ طَرَقَتْ ليلى وَرِجْلى رَهِينَةٌ فما رَاعنى فى السِّجْنِ إلا لِمَامُها

وكيف تُرَجِّيها وقد حِيلَ دونها وأَقْسَمَ أقوامٌ مَخُوفٌ قَسَامُها

أَلا ليتنا نحيا جميعاً بغبطة وتَبْلَى عظامى حين تَبْلَى عظامُها

وعلى هذا النحو كانت حياة السجون القاسية مؤثرة فيهم ومحركة لعواطفهم ، ومجرية للأشعار على ألسنتهم ، وهى أشعار غنية بالمعانى المتعددة التى أحسوها وهم فى غياهب سجونهم كما أنها ثرية بالصور المتنوعة التى استمدوها من واقع حياتهم ، فمنها ما يتصل بالسجن ووصف أبوابه ورقبائه وقيوده وأدوات الضرب فيه ، ومنها

---

(١) أمالى القالى ١ : ٢٧٧ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢٤ ، وشرح شواهد المغنى ص ١٣٩ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥٤ .

ما يتصل بخوفهم من العذاب وسأمهم للحبس ودعوتهم إلى الله أن ينقذهم من شر ما ينتظرهم ، ومنها ما يتصل بحنينهم إلى الحرية والأهل والأحباب والأوطان ، مما يميز شعرهم من هذه الناحية من شعر الصعاليك الجاهليين .

مدح العمال والخلفاء والمتمردين :

وثانى الموضوعات التى جدت على أشعار الصعاليك الأمويين هو المدح ، مما لم يُعْنَ الصعاليك الجاهليون به، ولا خاضوا فيه ، لأنهم كانوا فى غنى عنه ، ولأن حياتهم لم تجبرهم عليه . على أنهم لم يستفرغوا فيه قسما كبيراً من أشعارهم ، فإنما هى قصائد معدودة اضطرتهم الظروف إلى نظمها ومدح بعض العمال أو الخلفاء أو المتمردين بها . و لم يكن همهم منصبًّا على الفوز بجزيل العطاء منهم ، كما كان الشأن عند الشعراء المداحين لهذا العصر ، فقد كانوا يقدمونها إليهم إما إثباتاً لحسن سـيرتهم وطلباً لرضاهم عنهم ، وإما استعطافاً لهم خوفاً مما قد يوقعونه عليهم من العقاب ، وإما تنويهاً بالعصاة والمتمردين .

وأول ما نقف عنده من مدائحهم هذه الأبيات التى يشيد فيها مسعود بن خرشة التميمى بوالى اليمامة . فإن لها قصة طريفة ، كما كان له من ورائها هدف أطرف ، إذ سرق هو ورفاق له إبلاً لرجل من مالك بن سفيان ، فأتوا بها اليمامة ليبيعوها فى سوقها فاعترضهم واليها ، وكان من بنى أسد ، ثم عُزِل وولى مكانه رجل من بنى عقيل ، وهو يمدحه ويمدح قومه بقوله[1] :

يقول المُرْجِفونَ أَجَاءَ عَهْدٌ كَفَى عَهْدًا بِتَنْفِيذ القِلاصِ
أَتى عهدُ الإمارةِ من عقيل أَغَرُّ الوجه رُكِّب فى النواصى
حُصُونُ بنى عقيلٍ كلُّ عَضْبٍ إذا فَزعوا وسابِغَةُ الدِّلاص[2]
وما الجَاراتُ عِنْدَ المَحْل فيهم ولو كَثُرَ الدَّوَارِجُ بالخِمَاصِ[3]

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ١٦٦ .

(٢) سابغة الدلاص : الدرع التى تغطى معظم الجسم . العَضْب : السيف القاطع .

(٣) الدوارج : الرياح . الخماص : النساء الهزيلات .

وواضح أنه لا يمجده ولا ينوه بعشيرته لينال جوائزه، بل ليتغافل عنه ويسمح له ببيع ما سرق من الإبل .

وإلى مثل ذلك قصد طهمان بن عمرو الكلابى حين مدح عبد الملك بن مروان فقد كان نزل بخمّار ، وشرب عنده ، ثم سرق منه كل أمواله . فاستغاث الخمار ورفع أمره إلى الوليد بن عبد الملك ، فقرر أن يقطع يده ، فأنشأ قطعتين : قطعة مدح بها الوليد [١] وقطعة مدح بها عبدالملك . وهو فى ثانيتهما يستسمح عبد الملك ، ويرجوه ألا يقطع يده، فقد قطع نجدة بن عامر الحنفى الخارجى يده حين سرق منه بعيراً [٢] ، وحرى به أن يعفو هو عنه ويتوجه إلى الخوارج ليقاتلهم ويقضى عليهم ، فإنهم له كارهون ، وعليه ثائرون ، يقول [٣] :

يَدى يا أَميرَ المؤمنين أُعِيذُها بحِقْوَيْكَ أَن تُلْقَى بِمَلْقًى يُهينُها [٤]
ولا خير فى الدنيا وكانت حبيبة إذا ما شمالى زايلَتْهَا يمينُها
وقد جمعتنى وابن مروان حُرَّةٌ كلابِيَّةٌ فرْعٌ كرامٌ غُصُونُها
وإن بِحَجْرٍ والخَضَارِمَ عُصْبَةً حَرُورِيةً حُبْنَا عليك بطُونُها [٥]
إذا شَبَّ منهم ناشئٌ شَبَّ لاعنًا لمروان والملعونُ منهم لَعِينُها [٦]

ولما ضاقت الأرض على عبد الله بن الحجاج الثعلبى ، بعد مقتل عبد الله ابن الزبير الذى شارك معه فى الثورة على عبد الملك بن مروان ، كما ساهم فى الثورة عليه مع عمرو بن سعيد بن العاص ، ومع نجدة بن عامر الحنفى ، وأصبح مطارداً مشرداً ، خائفاً مذعوراً من بطش عبد الملك به ، قرر أنْ يعتذر إليه ، فدخل إلى مجلسه وعاذ به ، وطلب العفو منه ، وأنشد بين يديه قصيدة عينية منها قوله [٧] :

---

(١) ديوانه ص : ٣٥ .
(٢) ديوانه ص : ٤٠ .
(٣) معجم البلدان ٣ : ٤٤٦ ، وديوانه ص : ٨٨ .
(٤) الحقو : الإزار ، وعاذ بحقوه : استجار به .
(٥) حبنا : فاسدة . الخضارم : واد باليمامة .
(٦) اللعين : اللاعن .
(٧) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ : ١٥٩ .

أَبْلِغْ أَميرَ المؤمنين فإنني مما لَقِيتُ من الحوادث مُوجَعُ
مَنَعَ القَرارَ فَجِئْتُ نَحْوَكَ هارِباً جَيْشٌ يَجُرُّ ومِقْنَبٌ يَتَلَمَّعُ[1]
إنَّ البِلادَ عليَّ وهي عَرِيضَةٌ وَعُرَتْ مذاهِبُها وسُدَّ المطلع
كنا تَنَحَّلْنَا البصائرَ مَرَّةً وإليك إذ عَمِيَ البصائرُ نَرْجع[2]

فعنَّفه وصفح عنه .

أما القتَّال الكلابى فمدح عبد الله بن حنظلة الكلابى لا أملا فى نواله ، وإنما استحساناً لشجاعته وقوته ، وإعجاباً بموقفه الصلب من رجال الحكومة ، وقهره لهم وتغلبه عليهم ، فقد امتنع على سعاة الصدقات ، ورفض أن يدفع إليهم الزكاة . وكأنما وجد فى تمرده عليهم ما يرضى نزعته من الفتك والخروج على النظام ، فنَوَّه به فى قصيدة يقول فيها[3] :

سَبَق ابنُ حنظلةَ السُّعاةَ بِسَعْيِهِ للغَايَةِ القُصْوَى سَريعاً وادِعا
عَضَّتْ بعبد الله إذ عَضَّت به عَضَّتْ بعبد الله سَيْفاً قاطعاً[4]

وهذا هو كل ما عثرنا عليه من أمداحهم ، وهى أمداح قليلة ، كما أنها متصلة بحياتهم ، إذ لم يكن هدفهم منها الحصول على سَنِيّ الهبات والصلات ، بل كانوا يبتغون منها صرف العمال عن مراقبتهم ، أو استشفاع الخلفاء ، أو تمجيد المتمردين من أمثالهم .

الحنين إلى الاستقرار :

ويلقانا فى أشعارهم حنين زائد ونزوع فياض إلى الاستقرار ومفارقة حياة التشرد والمطاردة ، واحتراف اللصوصية ، والبعد عن صاحباتهم وأصدقائهم وأهليهم وأوطانهم . وهى مشاعر لم يستطيعوا كتمها ولا إخفاءها على الرغم من وصفهم لأنفسهم

---

(١) المقنب : جماعة الخيل .
(٢) تنحل : ادعى .
(٣) ديوانه ص : ٦٩ .
(٤) عضت به : جربته .

بالقوة والصبر وشدة الاحتمال ، وعلى الرغم من تصويرهم حبهم للصحراء ومعرفتهم لها واستئناسهم بحيوانها ، واستساغتهم لحياتها الصعبة القاسية . وهى مشاعر لم تخامر نفوس الصعاليك الجاهليين ولا خطرت ببال أحد منهم ، وكأنما كانوا أشد صبراً وأكثر احتمالا منهم . أما هم فلا يكاد يخلو شعر أحدهم من هذه المعانى ، وربما كانت حياتهم فى مطلع شبابهم ، وما ألفوا من الاستقرار والهدوء ، وما كان لهم من صلات مع محبوباتهم ، وما كان يشدهم من المودة والمحبة إلى أزواجهم وأبنائهم من الأسباب المباشرة التى جعلت مثل هذه المشاعر والأحاسيس تطغى على نفوسهم وتظهر بوضوح فى أشعارهم .

فهذا مالك بن الريب قد أقسم أن يترك حياة التلصص ، كما آلى على نفسه أن ينفصل عن أصدقائه من اللصوص من أمثال أبى حردبة المازنى وغيره ، أولئك الذين سلخ شطراً من عمره يقطع الطريق معهم ، مبتعداً عن وطنه ، ومغترباً عن أهله . وإنما حمله على اتخاذ هذا القرار الصارم ما أحس من ملل لحياة التصعلك ، وما وجد من شوق إلى زوجه التى أخذ ينزع إلى الرجوع إليها لكى يعيش فى هدوء معها ، فقد طال به الابتعاد عنها ، حتى أخذ طيفها يسرى إليه ويلمّ به مذكراً له بحق الزوجية عليه ، يقول[١] :

عَلَيَّ دماءُ البُدْن إن لم تفارقى ... أبا حَرْدَبٍ يَوْماً وأَصحابَ حَرْدَب[٢]

سَرَتْ فى دُجَا لَيْلٍ فأَصْبَحَ دُونها ... مَفَاوِزُ حُمْرَانِ الشُّرَيْفِ فَغُرَّب[٣]

تُطالِعُ من وادى الكلاب كأَنَّها ... وقد أَنْجَدَتْ منه عَقيلةُ رَبْرب

ويأسف فى أبيات أخرى ألذع الأسف ، ويتحسر أشد التحسر لمزايلته بلاد قومه ، ومفارقته صاحبته ليلى ، بل إن الألم ليعتصر نفسه اعتصاراً حين يتذكر فتيان قومه وفتياتهم وهم يسرحون ويمرحون فى ديارهم ، ويتنقلون فى أنحائها ويقطفون أزهار أعشابها ، بينما هو مشرد عنهم ، بعيد منهم ، لا يشاركهم فى حياتهم ، يقول[٤] :

---

(١) معجم البلدان ٣ : ١٣٨ .

(٢) البدن : الأضحية تهدى إلى البيت العتيق وتنحر بمكة .

(٣) حمران : ماء فى ديار الرباب ، والشريف : ماء بنجد ، وغرب : جبل دون الشام فى ديار بنى كلب .

(٤) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٤ .

رأَيْتُ وقَدْ أَتَى نَجْرانُ دونى   لِلَيْلَى بالغُمَيِّم ضَوْءَ نار[١]
وتَصْطادُ القُلوب عَلَى مَطاهَا   بلا جَعْدِ القُرُون ولا قصار[٢]
وتَبْسِمُ عن نَقِيٍّ اللَّوْنِ عَذْبٍ   كما شيفَ الأَقاحى بالقِطار[٣]
أَتَجْزَعُ أَنْ عَرَفْتَ بِبَطْن قَوٍّ   وصَحْراءِ الأُدَيْهم رَسْمَ دار
وأَنْ حَلَّ الخَلِيطُ ولسْتَ فيهم   مَرابعَ بَيْنَ ذَحْل إلى سَرار
إذا حَلُّوا بعَائجةٍ خلاءٍ   تُقَطِّف نَوْرَ حَنْوَتِها العَذَارى

ومثله عرقل بن الخطيم العكلى ، فإنه يشتاق إلى مرابع أهله ، وأوديتها وأشجارها الملتفة ، وحياتها الهادئة الوادعة الحرة ، ويزهد فى اليمامة وأرضها ودو ها ورمالها تلك التى كتب عليه أن يتشرد بها ويعيش متخفياً فيها يقول[٤] :

لَعَمْرُكَ للرُّمانُ إلى بَنَاءٍ   فَخَرْمِ الأَشْيَمَيْن إلى صُبَاح[٥]
وأَوديةٌ بها سَلَمٌ وسدْرٌ   وحمضٌ هَيْكلٌ هَدِبُ النَّواحى[٦]
نَحِلُّ بها ونَنْزِلُ حيث شِئْنا   بما بَيْنَ الطريق إلى رُماح
أَحبُّ إلَيَّ من آطام جَوٍّ   ومن أَطْوَابها ذاتِ المَنَاحى[٧]
أَحبُّ إلَيَّ من كَنَفَيْ بُحارٍ   وما رَأَتِ الحَواطِبُ من نِساح[٨]

وعلى هذه الشاكلة أبيات للأحيمر السعدى ، إذ قدم العراق وقطع الطريق فطلبه سليمان بن على أمير البصرة وأهدر دمه ، فهرب نحو فارس ، وأخذ يحن إلى وطنه ، مسترجعاً أيامه الماضية وحياته اللاهية مع شباب قومه ، وداعياً بالرحمة لأرضهم

---

(١) الغميم : ماء لبنى سعد .
(٢) القرون : ضفائر الشعر . على مطاها : على صلا بتها
(٣) شيف : زُيّن . القطار : المطر .
(٤) معجم البلدان ٤ : ٢٨٣ ، ٨ : ٢٨٤ .
(٥) هذه مواضع دون هجر من بلاد بنى سعد .
(٦) السلم والسدر والحمض : من أشجار الصحراء . هيكل : وارف .
(٧) جو : ناحية باليمامة . الأطام : الحصون . الأطواب : الدور .
(٨) نساح : من أودية اليمامة .

ونخيلها ، وبرماً بحياته الجديدة لما يلاقى فيها من المشقة والإرهاق ، ومن التشرد والاغتراب يقول : [١]

لَئِنْ طال ليلى بالعِراق لرُبما　　أَتَى لىَ ليلٌ بالشآم قَصِيرُ
معى فتْيَةٌ بيضُ الوُجوُه كأَنَّهم　　على الرَّحْلِ فوق النَّاعجات بُدورُ
أَيَا نَخَلاتِ الكَرْم لا زال رائحاً　　عليكن مُنْهَلٌّ الغَمام مطيرُ
سُقِيتُنَّ ما دامت بِكَرْمانَ نخلةٌ　　عَوَامر تَجرى بينهن بُحُورُ
وما زالَتِ الأَيامُ حتى رأَيتنى　　بَدَوْرَقَ مُلْقًى بينهن أُدورُ [٢]

ويطول بنا القول إذا أردنا أن نعرض لكل الأشعار التى حنوا فيها إلى ديارهم وأهليهم ، فإننا لا نكاد نستقصى ما تفرق من شعر كل منهم فى المصادر والمظان المختلفة حتى نرى فيه هذه المعانى واضحة ، وتلك الظاهرة بيّنة . على أنهم لم ينزعوا إلى بلادهم وأهلهم فحسب ، بل نزعوا أيضاً إلى محبوباتهم اللائى كان لهم معهن صلات ومودات قبل مباينتهم لهن وانفصالهم عنهن . وهم يعبرون عن هذه المعانى بذكرهم لأظعانهن المرتحلة التى تتراءى لهم أو بوصفهم لأطيافهن وهى تقطع الرمال وتجوز القفار إليهم . ومن الضرب الأول قول عبيد بن أيوب [٣] :

أُنْظر فَرَنِّخْ جزاكَ الله صالحةً　　رَأْدَ الضُّحَى اليوم هل ترتادُ أَظعانا [٤]
يَعْلُونَ من عالجٍ رَمْلاً وَيعْسِفُه　　أَخو رمال بها قد طال ما كانا [٥]
إذا حَبَا عَقدٌ نكَّبْنَ أصعَبَه　　واجْتَبْنَ منه جماهيرًا وغيطانا [٦]

ومن الضرب الثانى قول السمهرى بن بشر العكلى [٧] :

---

(١) معجم البلدان ٤ : ١٠١ .
(٢) دورق : بلد بخوزستان .
(٣) معجم البلدان ٦ : ٩٦ .
(٤) رنّخ : ذلّل . رأد الضحى : أول النهار .
(٥) أخو الرمال : الحادى المتمرس بها . يعسفه : يركبه ويقطعه .
(٦) حبا عقد : تكاثرت الرمال .
(٧) معجم البلدان ٢ : ٣٣٤ ، ٦ : ٢٨٢ .

وَأُنْبِئْتُ ليلى بالغَرِيَّيْن سلَّمت عليَّ ودونى طِخْفَةٌ ورِجامُها[1]
فإنَّ التى أَهْدَتْ عَلى نأْى دارِها سَلاماً لَمَرْدُودٌ عليها سَلامُها
عَدِيدَ الحَصى والأَثْلِ من بَطْنِ بيشةٍ وطَرْفائها ما دام فيها حَمامُها[2]

إلى غير ذلك من الشواهد والأمثلة التى نعثر عليها لهم[3] ، والتى تصور هذا الجانب بوضوح عندهم .

التوبة والاعتذار والاستغفار :

و لم نعرض حتى الآن لأطرف موضوع جديد فى أشعارهم وهو التوبة والاعتذار والاستغفار ، فقد تاب بعضهم وأنابوا ، وندموا على ما قدّموا من سيئ الأعمال ، وأخذوا يستغفرون لأنفسهم لعل الله لا يدخلهم فى النار . وهى مشاعر استولت عليهم بأخرة من حياتهم ، وبعد أن تقدم العمر بهم ، ووقفوا على البرزخ الفاصل بين الحياة والموت ، إذ مضوا يفكرون فى الثواب والعقاب ، وتعمقهم إحساس بالندم والخوف من عذاب النار مستشعرين لما فرط منهم فى صدر شبابهم ، ومتضرعين إلى الله أن ينجيهم مما وعد به أمثالهم من شديد العقاب ، على نحو ما يتضح فى قول عبيد بن أيوب[4] :

يا رب عَفْوَكَ عن ذى توبةٍ وَجِلٍ كأَنه من حِذارِ النَّاس مَجْنُون
قد كان قَدَّم أَعمالاً مُقَارِبةً أَيامَ ليس له عَقْلٌ ولا دين

فهو فى خشية من العذاب ، لا يجد ما يهدئ من روعه ويخفف من توجسه إلا التوجه إلى الله بكل جوارحه معلناً توبته ، ومعتذراً عما اقترف من الذنوب ، ومؤملا فى عفوه ، فإنه إنما أخطأ وهو صغير غرير ، يوم لم يكن بصيراً بعواقب الأمور ، ويوم لم يكن متعمقاً فى الدين ولا عارفاً لأوامره ونواهيه .

---

(١) الغريان وطخفة : موضعان .

(٢) بيشة : واد يصب فى نجد . الطرفاء : نخل باليمامة .

(٣) انظر معجم البلدان ٢ : ٤١٢ ، ٣ : ٢٩ ، ٣٠٢ ، ٤٥٠ ، ٦ : ٦٠ ، ٨٩ .

(٤) البيان والتبيين ٤ : ٦٢ .

وفى بيتين آخرين يقيم الحجة على الشامتين به والمخوفين له بأن مصيره إلى الجحيم ، مُسَفِّهاً لرأيهم ، ومؤمناً بأنهم إنما يفتون بما لا علم لهم به ، وبأنهم ممن اسودت قلوبهم ، واستيأسوا من عفو الله والله عَفُوٌّ رحيم[1] :

يا ربِّ قد حَلَفَ الأَعداءُ واجتهدوا   أَيْمانَهم أَنَّنى من ساكنى النار
أَيَحْلِفُونَ على عَمْياءَ ويْحَهُمُ   ما عِلْمُهُمْ بِعَظِيمِ العَفْوِ غَفَّار[2]

أما الأحيمر السعدى فيبلغ فاقه من اللصوص أنه تاب وتوقف عن سلب القوافل ونهب ما فيها من الحرير وتحف اليمن ونفائسها . ومع ذلك فإنه يجاهد نفسه مجاهدة ويزجرها زجراً لكى لا تتطلع إلى القوافل وهى ماضية فى دروب الصحراء ، فإنه يحن إلى تلك الأيام التى كان فيها لصًّا فاتكاً يغتصب منها أغلى ما تحمل من البضائع ، والتى تمثل عهد صباه وفتوته يقول : [3]

قُلْ للصوص بنى اللَّخناءِ يَحْتَسِبُوا   بَزَّ العراق ويَنْسوا طُرْفَةَ اليَمَنِ
وَيَتْرُكُوا الخَزَّ والدِّيباجَ تَلْبَسُه   بِيضُ الموالى ذوو الشَّنزَرات والعُكَن[4]
أَشْكُو إلى الله صَبْرِى عن رَوَاحِلِهِمْ   وما أُلاقِى إذا مَرَّتْ من الحَزَنِ
لكن لَيَالِىَ نَلْقَاهُم فَنَسْلُبُهم   سقْياً لذاك زماناً كان من زمنِ

على أن منهم من لم يكن ليرتدع عن ضلاله وغيه حتى وهو محبوس ، وإنما كان يهدد ويتوعد بأنه سيعود إلى سيرته الأولى ، فقد أُخِذَ تليد الضبى أيام عبد العزيز ابن مروان على اللصوصية فقال وهو فى سجنه[5] :

يقولون جاهِرْ يا تليدُ بتوبةٍ   وفى النفس منِّى عَوْدَةٌ سأَعودُها
أَلاَ لَيْتَ شعرى هل أَقُودَنَّ عصبةً   قليلٌ لربِّ العالمين سُجودُها

---

(١) مجموعة المعانى ص ١٥٢ .

(٢) ويح : كلمة ترحم وويل منصوبة على المصدر .

(٣) المؤتلف والمختلف ص : ٤٣ ، ومجموعة المعانى ص : ٢١٧ ، واللسان ١١ : ١١٧ ، ١٣ : ٣٢٩ .

(٤) الشزرة البغض والحقد . العكن : أطواء البطن من السمن .

(٥) معجم البلدان ٣ : ٨٦ .

وهل أَطْرُدَنَّ الدَّهْرَ ما عِشْتُ هَجْمةً مُعَرَّضَةَ الأَفْخَاذِ سُجْحاً خُدُودُها[١]

فالشُّرط يطلبون إليه وهو فى حبسه أن يعلن اعتذاره وتوبته حتّى يعفوا عنه ، وهو مصرٌّ على أنه لن يعتذر ولن يتوب ، وإنما سيتزعم عصابة مجرمة من اللصوص ويغير بهم على إبل الناس ويسرقها .

ومن تتمة الحديث عن هذا الجانب عندهم — جانب التوبة والاعتذار والاستغفار ، وما يكشف عنه من تناقض فى حياتهم ، وعدم وفاء لأهدافهم وثبات على مبادئهم ، لاتعاظهم وتأثير تعاليم الدين فى نفوسهم — أن منهم من تحول بأخرة من عمره إلى ناصح وحكيم ، فإذا هو يأمر بالمعروف ولا يؤمن بالتسرع والقوة ، بل بالهدوء والاتزان والصبر والتواكل ، وفى ذلك يقول جحدر ابن معاوية العكلى[٢] :

إذا ٱنْقَطَعَتْ نَفْسُ الفَتَى وأَجنَّهُ مِنَ الأَرْضِ رَمْسٌ ذُو تُرابٍ وجَنْدَلِ[٤]
رَأَى أَنَّما الدُّنيا غرورٌ وإنما ثوابُ الفَتَى فى صَبْرِه والتَّوَاكُلِ

وله قطعة أخرى يصور فيها حياته وكيف تقلب فيها بين أعطاف النعيم والبؤس ، والشدة واليسر ، وينهى فيها أيضاً عن الطيش والحمق ويدعو إلى التأنى واتباع الحق والأخذ بالرأى السديد ، وإلى التلاحم والتماسك والكف عن التنابذ وإيذاء المساكين والضعفاء ، يقول[٤] :

بكلِّ صُروفِ الدَّهْر قد عِشْتُ حِقْبَةً وقد حَمَلَتْنى بَيْنَها كُلَّ مَحْمل
وقَدْ عِشْتُ منها فى رخاءٍ وغِبْطَةٍ وفى نِعْمة لَوْ أَنَّها لا تَحَوَّلُ
فإنَّكَ لا تدرى إذا كنتَ راجيًا أَفى الرَّيْثِ نُجْحُ الأَمْرِ أَمْ فى التَّعَجُّل
ولا تمْشِ فى الحرْب الضَّراء ولا تُطع ذوى الضَّعْفِ عند المأزق المُتَحَفِّل

---

(١) سجح الخدود : لينتها كناية عن سمنتها .
(٢) مجموعة المعانى ص : ٣ .
(٣) الرمس : القبر . الجندل : الصخر .
(٤) مجموعة المعانى ص : ١٣ .

ولا تَشْتُم المَوْلى تَتَبَّعْ أَذاتَه فإنَّك إنْ تَفْعَلْ تُسَفَّه وتَجْهَلِ
ولا تَخْذلِ المَوْلى لِسُوءِ بَلائهِ مَتَى تَأْكُلِ الأَعْدَاءُ مَوْلاَك تُؤْكَلِ

ويشاكل هذه الأبيات بيتان آخران لعبيد بن أيوب ، فإنه يحض فيهما على نهوض المرء بما هو أهل لتحمله ، كما يدعو إلى أن لا يُسْدى المرء نصيحته إلا لمن يعمل بها ، ويوصى أيضاً بالتراحم والتكافل فى الشدائد ، يقول[1] :

فَلاَ تَعْتَرِضْ فى الأَمْر تَكْفِى شُؤُونَهُ ولا تَنْصَحَنْ إلاَّ لِمَنْ هُوَ قَابِلهْ
ولا تَخْذلِ المَوْلى إذا ما مُلِمَّةٌ أَلَمَّتْ ونازِلْ فى الوَغَى مَنْ يُنَازِلُهْ

وكل أولئك مظاهر تكشف عما أصاب حياة الصعاليك الأمويين من تطور وما طرأ على أفكارهم من تغير بعد أن شاخوا وكبروا ، إذ فارق بعضهم حياة التلصص والاغتصاب وأخذوا يكفرون عن سيئاتهم متضرعين إلى الله أن يغفر لهم ويعفو عنهم ، وداعين إلى الأخلاق الحميدة والسلوك المستقيم .

---

(١) المصدر نفسه ص : ١٤ .

٢
موضوعات قديمة

التشرد والتأبد :

ويشارك الصعاليك الأمويون رفاقهم من الصعاليك الجاهليين فى وصف تشردهم فى أعماق الصحراء ، وتأبدهم فى مجاهل الأرض ، وانبتاتهم من مجتمعهم[١]. فقد أغرم نفر منهم بتصوير حياتهم القاسية المضنية ، وما قامت عليه من النزول بالمناطق الخالية ، وهجر الأماكن المأهولة ، وما طوى فيها من الأهوال والأخطار وكيف أنهم كانوا صابرين على مصاعبها وضنكها ، متحملين لكل معاطبها ومهالكها راضين بما قسم لهم فيها من الشظف والبؤس ، مما غير ألوانهم ، وأهزل أجسامهم . وعلى الرغم من تصويرهم لشجاعتهم وقلة مبالاتهم ، وقوة احتمالهم ، وشدة صبرهم على ما يطاق ومالا يطاق فى حياتهم ، فإنهم لم يخفوا ما كان يسيطر عليهم فيها من القلق ، وما كان يأخذهم من الخوف ، فإذا هم لا ينامون إلا قليلا ولا ينزلون بمكان إلا ويتحولون عنه ، وينتقلون إلى مكان غيره أكثر انقطاعاً وأشد بُعْداً . وإذا هم لا يأمنون إلا فى المواضع النائية والبلاد المقفرة ، لأنهم كانوا يرون أن ذلك أنفى للتوحش ، وأنجى من المكروه . ومما يوضح هذا الجانب من حيـــاتهم قول مالك بن الريب[٢] :

أَدْلَجْتُ فى مَهْمَهٍ ما إنْ أَرَى أَحَدًا ... حَتَّى إذا حَانَ تَعْرِيسٌ لمن نَزَلا[٣]

وَضَعْتُ جَنْبِي وقُلْتُ اللهُ يَكْلَؤُنى ... مهما تَنَمْ عَنْكَ من عَيْنٍ فما غَفَلا[٤]

والسَّيْفُ بينى وبين الثَّوْب مَشْعَرُهُ ... أَخْشى الحوادث إنِّى لَمْ أَكُنْ وكِلا[٥]

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص : ٢٣٨ :

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٥ .

(٣) الإدلاج : السيرفى الليل . التعريس : النزول بآخر الليل .

(٤) يكلأ : يرعى ويحفظ .

(٥) مشعره : موضعه ومكانه .

ما نِمْتُ إلاَّ قليلاً نِمْتُه شئزًا حتى وَجَدتُ على جُثْمَانِيَ الثِّقَلا[١]

فهو يحدثنا عن ضربه فى القفار الموحشة المخوفة التى لا يجتازها الناس ، ولا يسير بها الركبان ، ممضياً صدر ليله وهو يوغل فيها حتى يصل إلى مكان أمين بها ، وحينئذ ينام ويسلم أمره لخالقه ، ولكنه لا يغط فى النوم غطيطاً ، بل ينام نوماً خفيفاً كله الحذر والقلق ، كما يكون متأهباً لكل طارئ لا لجبن فيه ، بل لأنه لا يؤمن بالتواكل ، ولذلك فإنّه يظل حريصاً مستعدًّا لدفع كل خطر قَدْ يُلِمّ به .

ويصف مسعود بن خرشة التميمى خوفه ، وكيف أنه كان لا يجد الأنس والأمان إلا فى البلد القفر والمكان الموحش ، الذى لا إنسان فيه ، ولا أثر للعمران به ، وإنما فيه كُنُس الظباء وأصوات القطا ، يقول [٢] :

أَلاَ لَيْتَ شعرى هل أَبيتَنَّ ليلةً بِوَعْسَاءَ فيها للظباء مَكَانِسُ[٣]
وهَلْ أَسْمَعَنْ صَوْتَ القطا تَنْدُبُ القطا إلى الماءِ منه رابِعٌ وخوامس

وأشهر من صور وجله منهم ، وما أداه من التأبد فى جوف الصحراء هو عبيد ابن أيوب العنبرى ، إذ كان يظن أن كل الناس يتحدثون بخبره ، ويبحثون عنه ، ليقبضوا عليه ، يقول[٤] :

لقد خِفْتُ حتى خلتُ أَنْ ليس ناظرٌ إلى أَحدٍ غيرى فكِدْتُ أَطِيرُ
وليس فمٌ إلا بسرِّى مُحَدِّثٌ ولَيْسَ يَدٌ إلا إلَىَّ تُشِيرُ

ومن أجل ذلك أكثر من الحديث عن تشرده ، وأكثر من وصف نفسه بأنه « أخو فلوات » ، أو « أخو قفرات » أو « ربيب المفاوز » يقول [٥] :

وأَضحَى صديقَ الذِّئْبِ بَعْدَ عَداوَةٍ وبُغْض ورَبَّتْهُ القفارُ الأَمَالِسُ

---

(١) شئزا : قلقا . الثقل : هو أفلح العبد اللص الذى قتله .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ١٦٦ .

(٣) الوعساء : الرملة .

(٤) حماسة البحترى ص : ٤١٢ .

(٥) المصدر نفسه ص : ٤١١ ، وانظر الحيوان ٦ : ٢٣٦ مع اختلاف فى رواية البيت .

بل إنه ليبالغ فى وصف تأبده ، إذ يزعم أنه تشرد وتوحش منذ صغره ، فلم يسلك سبيل الإنس ولا تعلم عادات الناس ، يقول [١] :

وَلَمْ يَسْحَبِ المِنْديلَ بين جَماعةٍ ولا فارِدًا مذ صَاحَ بين القَوابل

ومن أبدع ما يصور إبعاده فى التشرد ، وإمعانه فى التخفى والانقطاع عن المجتمع قوله [٢] :

فإنِّى وَتَرْكى الإنْسَ مِنْ بَعْد حُبِّهِمْ وصَبْرِىَ عَمَّن كنت ما إنْ أُزَايِلُهْ [٣]
لكا الصَّقْرِ جَلَّى بعدما صادَ قِنْيَةً قَدِيرًا ومَشْويًّا عَبِيطاً خَرَادِلُهْ [٤]
أهابوا به فازداد بُعْدًا وصدَّه عن القُرْبِ منهم ضَوْءُ بَرْقٍ ووَابِلُهْ [٥]
أَلَمْ تَرَنى صاحبتُ صفراءَ نَبْعَةٍ لها رَبَذِىٌّ لم تُفَلَّلْ مَعَابِلُهْ [٦]
وطالَ احتضانى السيفَ حتى كأنما يُلاطُ بكشحى جَفْنُهُ وَحَمَائِلُهْ [٧]
أخو فلواتٍ صَاحَبَ الجِنَّ وانْتَحَى عن الإنسِ حتى قد تَقَضَّت وسائلُهْ
له نَسَبُ الإنسى يُعْرَفُ نَجْرُهُ ولِلْجِنِّ منه شَكْلُهُ وشمائِلُهْ [٨]

وهذا خوف وتشرد ما بعدهما خوف وتشرد . فهو يشبه نفسه وقد انفصل عن الناس بالصقر الذى انقض على شاة مسلوخة ومعدة للطبخ فاختطفها من أصحابها ، وطار بها ، فتعقبوه لعله يتركها ، فأمعن فى الطيران والبعد ، ومضى يصور ذعره وتوجسه وتأبده فى الخلاء حتى رافق الحيوان والجن ، وأنس بها واكتسب عاداتها

---

(١) الشعر والشعراء ص : ٧٨٦ ، الحيوان ٦ : ١٦٨ .
(٢) الكامل للمبرد ١ : ٣٤١ .
(٣) زايل : فارق . وإن : زائدة .
(٤) جلّى : تشوّف ونظر . القنية : الشاة . العبيط : الطرى . الخرادل : القطع .
(٥) أهابوا به : دعوه .
(٦) الصفراء : القوس . النبعة : خير الشجر للقسى . الربذى : الوتر الشديد الحركة عند دفع السهم . المعابل : جمع معبَلة وهو الحد أو النصل . لم تفلل معابله : لم ينكسر حدّها .
(٧) لاط : التصق .
(٨) النجر : الأصل .

وشاكلها فى هيئتها مع أنه ليس منها ، وكيف أنه كان حذراً متسلحاً بقوسه وسيفه تـهيـّباً من الخطر ، وتأهباً لدفع كل شر .

وله يصف ناقته وتطوافه فى البرارى بها ، وما كانت تحمله من خفيف متاعه وسلاحه وجسمه الناحل المهزول الذى أضمره اتصال ارتحاله وما كان يكابد من الخوف [١] :

حَمَلْتُ عليها مالَوَ انَّ حمامةً تُحَمَّلُهُ طارتْ به فى الجَفَاجِفِ[٢]

رُحْيلاً وأَقطاعاً وأَعْظُمَ وامقٍ أَضَرَّ به طولُ السُّرَى والمَخَاوِف[٣]

فأنت ترى أنهم يتفقون مع الصعاليك الجاهليين فى التحدث عن تشردهم ، ولكنهم يفترقون عنهم فى أنهم كانوا فى تشردهم يستشعرون غير قليل من الحذر والذعر .

مصاحبة حيوان الصحراء :

معلوم أن الصعاليك الجاهليين ألموا بالحديث عن الحيوانات الوحشية ، فإن فى أشعارهم صوراً كثيرة لحيوان الصحراء ووحشها وطيرها وحشراتها وما يخيل للسارى فيها من أشباح[٤] . أما الصعاليك الأمويون . فلم يكتفوا بوصف أعضاء هذه الحيوانات وحياتها وعدوها ، فقد تحولوا إلى الحديث عن مرافقتهم لها واستئناسهم بها . ومشاركتها لهم فى حياتهم ، حتى لقد كان بعضهم يزعم أنه رافق فى مفازة نمراً يطاعمه ويؤاكله . ويذهب الجاحظ إلى أن القتـّال الكلابى هو الذى يتميز بذلك من سائر الصعاليك الأمويين ، ودليله على ذلك أنه هو الذى يقول واصفاً مصاحبته للنمر وإلفه له ، وكيف أنه كان لا يسامره ولا يحدثه ، وإنما كان صامتاً تتوهج عيناه الغبراوان توهجاً ، وكيف أنه كان يصطاد الوعول ويأتى بها إليه ، فيأخذ منها ما يشاء ويقيم رمقه به ثم يطرح الباقى له ، وكيف أنهما كان يشربان من نقرة فى

---

(١) الشعر والشعراء ص : ٥٥٦ ، ٧٨٦ .

(٢) الجفا جف : ماغلظ من الأرض .

(٣) الأقطاع : السهام . الوامق : المحب .

(٤) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص : ٥٤ .

الجبل فيها بعض الماء الصافى ، إذ يقول [١] :

ولى صاحبٌ فى الغَار هَدَّكَ صاحبًا ... هو الجَوْنُ إلاَّ أنه لا يُعَلَّلُ [٢]

إذا ما التقينا كان جُلَّ حَدِيثِنا ... صُماتٌ وطَرْفٌ كالمَعابِلِ أَطْحَلُ [٣]

تَضَمَّنَتِ الأَروى لنا بِطعامنا ... كلانا له منها نصِيبٌ ومأْكَلُ [٤]

فَأَغْلِبُهُ فى صَنْعَةِ الزاد إننى ... أُميطُ الأَذى عَنه ولا يَتَأَمَّلُ [٥]

وكانت لنا قَلْتٌ بأَرضٍ مَضَلَّةٍ ... شريعَتُنَا لأَيِّنا جاءَ أَوَّلُ [٦]

ومن الممكن أن يكون الجاحظ قد رأى النسخة الكاملة لديوان القتّال ، واعتمد عليها فى حكمه بأن القتّال هو الذى استكثر من وصفه معاشرته للحيوان . غير أن ما بقى من ديوانه وما جمعه الدكتور إحسان عبـــاس لا يدل على هذه الظاهرة ولا ينبئ بها ، والراجح أن الجاحظ لم ير فى النسخة الأصلية من ديوانه غير هذا المثال الذى ضربه واستشهد به ، وآية ذلك أنه لم يتمثل بسواه .

وعبيد بن أيوب العنبرى هو الذى أولع ولعاً شديداً بتصوير مرافقته للغيلان والذئاب والحيات ، وهو الذى أكثر من الحديث عنها وعن عيشه معها . فى غير قطعة وقصيدة أوردها الجاحظ له ، مما كان يوجب عليه أن يجعله المتفرد بهذه الظاهرة والمشهور بها . فها هو ذا يخبرنا فى قطعة دالية بمصاحبته الوحش والذئب والغول زاعماً أن منها الذكر والأنثى وأن لونها مخطط كأنه الطرائق التى تُزَيِّن ثياب الأعراب يقول [٧] :

وَحَالَفْتُ الوحوشَ وحَالَفَتْنى ... بقُرْبِ عُهُودِهِنَّ وبالبعادِ

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٥٣ ، وانظر ديوانه ص : ٧٧ .

(٢) الجون : النمر . هدك صاحباً : أى ما أجله وأنبله وأعلمه .

(٣) الصمات : الصمت . المعبلة : النصل الطويل العريض . الأطحل : الأغبر فى بياض وسمرة .

(٤) الأروى : الوعول . تضمنت : تكفلت .

(٥) ماط : أزال .

(٦) القلت : الحفرة فى الصخر . المضلة : التى يتوه فيها المسافرون .

(٧) الحيوان ٦ : ١٥٩.

وَأَمْسَى الذِّئْبُ يَرْصُدنى مِخَشًّا لِخِفَّةِ ضَرْبَتى ولضَعْفِ أدى[1]
وغُولاَ قَفْرةٍ ذكرٌ وأُنثى كأَنَّ عليهما قِطَعَ البِجَادِ[2]

ويذكر فى بيتين آخرين أنه كان يرى الغول والسِّعلاة وهى الواحدة من نساء الجن إذا لم تتلون لتفتن المسافرين ، كما كان يرى الجن ويسمع أصواتها وعزيفها فى أنحاء الليل ، يقول[3] :

وساخرةٍ مِنِّى وَلَوْ أَنَّ عَيْنَهَا رأَتْ ما أُلاقِيه من الهَوْلِ جُنَّتِ
أَزَلُّ وسِعلاةٌ وغُولٌ بقفرةٍ إذا الليل وَارَى الجِنَّ فيه أَرَنَّتِ[4]

ويصف نفسه فى بيتين آخرين وقد خرج من الصحراء وخالط الناس بأنه خليل الغول والذئب ، يقول[5] :

تقولُ وقد أَلْمَمْتُ بالإِنس لمةً مُخَضَّبةُ الأَطرافِ خُرْسُ الخلاخلِ[6]
أَهَذا خليلُ الغُول والذِّئْبِ والَّذى يَهِيمُ بَرَبَّاتِ الحِجالِ الكَواهِلِ[7]

ويردد فى بيتين آخرين أنه رافق الغول فى أثناء تنحيه عن الآدميين فى القفار ، وأنه سمع أصواتها ورآها وهى تتلون وترسل من عينيها شُعَل النار لترعبه وتخفيه حتى تنقض عليه يقول[8] :

فلله دَرُّ الغول أَىُّ رفيقةٍ لِصَاحِبِ قَفْر خائفٍ مُتَقَتِّرِ[9]
أَرَنَّتْ بِلَحْنٍ بعد لَحْنٍ وأَوْقَدَتْ حَوَالَىَّ نيراناً تَلُوحُ وتَزْهَرُ[10]

---

(١) المخش : الجرىء . الآد : القوة .
(٢) البجاد : من أكسية الأعراب .
(٣) الحيوان ٦ : ١٦٠ .
(٤) الأزل : صغير العجز وهو من صفات الذئب الخفيف . أرنت : صوتت .
(٥) الحيوان ٦ : ١٦٧ .
(٦) خرس الخلاخل : كناية عن امتلاء ساقها .
(٧) الحجال : بيوت العرائس . الكواهل : المسنات .
(٨) الحيوان ٦ : ١٦٥ ، والشعر والشعراء ص : ٧٨٤ .
(٩) متقتر : متجنب للناس .
(١٠) تلوح : تظهر .

وربما كانت قصيدته اليائية هى أطول قصيدة تحدث فيهاعن مصادقته لأصناف مختلفة من الوحش ، فقد صاحب قطعان البقر الوحشى وألفها وألفته ، وكانت فى أول عهدها به تنفر منه ، وتبتعد عنه ، ثم أصبحت تأنس به وتأمن له ، لأنها استيقنت من أنه لن يصيبها بمكروه . أما السباع والغيلان فلم تكن صديقة له ، إذ كانت تعبث به ، حتى مزّقت جسده ، وقطّعت ثيابه ، ومع ذلك فإنه لم يخف منها ، وإنما صبر على مكرها وشرها ، وتوقّاها بسهامه التى كان يريشها نحوها . وكان أيضاً يفترش الحشائش ويتخذ منها وسادة له ، بينما كانت الحيات العظام تطيف به ولا تؤذيه ، حتى إذا ما تحرك وسمعت صوته انتبهت له ، والتفت من حوله ، يقول[١] :

كأَنى وآجالَ الظباء بقَفْرةٍ ... لنا نَسَبٌ نَرْعاهُ أَصبح دَانيا[٢]
رَأَيْنَ ضَئيلَ الشَّخْصِ يَظْهَرُ مَرَّةً ... ويَخْفَى مرارًا ضامرَ الجِسْم عاريا
فَأَجْفَلْنَ نَفْرًا ثم قُلْنَ ابنُ بَلْدَةٍ ... قليلُ الأَذَى أمسى لَكُنَّ مُصَافيا
وقد لَقِيَتْ منّى السِّباعُ بَلِيَّةً ... وقد لاَقَتِ الغِيلانُ منّى الدَّواهيا
ومنهنَّ قد لاقَيْتُ ذَاكَ فلم أَكُنْ ... جَباناً إذا هَوْلُ الجبانِ اعترانيا
أَذَقْتُ المنايا بَعْضَهُنَّ بأَسهُمى ... وقَدَّدْنَ لحمى وَامْتَشَقْنَ رِدَائيا
أَبيتُ ضجيعَ الأَسْود الجَوْن فى الهُوَى ... كثيرًا وأَثناءُ الحِشاشِ وِسَاديا[٣]
إذا هِجْنَ بى فى جُحْرِهنَّ اكتَنَفْنَنى ... فليتَ سليمانَ بنَ وَبْرٍ يَرانيا

وليس القتّال الكلابى وعبيد بن أيوب هما الوحيدين اللذين صورا مصادقتهما للوحوش ، ورؤيتهما منها ما لا يُرى ، فقد شاركهما فى هذا التصوير الأحيمر السعدى ، إذا ذكر فى أبيات استشهدنا بها أنه رافق ذئباً واطمأن كل منهما إلى صاحبه ووثق به[٤] ، كما شاركهما فى ذلك أيضاً القتّال الباهلى ، إذ يقول الآمدى

---

(١) الحيوان ٦ : ١٦٦ .
(٢) الآجال : القطعان .
(٣) الأسود : الضخم من الحيات . الهُوَى : جمع هُوّة وهى المنخفض السحيق من الأرض . الحشاش : مايوضع فيه الحشيش .
(٤) الشعر والشعراء ص : ٧٨٨ .

إنه أحدث حدثاً فهرب وصعد جبل يَذْبل ، فأقام به ، وألفه النمر ، وكان يرد معه الشريعة ، غير أنه لم ينشد شيئاً من شعره صور فيه مصافاته للنمر ومعايشته له[١]:

ومن الطبيعى أن وصفهم مصاحبتهم للوحش الكاسر المفترس ، وللغيلان مما لا أصل له ولا حقيقة ليس أكثر من ضرب من الأوهام والخيالات ، وليس أكثر من نوع من الأساطير الشعبية التى كانت ذائعة بين الناس فى عصرهم . ومما فتنهم بها ، فإذا هم ينسجون الحكايات والأقاصيص لها أن حياتهم قامت على التشرد والتأبد فى القفار والفيافى التى ينعدم فيها الأنيس ، إلا ما كان يمر عليهم من الحيوان ، وإلا ما كانوا يسمعونه من همهمات الوحوش ، فاستولت هذه الأساطير وما تثيره من رعب وخوف على نفوسهم المضطربة المذعورة ، وأخذوا يتوهمون الأوهام من أضعف صوت ، ويتخيلون الخيالات من أقل شبح .

وللجاحظ تعليل علمى رائع لهذه الأساطير ، وتحليل نفسى دقيق لتوجسهم ووسوستهم ، يضمنه نقداً للرواة الذين حملوا هذه الحكايات والأخبار والأشعار عن الأعراب الذين كانوا يروجونها ويبالغون فيها ويعمدون إلى الكذب فى بعضها طلباً للإغراب . ونحن نسوقه على طوله لطرافته ودقته ، وهو يجرى على هذا النمط :

« وإذا استوحش الإنسان تَمَثَّل له الشئ الصغير فى صورة الكبير ، وارتاب ، وتَفرَّق ذهنه ، وانتقضت أخلاطه ، فرأى مالا يرى ، وسمع مالا يسمع ، وتوهم على الشىء اليسير الحقير أنه عظيم جليل . ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه ، وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه الناشئ ، ورُبِّىَ به الطفل ، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافى ، وتشتمل عليه الغيطان فى الليالى الحنادس — فعند أول وَحْشَة وَفَزْعة ، وعند صياح بوم ، ومجاوبة صدى ، وقد رأى كلّ باطل ، وتوهم كل زُور ، وربما كان فى أصل الخلْق والطبيعة كذّاباً نفّاجاً ، وصاحب تشنيع وتهويل ، فيقول فى ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة ، فعند ذلك يقول : رأيت الغيلان ، وكلمت السِّعلاة ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : تزوّجتها ! !

---

(١) المؤتلف والمختلف ص : ٢٥٢ .

ومما زادهم فى هذا الباب ، وأغراهم به ، ومدّ لهم فيه ، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابيًّا مثلهم ، وإلا عاميًّا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق ، أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقّف والتثبُّت فى هذه الأجناس قط . وإما أن يلقَوْا راوية شعر ، أو صاحب خبر ، فالراوية كلما كان الأعرابى أكذب فى شعره كان أطرف عنده ، وصارت روايته أغلب ، ومضاحيك حديثه أكثر ، فلذلك صار بعضهم يدّعى رؤية الغول ، أو قتلها ، أو مرافقتها ، أو تزويجها ، وآخر يزعم أنه رافق فى مفازة نمراً ، فكان يطاعمه ويؤاكله [١]» .

الهجاء والتهديد :

ونراهم يسدّدون سهام تنديدهم وتوعدهم إلى من تعرضوا بسوء لهم ، إما من قبائلهم ، لأنها تخلت عنهم ، ولم تنتصر لهم ، ولم تأخذ بآرائهم ، وإما من بعض القبائل الأخرى التى اعتدى بعض أفرادها عليهم وحاولوا إيذاءهم ، وإما من العمال الذين طلبوهم وتعقبوهم لكى يقبضوا عليهم ، ويلقوا بهم فى السجن .

أما هجاء قبائلهم والتنديد بها والتبرؤ منها فقد ضربنا عليها أمثلة فى الفصل الثانى للقتّال الكلابى ، والأحيمر السعدى ، والسمهرى بن بشر العكلى . ونضيف إليها هذين البيتين للقتّال الكلابى اللذين يَسْخَر فيهما برجل من عشيرته ويَقْذِفُه بالبخل الشديد حتى إنه ليتوفر على زاده بمفرده بينما أفراد عشيرته جياع قد برّح بهم الجوع ، فإذا هو سمين ، وإذا هم نحفاء ضعفاء ، ويرميه أيضاً بأن التقتير والشح طبيعة فطر عليها ولن يتحول عنها ، ومن الطبيعى أن هذا السلوك لا يمكن أن يرتضيه صعلوك مثل القتّال الكلابى ، لأنه لا يؤمن بالبخل ، بل يؤمن بالكرم وبالشمائل الحميدة من النبل والعِفّة والنجدة والمروءة ، يقول [٢] :

يا أَيُّها العَفِجُ السَّمينُ وقومُهُ ... هَزْلَى تُجَرِّرُهُمْ ضباعُ جَعَار [٣]

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٥٠ — ٢٥٢ .

(٢) الوحشيات ص : ٢٣٤ ، المختار من شعر بشار ص : ٢٧٤ ، ديوانه ص : ٦١ .

(٣) العفج : الذى سمنت أعفاجه وهى مايصير إليه الطعام بعد المعدة . جعار : اسم للضبع .

أَطعِمْ ـ ولست بفاعلٍ ـ وَلْتَعْلَمَنْ　　أن الطعامَ يَحُورُ شَرَّ مَحارِ[١]

أما هجاء أبناء القبائل الأخرى فقليل قلة مفرطة ، إذ لا تمثله إلا أبيات لعبيد ابن أيوب العنبرى . وهو يَهْزأ فيها برجلين من ضبة ضرباه لأنه تحدث إلى فتاة منهم ، كما يعتدُّ بقوته وبشجاعته ، ويتَوَعَّدُهما بالغارات التى ينكل فيها بهما تنكيلا شديداً . غير أنه يخبرهما بأنه لن يُغير عليهما لا لخوفه منهما ، بل لأن من عشيرتهما من هم أهل للتقدير والاحترام ، لأنهم يحافظون على الجار ويعنون به ، يقول[٢] :

بأَى فَتًى يا ابنَىْ حَبيب بُلِيتُما　　إذا ثارَ يوماً للغُبار عَمُودُ

بِمُنْخَرِقِ السِّربالِ كالسِّيدِ لا يَنى　　يُقادُ لحربٍ أو تُراهُ يَقُودُ[٣]

فلولا رجالٌ يا مَنِيعُ رأَيتُهم　　لهم خُلُقٌ عند الجوار حَمِيدُ

لَنَالكُمُ منى نِكالٌ وغَارَةٌ　　لها ذنبٌ لم تُدْرِكُوه بَعِيدُ

أَقلَّ بنو الإنسان حتى أَغَرْتُمُ　　عَلَى مَنْ يُثِيرُ الجِنَّ وهى هُجُود

أما هجاء العمال وتوعدهم فتمثلها قطعتان أولاهما لمالك بن الريب وهو يهدد فيها الحارثَ بنَ حاطب الجُمَحىَّ عاملَ مروان بن الحكم الذى طلبه وطلب عصابته بعد أن ساموا الناس شرًّا ، فهرب منه ، وتوعده بأنه سيترصد له حتى يقتله ويتخلص منه ، وإلا فإنه سيتربص بأولاده حتى ينتقم منهم إما فى المدينة ، وإما على مشارفها ، يقول[٤] :

فإن أَسْطَعْ أُرِحْ منه أُناسى　　بِضَرْبةِ فاتكٍ غَيْر اعتذارِ

وإن يُفْلِتْ فإنى سوف أَبْغى　　بَنِيهِ فى المدينةِ أَوْ صِرَارِ[٥]

وأخراهما للأحيمر السعدى . وهو يدمغ فيها ابن جَنْدَل أمير بنى سعد وعاملهم

---

(١) يحور شر محار : يرجع قذرا .

(٢) سمط اللآلى ص : ٣٨٤ ، والحيوان ٦ : ١٦٨ .

(٣) السيد : الذئب .

(٤) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٤ .

(٥) صرار : موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق .

لبنى أمية بأبشع الصفات ، كما يصم من يسمّى ابن موسى بألذع الهجاء متهماً له بأنه ليس من أسرة عريقة شريفة ، وإنما هو من أسرة فقيرة وضيعة ، ومتفجعاً على ما آل إليه قومه من التشتت والضعف ، حتى خلت بلادهم منهم ، ولم يعد فيها من يجيب دعوة المستغيث ، يقول[١] :

كَفَى حَزَناً أَن الحمارَ ابنَ جَنْدَلٍ   عَلَيَّ بأَكنافِ السِّتار أَميرُ[٢]

وأَنَّ ابنَ مُوسَى بائعَ البَقْل بالنَّوى   له بَيْنَ باب والسِّتَارِ حَظِيرُ

خلا الجوفُ من قُتَّاك سعدٍ فما بها   لِمُسْتَصْرِخٍ يَدْعُو الثُّبُولَ نَصِيرُ

تلك هى أهم الموضوعات التى سبق الشعراء الصعاليك الجاهليون إليها ، ونظموا فيها ، واحتذى الصعاليك الأمويون عليها ، لما كان من مشابه بين حياتهم ، واتفاق بين ظروف معيشتهم . أما الموضوعات الأخرى التى عُنى بها الصعاليك الجاهليون من مثل أحاديث المغامرات ، ووصف الأسلحة والمراقب ، والرفاق ، والفرار ، وسرعة العدو ، والغزوات على الخيل ، فلم نعثر للصعاليك الأمويين على شىء منها . وليس ذلك دليلا على أنهم لم يخوضوا فيها ، إذ من الممكن أن تكون أشعارهم التى ألموا فيها بهذه الموضوعات وعرضوا لها قد ضاعت وفقدت ، وخاصة إذا عرفنا أن قسماً كبيراً من أشعارهم قد فقد لضياع المصادر التى أفردها القدماء له ، وجمعوه فيها .

(١) معجم البلدان ٣ : ١٧٤ .

(٢) الستار : من بلاد بنى تميم .

٣

خصائص فنية ولفظية

رددنا فى مواضع متفرقة أن حياة الصعاليك الأمويين تماثل فى كثير من جوانبها حياة الصعاليك الجاهليين ، ونصصنا على أن هذا التماثل بين الحياتين أفضى إلى أن تدور أشعارهم فى موضوعات متقاربة ومتماثلة ، وقفنا عندها وأشرنا إليها . وإذا كانت ظروف حياتهم وبعض موضوعات أشعارهم قد تشابهت فمن الطبيعى أيضاً أن تتشابه أشعارهم فى غير قليل من مميزاتها الفنية واللفظية .

فشعر الصعاليك الأمويين شعر مقطوعات قد تقصر وقد تطول ، إلا قصائد قليلة امتدت واتصلت بحكم الموضوع الذى صيغت له والظرف الذى قيلت فيه ، ولكنها تبقى نادرة ، بحيث لا نظفر بها عند أغلبهم ، بل عند قلة قليلة منهم .

ومن الطبيعى أن يكون فى هذا الحكم شىء من الترجيح والتَّعْمِيم ، لأنه لم يصدر عن دراسة شعرهم كما نظموه ، وإنما صدر عن استقراء لما بقى منه مفرقا على شكل مختارات فى المصادر التى لم يكن أصحابها يهتمون بنقل القصائد كاملة ، وإنما كانوا ينتخبون منها أبياتا تسد حاجاتهم ، وتفى بأغراضهم فى التأليف .

ومع ذلك فإننا مطمئنون إلى هذا الحكم بعض الاطمئنان ، لأن الديوان الوحيد الذى وصل إلينا كاملا ، وهو ديوان طهمان بن عمرو الكلابى برواية أبى سعيد السكرى ، جامع أشعار اللصوص والصعاليك وصانع دواوينهم ، لا يَتَكَوَّنُ معظمه من قصائد طويلة ، وإنما تشيع فيه المقطوعات القصيرة وتستغرق أكثره ، وأيضاً فإن ديوان القتال الكلابى الذى جمعه وحققه الدكتور إحسان عباس يرجح هذه الحقيقة ويؤكدها ، إذ يتألف أغلبه من قطع وأبيات معدودة نعثر بجانبها على قليل من المطولات .

ومن المحقق أن يتخذ شعرهم شكل المقطوعات وأن تقل فيه المطولات ، فإن حياتهم وما قامت عليه من التشرد والمطاردة لم تهيئ لهم الفرص لكى يشتغلوا بمد

أطنابه وتنقيحه وتدقيقه ، حتى يخرج خلقاً فنياً سوياً تقليدياً ، بل إنهم لم يكونوا متفرغين له ولإحكام صنعته ، وإنما كانوا مشغولين بأنفسهم وبتوفير بُلَغ العيش التي يقيمون بها أودهم ويكسبون أرماقهم .

ومن أسباب اتخاذ شعرهم شكل المقطوعات أنهم لم يصوغوه فى الموضوعات الموروثة من مدح وهجاء وغيرهما، تلك الموضوعات التى استقرت صورها، وتأصلت أجزاؤها ، وتماثلت تقاليدها ، وإنما صاغوه فى موضوعات جديدة ألصق اتصالاً بحياتهم ، وأدلّ تعبيراً عن غاياتهم . ومن هذه الأسباب أيضاً أنهم لم ينشدوه فى المحافل العظام والمجالس الرسمية حيث الخلفاء والوزراء والقادة وكبار النقاد والعلماء الذين لم يكونوا يعجبون إلا بالمضمون والشكل التقليديين ، والذين لم يكونوا يكافئون الشعراء مكافآت ضخمة إلا إذا تمسكوا بهما واحتذوا عليهما ، وإنما أنشدوه بعيداً عن هذه الأجواء المصطنعة ، فوق قنن الجبال ، وفى بطون الوديان ، وفى أعماق القفار ، ولم يكونوا يبتغون عليه الصلات والمكافآت ، بل كانوا يريدون التعبير عن ذواتهم وتصوير حياتهم . فالكثرة الغالبة من شعرهم نظمت فى مثل هذه الظروف والأجواء ، ولمثل هذه الأهداف والغايات ، ومن أجل ذلك كانت فى مجموعها مقطوعات ، إلا قصائد قليلة أنشدوها بين أيدى الخلفاء أو العمال حين وقعوا بقبضتهم ، أو أنشدوها فى قبائلهم منددين بها أو مشيدين بالقوىّ المتمرد من زعمائها [١] ، فاضطروا إلى مراعاة التقاليد والحرص عليها مطيلين لقصائدهم ومُفْتَتِحين لها بالمقدمة الطللية أو الغزلية أو مقـدمة وصف الظعن . ومع ذلك فإنهم لم يكونوا يصنعون هذا الصنيع فى كل الأحوال ، فقد كان بعضهم يستعطف ويمدح ويحرض دون إطالة لقصائده أو تقديم لها [٢] .

هذه الأسباب مجتمعة هى التى جعلتهم يصبون شعرهم فى مقطوعات ، دون تنقيح لها ، أو توفّر عليها ، أو مدّ لها ، أو محافظة على التقاليد فيها ، أو تمهيد لها بأى لون من ألوان المقدمات المعروفة التى تلقانا دائماً فى صدور القصائد التقليدية .

---

(١) انظر ديوان القتال الكلابى ص : ٣٣ ، ٤١ ، ٥١ ، ٦٨ ، ٧٣ ، والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ : ١٦٣ ، ١٧١ .

(٢) الأغانى (طبعـة دار الكتب) ١٣ : ١٥٩ ، وديوان طهمان بن عمرو الكلابى ص : ٣٥ ، ٤٠ .

فكل موضوع فى قطعة ، فقطعة للسجن ، وقطعة للتوبة ، وقطعة للحنين ، وقطعة للخوف ، وقطعة للتشرد ، وقطعة لمصاحبة حيوان الصحراء ، وقطعة للهجاء. وعلى هذا النحو أفرغوا سائر الموضوعات الأخرى فى مقطوعات .

ومع قصر أشعارهم وتخلصهم فيها من المقدمات التقليدية أهملوا أيضاً الأجزاء الموروثة التى كانت تليها من مثل وصف الرحلة والناقة وتشبيهها بالثور الوحشى الذى تطارده كلاب الصيد . وإن ألموا بوصف الصحراء فإنهم لا يلمون به ليحافظوا على التقاليد، بل ليصوروا به تأبدهم وبعدهم عن الأحياء، أو ليصوروا فيه بأسهم واحتمالهم للشدائد وصبرهم على الأهوال [١]:

على أنهم لم يهملوا كل الإهمال وصف الأطلال ، أو وصف المرأة، أو وصف الطيف ، أو وصف الظعن ، تلك الأوصاف التى تطالعنا فى الغالب فى مقدمات القصائد الرسمية ، فقد تحولوا بهذه التقاليد من مرتبة الحذق والمهارة الفنية إلى التعبير عن أحاسيسهم المختلفة ، ونوازعهم المتباينة ، من حنين إلى الوطن ، وملل من الاغتراب ، ونزوع إلى الأهل والأحباب ، وبذلك استبقوا هذه الأوصاف الموروثة ، ولكنهم حققوا الاستقلال لها عن الأغراض التقليدية ، فلوصف الأطلال قطع خاصة بها يصورون فيها اشتياقهم إلى مرابعهم ورغبتهم فى الاستقرار ، وللغزل والطيف والظعائن قطع مقصورة عليها يصفون فى كل منها حنينهم إلى صاحباتهم وإلى الالتقاء بهن ومبادلتهن برىء الوداد والوصال . ومن ذلك قول عبيد بن أيوب يحن إلى موطنه وقد غاب عنه واستبد به الشوق إليه [٢] :

أَلا ليت شعرى هل تَغَيَّرَ بعدنا ... عن العَهْدِ قَارات الظُّلَيْفِ الفَوارد [٣]

وهل رَامَ عن عَهْدِى وُدَيْكٌ مكانَه ... إلى حيث يُفْضِى سَيْلُ ذات المساجد

وعلى هذا النحو كان إلمامهم بالحديث عن مسارح شبابهم أشبه بخفقات

---

(١) ديوان القتال الكلابى ص : ٤١ ، والأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٣ .

(٢) معجم البلدان ٦ : ٨٩ .

(٣) الظليف : غلظ من الأرض .

قلوبهم المضطربة وهم مبعدون مشردون عن ديارهم ، فإذا هو قصير موجز ، وإذا هم لا يطيلون فيه ، بل يضمنونه حنينهم الفياض إلى أوطانهم .

ومثله كان حديثهم عن أطياف خليلاتهم ، فقد عبروا فيه عن نزوعهم الجامح إلى بيوتهم التى هجروها أو إلى أزواجهم اللائى حال الحبس بينهم وبينهن ، ومن أروع الأمثلة على ذلك قول السمهرى بن بشر العكلى وهو فى السجن (١) :

أَلا أَيها البيتُ الذى أَنا هاجِرُهْ ... فلا البيتُ مَنْسِيٌّ ولا أَنا زائِرُهْ
أَلا طَرَقَتْ ليلى وساقى رهينةٌ ... بِأَشهبَ مشدودٍ عَلَيَّ مسامِرُهْ
فإِن أَنْجُ ياليلى فَرُبَّ فَتًى نَجَا ... وإِنْ تَكُن الأُخرى فشيءٌ أُحَاذِرُه

فإنه مزاجٌ من الالتياع والأسى والأمل والخوف والحنين .

وهل أدل على قلقهم واشتياقهم وتعلقهم بالمرأة وحبهم للاستقرار ، وبغضهم للتشرد من قول القتّال الكلابى يصور أظعان صواحبه وهى تتراءى له فى هذه المقطوعة (٢) :

عبدَ السلام تَأَمَّلْ هل تَرَى ظُعُناً ... إِنى كَبُرتُ وأَنتَ اليومَ ذُو بَصَرِ (٣)
لا يُبْعِدُ الله فتياناً أَقولُ لهم ... بالأَبْرَقِ الفَرْدِ لَمَّا فَاتَهُمْ نَظَرى (٤)
يَا هَلْ تَراءَى بِأَعْلَى عَاسِمٍ ظُعُنٌ ... نَكَّبْنَ فَحْلَيْنِ واسْتَقْبَلْنَ ذَا بَقَرِ (٥)
صَلَّى على عمْرَةَ الرحمنُ وابنَتَها ... ليلى وَصَلَّى على جَاراتِها الأُخَرِ
هُنَّ الحرائرُ لا رَبَّاتِ أَحْمِرَةٍ ... سودُ المحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّورِ (٦)

فهذه الشواهد ومثيلاتها لا تدل على أنهم كانوا يقدمون بها بين أيدى الموضوعات

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ : ٥٣ .
(٢) خزانة الأدب ٣ : ٦٦٨ ديوانه ص : ٥٣ .
(٣) عبد السلام : ابن القتال .
(٤) الأبرق الفرد : موضع .
(٥) عاسم : ماء . فحلين : موضع فى جبل أحد . ذو بقر : واد .
(٦) المحاجر : ما يقع عليه النقاب من الوجه .

التقليدية ، على شاكلة ما كان يفعل الشعراء الرسميون ، وإنما تدل على أنهم فصلوها عنها ، واتخذوها وسيلة إلى التعبير عن عواطفهم نحو أوطانهم وأهليهم وأزواجهم ، وعما كان يدور بأخلادهم من تفكير فى مصيرهم وحياتهم القلقة غير المستقرة ، وسأمهم لها ، ورغبتهم فى العيش كغيرهم هادئين وادعين .

ومن الطبيعى أن أشعارهم مادامت قد اتخذت شكل المقطوعات القصيرة كانت متلاحمة ومتماسكة تتمثل فيها الوحدة الموضوعية بأجلى صورها وأوضح مظاهرها فلا تفريع فى المعانى ولا تعدد فى الأجزاء ، ولا أدوات للربط بينها ، كما هو الشأن عند الشعراء التقليديين ، وإنما هى خواطر ومعان محددة كانوا يعبرون عنها فى أبيات معدودة ، ولعل فى الأمثلة السابقة ما يثبت ذلك ويوضحه. ولكن لابد أن نلاحظ أن قصائدهم المطولة التى مدحوا أو استعطفوا فيها كانت تشتمل على أكثر من موضوع ، كما توسلوا إلى الوصل بين أجزائها بالروابط المعروفة ، على نحو ما يظهر ذلك فى مدحة القتّال الكلابى العينية لعبد الله بن حنظلة الكلابى ، فقد استهلها بمقدمة وصف الظُّعُن ، ثم قفز منها إلى المدح رابطاً بينها وبينه بقوله: « دع ذا »[1]:

دعْ ذا ولكنْ حاجتى من جَعْفَرٍ رَجُلٌ تَطَلَّعَ للأُمور مَطَالعا[2]

وكل أولئك ظواهر فنية كان لها أصولها ونظائرها فى شعر الصعاليك الجاهليين مما وقف الدكتور يوسف خليف عنده ، وعرض له ، وضرب الأمثلة عليه[3].

على أن شعر الصعاليك الأمويين يتصف بصفة أخرى جديدة ، وهى أن عبارته ليست صعبة ، وكلماته ليست غريبة تحتاج إلى الاستخراج ، على عكس شعر أسلافهم من الصعاليك الجاهليين الذين كانت بعض أبياتهم وألفاظهم أشبه بالألغاز التى تستغلق على علماء اللغة أنفسهم وتستعصى عليهم ، حتى لقد كانوا يقفون حائرين أمامها ويختلفون فى معانيها أشد الاختلاف[4].

---

(١) ديوانه ص : ٦٨ .

(٢) تطلع : عرف وعلم . مطالع الأمور : أوجهها ومآتيها .

(٣) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص : ٢٥٧ وما بعدها .

(٤) المرجع نفسه ص : ٣١١ .

وليس معنى ذلك أن شعرهم يخلو خلوًّا تامًّا من أى كلمة غامضة ، وإنما معناه أنه فى جملته سهل قريب المعانى ، واضح المبانى ، وإلا فنحن نعثر لهم بين الحين والآخر على ألفاظ مبهمة لانفقه معانيها إلا إذا استعنا بالمعجمات اللغوية[١] ومع ذلك تظل هذه الصفة نادرة وغير منتشرة انتشاراً واسعًا فى شعرهم .

ولبعض ألفاظهم منزلة الشاهد اللغوى والنحوى . أما الشواهد اللغوية فتزخر بها كتب اللغة والمعاجم ، ولو اتخذنا لسان العرب مثالا عليها لكان فيه ما يغنى عنها ، فإن به شواهد مما اختاره من أشعارهم أكثر من أن نحصيها ونحيط بها[٢] وأما الشواهد النحوية فحسبنا دليلا عليها ما انتخبه عبد القادر البغدادى فى خزانة الأدب ، فنحن نجد أبياتهم منثورة فى تضاعيفها وموزعة على مباحثها[٣] .

ويطفح شعرهم أيضاً بأسماء الأماكن البدوية والصحراوية ، حتى لقد تمثل ياقوت الحموى فى معجم البلدان بكثير من أبياتهم ومقطوعاتهم على المواضع التى ذكرها وضبط شكلها وحدد مواقعها[٤] .

---

(١) انظر على سبيل المثال ديوان القتال الكلابى ص : ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) انظر على سبيل المثال لسان العرب ١ : ٣٥ ، ٢٧٥ ، ٥ : ١٢١ ، ٢٠٥ ، ١٧ : ٢٦٦ ، ٢٠ : ٩٥ .

(٣) انظر على سبيل المثال خزانة الأدب ١ : ٢١١ ، ٣١٧ ، ٣ : ٣٤١ ، ٤٤٤ ، ٦٦٨ .

(٤) انظر على سبيل المثال معجم البلدان ١ : ١٤٧ ، ٢٩٥ ، ٢ : ١٠٨ ، ٣ : ١٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٠ ، ٤ : ٧١ ، ٥ : ١٨٧ ، ٣٥٨ ، ٦ : ١٤٢ .



الفصل الرابع

أعلام الصعاليك الأمويين

١

صعلوك فقير ثائر

مالك بن الريب[١] :

هو من بنى مازن التميميين ، ومولده ومرباه فى بادية تميم بالبصرة[٢] ، وأخباره فى الطور الأول من حياته مجهولة . والراجح أنه شبَّ على ما ينشأ عليه البدو والأعراب من الصرامة والشهامة ، والجد والعبوس ، والنبل وإباء الضيم ، كما تزوج فى صباه من امرأة لا نعرف اسمها أنجبت له ولداً اسمه عُقْبة[٣] ، وبنتاً اسمها شَهْلة[٤] .

ويمكن أن نوزع حياته بعد دور النشأة والتزوج على مرحلتين مختلفتين : مرحلة التصعلك والتلصص ، ومرحلة التوبة والصلاح والجهاد فى سبيل الله . أما فى المرحلة الأولى فيبدو أنه عاش معيشة كلها الكفاف والشظف ، كما كان يرى أن الحكام الأمويين هم مصدر شقائه وافتقاره ، وأنهم كانوا يريدون له أن يذل ويستسيغ الهوان[٥] ، مما أوغر صدره عليهم ، وأغراه بالعصيان والثورة ضدهم ، إذ يصرح تصريحاً لا لبس فيه أنهم ساسة ظالمون جائرون منحرفون سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية السياسية ، فقد كانوا يستوفون من قبيلته ومن غيرها من القبائل ما يفرضونه عليها من الصدقات ، وفى مقابل ذلك كانوا يحتجزون ما لفقرائها وضعفائها من حق معلوم فى الأموال

(١) انظر أخباره وأشعاره فى المحبر ص : ٢٣٠ ، والشعر والشعراء ص : ٣٥٣ ، وأنساب الأشراف ٥ : ١٢٠ ، وفتوح البلدان ص : ٤٠٢ ، والطبرى ٢ : ١٧٨ ، والأغانى ١٩ : ١٦٣ ، ومعجم الشعراء ص : ٢٦٥ ، وذيل الأمالى ص ١٣٥ ، وسمط اللآلى ص : ٤١٨ ، وحماسة ابن الشجرى ص : ٢١ ، والانساب للسمعانى ٤ : ١٥٥ ، ومعجم البلدان ٣ : ١٣٨ ، ٣٣٨ ، ٥ : ١٤١ ، ٦ : ٤ ، ٣٠٩ ، وخزانة الأدب ١ : ٣١٧ ، وشرح شواهد المغنى ص : ٢١٥ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩ : ١٦٣ .

(٣) سمط اللآلى ص : ٤١٩ .

(٤) معجم الشعراء ص : ٢٦٥ .

(٥) الأغانى ١٩ : ١٦٤ .

التى ترد إلى بيت المال ، كما كانوا لا يفرضون لجنودها المقاتلين فى العطاء[١]. ولم يقف ظلمهم لها عند هذا الحد ، فقد مضوا يبعدون أبناء قبيلته عن المشاركة فى الحكم وكأنما كانوا يعاقبونهم ويضيقون عليهم لكى يستكينوا ويستسلموا ويخضعوا لهم . غير أن كيد الحكام الأمويين لهم لم يكن ليستمر ، وإنما كان ينحسر حيناً، ثم يعود أشد وأقوى ، فقد كانوا يبعدونهم ويعسفون بهم مادامو فى أمن وسلام ، ومادامت القبائل غير ثائرة بهم ، فإذا ما انتقضت عليهم ، وأوشكت أن تزعزعهم أخذوا يتقربون من التميميين مذكرين لهم بأنهم من أصل واحد ، وأنه ينبغى عليهم أن يساعدوهم ويقفوا بجانبهم ، قاطعين الوعود لهم بأن لا يعودوا إلى سيرتهم الأولى معهم . وما هى إلا أن يزول الخطر ، ويقمع الثوار ، فإذا هم ينكثون المواثيق ويتحللون منها ، ويرتدون إلى سابق عهدهم من الغدر بهم والمكر لهم[٢]:

ومن أجل ذلك كفر مالك بن الريب بهم وامتلأت نفسه حقداً وسخطاً عليهم ، وآمن بأن خير وسيلة إلى العيش معهم هى الخروج على سلطانهم والتمرد على حكومتهم . وإذا هو لا يلبث أن يميل إلى التصعلك ، وينحرف إلى التلصص معتمداً الغزو والإغارة سبيلا إلى تحقيق وجوده وكسب قوته ، ومتخذاً ركوب الأهوال والمعاطب طريقاً إلى النبو عن الظلم ، والامتناع على الضيم ، ومؤمناً بأن الله يحرسه ويحميه ، وبأن شجاعته وفرسه وسيفه هى أدواته الناجحة لتوفير ما يريد لنفسه من الغنى والحياة الكريمة الحرة[٣].

ويبدو أنه قبض عليه فى هذه الفترة إما لجناية جناها وإما لسرقة سرقها ، وزج به فى السجن بمكة[٤]. فقضى فيه مدة لا نعلم مقدارها ، ثم أفرج عنه ، وخرج من السجن أشد نقمة ، وأصح عزماً ، وأكثر تصميماً على العصيان والتمرد ، وكأنما جعل همه ووكده إثارة الفوضى والاضطراب ضد الأمويين . واتخذت ثورته صورة الغارات المنظمة على القوافل ، والطرق ، إذ نراه بعد ذلك منضماً إلى عصابة كل أفرادها أولو بأس شديد ، وكلهم مشهورون

(١) الأغانى ١٩ : ١٦٤ .
(٢) الأغانى ١٩ : ١٦٥ .
(٣) الشعر والشعراء ص : ٣٥٣ .
(٤) المحبر ص : ٢٣٠ ، والطبرى ٢ : ١٧٨ ، والأغانى ١٩ : ١٦٣ .

بالفتك ، وكلهم ناقمون ساخطون ، كما كانوا جميعاً من بنى تميم مثل أبى حردبة المازنى ، وغُوَيْث ، وهما من تميم صليبة ، ومثل شظاظ الضَّبى ، وهو من موالى بنى تميم ، إلى غيرهم من الأعراب التميميين الذين كانوا يؤلفون صعاليك هذه العصابة الرهيبة الفاتكة ، والذين أخذوا يتربصون بالناس فى القصيم وبطن فالج ، ويرعبونهم ويغتصبون منهم كل ما يملكون[1] .

على أن خبرهم وشكوى الناس منهم سرعان ما نقلا إلى مروان بن الحكم عامل المدينة ، فهربوا منه ، غير أنه لم يُنْظِرهم ، بل كتب إلى عامله على بنى عمرو بن حنظلة وهو الحارث بن حاطب الجمحى أن يطلبهم ، ففروا منه واختفوا عنه ، فاجتهد فى تعقبهم ، وأرسل إليهم رجلا من الأنصار ، وكلفه بالقبض عليهم ، فلم يزل يبحث عنهم ، ويترصد لهم حتى وقعوا بقبضته ، فكبل أبا حردبة وبعث به إلى المدينة ، واستبقى مالكاً وغيره من الأعراب معه ، وأسند أمره إلى غلام له ، فجعل يسوق مالكاً ، وهو يتحين منه غفلة حتى يفلت منه . وما هى إلا أن يغفل الغلام فإذا مالك ينتزع سيفه منه ، وينقض به عليه ، فيقتله ، ويقتل الأنصارى ويقتل كل شُرَطِه ومن كان معه من رجال مروان بن الحكم ، ويلحق بأبى حردبة فيفك قيده ، ويخلصه من الأسر ، ويستوليان على إبل الأنصارى وسلاحه ، ويفران هاربين حتى أتيا البحرين[2] .

ووهم المرزبانى حين ظن أن مالكاً هرب من الحجاج لأنه هجاه ، وأنه نسك بأخرة من عمره ، فأمَّنه بشر بن مروان ، وخرج إلى خراسان فغزا مع سعيد بن العاص[3] . وربما أغراه بذلك وأوقعه فى الخطأ أن ابن قتيبة ، والمبرد روياله قطعة فى هجاء الحجاج . والصحيح أن ابن قتيبة والمبرد قد وَهِما حين نسباها إليه لأنها ليست له ، وإنما هى لشاعر تميمى يسمى البرج بن خنزير المازنى ، يهجو فيها الحجاج لأنه ألزمه الخروج فى البعث إلى المهلب بن أبى صفرة لقتال الأزارقة ، فهرب

---

(١) الشعر والشعراء ص : ٣٥٣ .

(٢) الأغانى ١٩ : ١٦٤ .

(٣) معجم الشعراء ص : ٢٦٥ .

(٤) الشعر والشعراء ص : ٣٥٤ ، وعيون الأخبار ١ : ٢٣٦ ، والكامل ٢ : ١٠٤ .

منه إلى الشام وأخذ يندد به[١] . وللبرج قطعة أخرى يهجو فيها الحجاج كذلك ، وهي تتصل أيضاً بهذه الحادثة[٢].

ومما يدل على صحة نسبة الأبيات للبرج أن الحجاج لم يكن شيئاً مذكوراً فى هذا الزمن المتقدم ، وإنما كان مغموراً . ثم ذاع صيته بعد أن وَلِىَ العراق لعبد الملك ابن مروان ، وكان المهلب بن أبى صفرة فى هذا الوقت يقاتل الأزارقة ، وكان الناس قد توانوا وتقاعدوا عن الالتحاق بالجيش فأخذهم الحجاج أخذاً شديداً ، ونكل بالمتقاعدين منهم حتى ركبوا كل صعب وذلول ، وخرجوا على وجوههم يريدون المهلب[٣] . ومضمون الأبيات فى القطعتين يدور على هذه الأحداث ويتصل بها ، أضف إلى ذلك أن مالك بن الريب مات قبل أن يتولى الحجاج العراق ، إذ توفى سنة سبع وخمسين للهجرة .

ومعنى ذلك أن مالكاً لم يهج الحجاج ولا هرب منه ، وإنما هجا مروان ابن الحكم عامل معاوية على المدينة[٤] . بعد أن أرسل إليه سعاته وشرطه ليقبضوا عليه وعلى أفراد عصابته ، فقتلهم ، وفر إلى البحرين ، وهناك توافد أصحابه عليه ، ثم قطعوا جميعاً إلى فارس ، ولم يزالوا بهـــا حتى قدم عليهم سعيد ابن عثمان بن عفان — لا سعيد بن العاص كما يزعم المرزبانى — وهو يقود جيشاً من جيوش الفتوح الإســـلامية إلى خراسان ، فَعَرَّجَ عليهم ، بعد أن أُعْلِمَ بمكانهم وعرف خبرهم ، وناقش مالكاً فى سبب تمرده وعصيانه ، وعبثه وفساده ، فاعترف له بأن الفقر والعوز والعجز هى التى حملته على كل ما فرط منه ، فضمن له ما يريد وفرض له خمسمائة درهم فى كل شهر ، واستصحبه معه إلى خراسان[٥].

ومن هنا تنتهى المرحلة الأولى من حياته ، تلك المرحلة التى يوصف فيها بأنه كان فاتكاً لصًا يقطع الطريق[٦]، وتبدأ المرحلة الثانية من حياته ، تلك التى يوصف

---

(١) معجم البلدان ٣ : ٣٠٤ .

(٢) المصدر السابق ٤ : ١٥ .

(٣) مروج الذهب ٣ : ١٣٧ .

(٤) الطبرى ٢ : ١٦ ، ١٨٠ .

(٥) الأغانى ١٩ : ١٦٣ ، وذيل الأمالى ص : ١٣٦ ، وسمط اللآلى ص : ٤١٩ ، وشرح شواهد المغنى ص : ٢١٥ ، وخزانة الأدب ١ : ٣٢١ .

(٦) الشعر والشعراء ص : ٣٥٣ ، والأغانى ١٩ : ١٦٣ ، ومعجم الشعراء ص : ٢٦٥ .

فيها بأنه فاضل عاقل[١] . وينطلق مع سعيد بن عثمان بن عفان إلى خراسان بعد أن استتابه سنة ست وخمسين للهجرة ، ويشترك معه فى الفتوح الإسلامية فيما وراء نهرجيجون ، ويبلى بلاء حسناً فى معارك عديدة منها يوم النهر ، ويوم طَاسَى[٢] . كما يُبْلى فى فتح بخـارى وسمرقند[٣] . ثم يستشعر فى سعيد ضعفاً وركوناً إلى الهدنة قبل أن يفتح سمرقند ، فيأخذ فى تحريضه على الحرب والقتال ، ويبدو أن سـعيداً تباطأ فى الأخذ برأيه ، فأغاظه وأحقده ، وإذا هو لا يكتفى بتحريضه ، بل يهجوه هجاء مرّاً[٤] . ولم يلبث سعيد أن افتتح سمرقند ، وفاز مالك منها بحظ وافر من الغنائم والأسلاب .

وتصادف أن معاوية بن أبى سفيان خاف سـعيداً بعد أن افتتح بخارى وسمرقند ، وأصبح له فى خراسـان نفوذ ومكانة مرموقة ، فعزله ، وقفل سعيد عائداً ، وبينما هو فى طريقه إلى المدينة ومالك معه مرض مالك بموضع يقال له « الطَّبَسَان » ، واشتدت به العلة ، ومات قبل أن يعود إلى موطنه وأهله . وقيل بل مات وهو فى الغزو ، إذ طعن بطعنة فسقط وهو بآخر رمق ، وقيل : بل مات وهو بخان فرثته الجن لما رأت غربته ووحدته ، ووضعت الصحيفة التى فيها القصيدة اليائية تحت رأسه[٥] .

وطبيعى أن الرواية الأخيرة أسطورة من الأساطير ، أما الرواية الثانية فضعيفة ، وأما الرواية الأولى فهى الصحيحة الراجحة ، فيما يظهر ، لأنه لا يذكر فى القصيدة التى رثى بها نفسه رثاء حاراً مؤثراً أنه طُعِنَ وهو يجاهد ، وإنما يذكر فيها أنه كان يجود بنفسه وهو قافل من خراسان .

على أن أبا سعيد السكرى يقول إنّ مالكا لم يبق مع سعيد بن بن عثمان بن عفان إلى سنة ثمان وخمسين ، وإنما تركه وانصرف عائداً إلى البصرة[٦] قبل ذلك بزمن

---

(١) الأنساب للسمعانى ٤ : ١٥٥ .
(٢) معجم البلدان ٦ : ٤ .
(٣) فتوح البلدان ص : ٤٠١ .
(٤) الطبرى ٢ : ١٧٩ .
(٥) الشعر والشعراء ص : ٣٥٣ ، والأغانى ١٩ : ١٦٩ ، وذيل الأمالى ص : ١٣٦ ، وسمط اللآلى ص : ٤١٩ ، وخزانة الأدب ١ : ٣٢١
(٦) معجم البلدان ١ : ٧٤ .

لأن سعيداً جفاه ، ولم يحقق له شيئاً مما وعده به . ويقول أيضا إنه مرض بنيسابور وهو قافل إلى البصرة وأخذ يرثى نفسه ، مما يدل على أنه توفى قبل سنة ثمان وخمسين للهجرة بقليل ، وهى السنة التى رجع فيها سعيد بن عثمان من خراسان إلى المدينة .

شعره :

وصل إلينا قدر صالح من شعر مالك بن الريب ، وهو منثور فى تضاعيف كثير من المصادر الأدبية واللغوية والنحوية والتاريخية والجغرافية . وعلى نحو ما وزّعنا حياته على دورين متميزين يمكن بالمثل توزيع شعره عليهما ، إذ فيه قسم يتصل بطور التصعلك والتلصص والسخط والثورة ، وفيه أيضاً قسم آخر يتصل بطور التوبة والصلاح ، وما كان فيه من مصاحبته لسعيد بن عثمان بن عفان ، ومساهمته فى نشر الدين الحنيف فى أرجاء الأرض ، ومشاركته فى فتح بخارى وسمرقند .

أما القسم الأول من شعره فيدور معظمه حول كثير من الموضوعات التى دار عليها شعر الصعاليك الأمويين ، ففيه حديث عن غضبه وتمرده ، وفيه هجاء وتهديد للعمال والولاة ، وفيه وصف لتشرده وتأبده فى القفار ، وفيه وصف لشدته وبأسه ، وتساميه ونبله ، واعتماده على الغزو والإغارة ، وفيه حديث عن سجنه ، وفيه حنين إلى موطنه وأهله وزوجه وأولاده ، مما وقفنا عنده فى الفصول السابقة . غير أننا نضيف إليه أبياتاً ومقطوعات أخرى له تتعلق بهربه من مروان ابن الحكم ، وفتكه بسعاته ، وتنديده بعماله ، على شاكلة ما نرى فى قوله[١] :

تـألّى حلفةً فى غير جُرْمٍ ... أميرى حارثٌ شِبْهَ الضِّرار[٢]

عَلَىَّ لأُجْلَدَنْ فى غَيْر جُرْمٍ ... ولا أُدْنَى فَيَنْفَعُنِى اعتذارى

وقلت وقد ضَمَمْتُ إلىّ جأْشى ... تَحَلَّلْ لا تَـأَلَّ عَلَىَّ حَار

فإنى سوف يَكْفِينِيكَ عَزمى ... ونَصِّى العِيسَ بالبلد القفار[٣]

إذا ما حالَ رَوْضُ رِبابَ دونى ... وَتُثْلِيثٌ فشأْنَك بالبِكار[٤]

---

(١) الأغانى ١٩ : ١٦٣ .

(٢) الضرار : العقاب الذى لا يفيد ولا يجدى .

(٣) النص : حث الإبل على السير .

(٤) البكار : النوق القوية .

وأنيابٍ سَيُخْلِفُهُنَّ سيفى وشَدَّاتِ الكَمِىِّ عَلَى التجار[١]

فهو يصور كيف أن الحارث بن حاجب الجمحى أقسم بعد أن أمره مروان ابن الحكم بتعقبه أن يقبض عليه ويقيده ويجلده ، وكيف أنه كان يهزأ منه ومن قسمه ويدعوه إلى التريث والتأنى فى الأمور ، مبيناً له أن صنيعه معه ليس مما ينفع الناس ، ومهدداً إياه ومندداً به ، ومعتداًّ بصلابته وقوته ، ومعتمداً على ناقته الفتية التى تضمن له البعد عنه ، والنجاة من عذابه ، ومردداً أنه لن يكف عن الغزو وإنما سيمعن فيه لنهب الإبل والنوق وقطع الطرق ومهاجمة القوافل .

وفى بيتين آخرين يتهكم بغلام الأنصارى ساعى الحارث بن حاجب ، ويدمغه بأنه ليس من الرجال الأقوياء الذين خبروا الحرب وبلوا الشدائد مستصغراً لنفسه ومستكثراً عليها أن تستكين له وتنقاد إليه ، وهو خادم مأجور رخص البنان ممتلىء الجسم منعم مترف ينوء بحمل السيف ، ومصوراً انقضاضه عليه ، واختطافه للسيف منه ، وقتله له به ، وفكاكه من أسره وقيوده ، يقول[٢] :

غلام يقول السيفُ يُثْقِلُ عاتقى إذا قادَنى وَسْطَ الرجالِ المُجَحْدلُ[٣]

فلولا ذبابُ السَّيْفِ ظَلَّ يَقُودُنى بنِسْعَتِهِ شَثْنُ البَنَانِ حَزَنْبَلُ[٤]

وله مقطوعة ثالثة يصف فيها صرعه للص حبشى ، وهو أفلح الذى كان يقطع الطريق بفارس ، والذى ظن أنه وقع على صيد ثمين حين عثر عليه فى أعماق الصحراء ، دون أن يعلم أنه ابتلى برجل صلب الفؤاد ، متمرس بالأهوال ، لايخشى الشدائد ، ولا يرهب الحياة فى المفاوز الموحشة ، ولا يخاف حلكة لياليها ، ولا يتردد فى أمر ، يقول[٥] :

أَنَّى أُتِحْتَ لشائِكٍ أَنيابه مُسْتَأْنسٍ بِدُجَى الظلامِ مُنَازِلِ

---

(١) الأنياب : النوق المسنة .

(٢) الأغانى ١٩ : ١٦٥ .

(٣) المجحدل : الأجير .

(٤) النسعة سيور من جلد . الحزنبل : القصير .

(٥) الأغانى ١٩ : ١٦٥ .

لا يَسْتَرِيعُ عظيمةً يُرْمَى بها حَصَّاءَ تَحْسُرُ عن عظام الكاهل[١]
لم يَدْرِ ما غُرَفُ القصور وفَيْؤُها طِيباً ونَخْلُ سوادها المُتَمَايِل
يقظُ الفؤاد إذا القلوب تآنَسَتْ جَزَعاً وَنُبَّهَ كلُّ أَرْوَعَ باسل
فوَجَدْتَهُ ثَبْتَ الجِنانِ مُشَيَّعاً رَكَّابَ مَنْسِجَ كلِّ أَمْرٍ هائل[٢]
فقراكَ أَبيضَ كالعقيقةِ صارماً ذا رَوْنَقٍ يَغْشَى الضَّرِيبَةَ فاصل[٣]

وللأبيات قيمة أخرى إذ تصور اغترابه وتَخَفِّيه وشجاعته وقوة احتماله وصبره على الأخطار والخطوب . ومثلها قطعة أخرى يصف فيها رميه لذئب طاف به وحاول افتراسه وتمزيقه ، فنهض إليه وضربه بسيفه ضربة قسمته شطرين ، يقول[٤] :

أَلم تَرَنِي ياذئْب إذْ جئْتَ طارقاً تُخَاتِلني أَنِّي امْرؤٌ وافِرُ اللُّبِّ
زَجَرْتُكَ مَرَّاتٍ فلمَّا غَلَبْتَني ولم تَنْزَجِرْ نَهْنَهْتُ غَرْبَكَ بالضَّرب
فَصِرْتَ لَقىً لَمَّا عَلاَكَ ابنُ حُرَّةٍ بأَبْيَضَ قَطَّاعٍ يُنَجِّي من الكَرب
أَذئبَ الغَضَا قد صِرتَ للناس ضحكةً تَغَادَى بك الركبان شرقاً إلى غرب
فأَنت وإن كنت الجرىءَ جَنَانُهُ مُنِيتَ بضرغامٍ من الأُسُدِ الغُلْبِ
بِمَنْ لا ينامُ الليلَ إلا وسيفُهُ رهينةُ أَقوامٍ سراعٍ إلى الشَّغْب
أَلا ربَّ يومٍ رِيبَ لو كنت شاهدًا لَهَا لَكَ ذكرى عند مَعْمَعَةِ الحَرْبِ
أَرى الموت لا أَنْحَاشُ عنه تكرُّماً ولو شئتُ لم أَركبْ على المركب الصعب
ولكن أَبَتْ نفسى وكانت أَبيَّةً تقاعَسَ أَو تنصاعَ يوماً من الرُّعْبِ

فالأبيات كسابقاتها توضح جرأته وإقدامه ، وشموخه وتعاليه ، وما كان

---

(١) يستريع : يتحير ويرتاع . الحصاء : المشئومة .
(٢) منسج الأمر : شره وخطره .
(٣) العقيقة : ضوء البرق الساطع .
(٤) الأغانى ١٩ : ١٦٦ .

يأخذ به نفسه من الجد والصرامة ، حتى لقد كان يرميها على المهالك رمياً ، ويقحمها على الموت إقحاماً دون خوف أو مبالاة ، لكى يحافظ على إبائه وشهامته ، ويمتنع عن الضيم والهوان .

أما القسم الثانى من شعره الذى أنشأه فى الدور الثانى من حياته ،دور التوبة والصلاح ، فيكشف عن إيمانه العميق ، وتدينه الشديد ، وحرصه على نشر الدين الجديد ، ومقاتلة أعداء الله ، وإسلامه نفسه ومصيره إلى خالقه . ومن أروع مايدل على ذلك عنده قوله ، وقد تعلقت ابنته بثوبه وبكت ، خوفاً من أن يطول سفره أو يحول الموت بينها وبين لقائه ، بعد أن رأته يستعد للخروج مع سعيد بن عثمان ابن عفان إلى خراسان [١] :

وَلَقَدْ قُلْتُ لابْنَتِى وَهْى تُبْكى بدَخيلِ الهُمُومِ قَلْباً كَئِيبا
وهى تُذْرى من الدُّموعِ عَلَى الخدَّ ينِ من لَوْعةِ الفراقِ غُروبا[٢]
عبراتٍ يَكَدْنَ يجْرَحْنَ مَاجُزْ نَ به أَوْ يَدَعْنَ فيه نُدُوبا[٣]
حَذَرَ الحتفِ أَن يُصيبَ أَباها ويُلاقى فى غيرِ أَهلٍ شُعُوبا[٤]
أُسكُتى قد حَزَّزْتِ بالدَّمع قلبى طالما حَزَّ دمعُكُنَّ القلوبا
فعسى الله أَن يُدَافعَ عَنِّ رَيْبَ ما تحذرين أَو أَوُوبا[٥]
ليس شيئاً يشاؤُه ذو المعالى بعزيزٍ عليه فادْعِى المُجيبا
وَدَعِى أن تُقَطِّعى اليومَ قَلْبى أَو تُرينى فى رِحْلَتى تعذيبا
أَنا فى قَبْضَةِ الإِله إذا كنـ ت بعيدًا أَو كنت منك قريباً
كم رأَيْنَا امْرَأً أَتَى من بعيدٍ ومُقِيماً على الفراش أُصِيبا

---

(١) الأغانى ١٩ : ١٦٧ .
(٢) الغروب : يعنى الدموع الغزيرة .
(٣) الندوب : الجروح .
(٤) شعوب : المنية .
(٥) آب : رجع .

فَدَعِينى مِنِ انْتِحَابكِ إنّى لا أُبالى إذا اعتزَمْتُ النَّحيبا
حسبيَ اللهُ قد قَرَّبْتُ للسَّير عَلاةً أَنْجِبْ بها مركوبا

وبوْن بعيد بين مالك الصعلوك المتمرد ، ومالك الصالح الحريص على الجهاد وكأنما صفَّت العقيدة نفسه وطهرتها فإذا هى خالصة من كل الشوائب ، وإذا هى حريصة على الاستشهاد . فقد أخذ يزجر ابنته وقرة عينه زجراً ، لكى تكف عن البكاء والعويل ، ولكى يربط على قلبها فى هذا الموقف الصعب المؤلم الذى تعلقت فيه به ، تريد أن يقعد عن الجهاد ويتخلف عن الغزو ، مطمئناً لها بأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، ومؤمناً أشد إيمان وأعمقه بأنه إنما يقوم بما هو مفروض عليه من الجهاد ، فإن جاهد وقدر الله له السلامة عاد إليها ، وإلا فقد استشهد فى سبيل الله ، وأدى ما عليه من الفرض المكتوب .

وعلى هذا النحو أضاءت العقيدة نفس مالك فى الطور الثانى من حياته فإذا هى ملتهبة متوقدة ، تريد أن تقاتل فى سبيل الله وتجاهد المشركين ولا تصبر عليهم ، فقد حدث أن توانى سعيد بن عثمان بن عفان بعض التوانى عن مناهضة الصُّغد فى سمرقند ، وآثر العافية والسلامة على القتال والجهاد ، والصلح على الفتح بالسيف ، فلم يرتض مالك فعله ، بل أخذ يحضه على الجهاد ، ويَظهَرُ أن سعيداً لم يلْق بالا إليه ، مما أغضبه وأسخطه ، وحمله على التنديد به ، واتهامه بالجبن والعجز ، وضعف العقيدة ، حتى لقد نفاه عن والده ، وَجرَّده من خصاله من الشجاعة وجودة الرأى وصحة العزم ، يقول[1] :

ما زِلْتَ يَوْمَ الصُّغْد تُرْعِدُ واقفاً من الجُبْنِ حَتَّى خِفْتُ أَن تَتَنَصَّرا
وما كان فى عثمانَ شيءٌ عَلِمْتُهُ سوى نَسْلِهِ فى رَهْطِهِ حين أَدْبَرا

ومضى يرميه بقلة الفضل واليمن لكى يحمِّسه لعله ينقَضُّ على الصُّغْد ، ويتغلب عليهم ويفتح سمرقند ، مذكِّراً له بالانتصارات السابقة التى سجلوها فى يوم طاسَى ويوم النهر ، ذينك اليومين اللذين قاتل هو وغيره من المجاهدين فيهما قتالا شديداً حتى

---

(١) الطبرى ٢ : ١٧٩ ، وفتوح البلدان ص : ٤٠٣ .

حققوا النصر وسحقوا أعداءهم ، يقول[١] :

يا قلَّ خَيْرُ أَمِير كنتُ أَتْبَعُهُ ... أَلَيْسَ يَرْهَبنى أَم ليس يَرْجُونى
أَم ليس يرجو ـ إذاما الخيلُ شَمَّصَها ... وَقْعُ الأَسِنَّة ـ عَطْفِى حين يدعونى[٢]
لا تَحْسَبَنَّا نَسِينا من تَقَادُمِهِ ... يوماً بطَاسَى ويَوْمَ النَّهْر ذا الطين

ومازال به يحرضه ويحمسه حتى خرج إلى الصُّغْد وقاتلهم فهزمهم وانتصر عليهم ، وفتح مدينتهم[٣].

على أن مالكاً لم تلبث أن طالت به الغربة ، واستبد به الحنين إلى الوطن والأهل فأخذ يتغنى بشوقه إليهم ، وإحساسه بالوحدة والوحشة وهو بعيد عنهم ، ومن ذلك قوله[٤] :

تذكِّرنى قبابُ التُّرْك أَهْلِى ... وَمَبْدَاهُمْ إذا نَزَلُوا سَنَاما
وصَوْتَ حَمامةٍ بجبال كِسٍّ ... دَعَتْ مَعْ مَطْلَع الشَّمْسِ الحماما
فَبِتُّ لِصَوْتِها أَرِقاً وباتَتْ ... بمَنْطِقِها تُرَاجِعُنى الكَلاما

ويستدير فصل الصيف بحرارته ودفئه وما بعث من حركة ونشاط فى نفس مالك ، ويجىء الشتاء ويغطى الثلج قمم الجبال بالترمذ ، ولا يحتمل مالك البرد بل يقشعر بدنه منه ، ويستبد الشوق به ، ويشعر أنه أدى ما عليه من فرض الجهاد ، ويأخذ فى الإلحاح على سعيد أن يرجع إلى الوطن مردداً أنهم نهضوا بواجبهم وفازوا بالنصر على أعدائهم ، وأن الثلج عدو لا يجاهد ولا يقهر ، وأن من الخير أن يقفل عائداً بهم ، وفيهم بقية من صبر وفضل من جلد ، وإلا فإنهم مغلوبون مهز ومون ، يقول[٥] :

---

(١) معجم البلدان ٦ : ٤ .
(٢) العطف : الكر والإقدام .
(٣) الطبرى ٢ : ١٧٩ .
(٤) معجم البلدان ٥ : ١٤١
(٥) فتوح البلدان ص : ٤٠٢ .

هَبَّت شمالٌ خريقٌ أسقطت وَرَقًا ... وَٱصْفَرَّ بالقَاع بَعْدَ الخضرة الشِّيحُ
فَارْحَل هُدِيتَ ولا تَجْعَلَ غَنِيمَتَنَا ... ثَلْجاً تُصَفِّقُهُ بالتِّرْمذِ الرِّيحُ[١]
إنَّ الشِّتاءَ عَدُوٌّ ما نُقَاتِلُهُ ... فَٱقْفَلْ هُدِيتَ وثوبُ الرِّقِّ مطروح

وأسلفنا أن معاوية بن أبى سفيان تشكك فى نفس السنة فى سعيد بعد أن فتح بخارى، وسمرقند ، وأصبح له مركز لا بأس به فى خراسان ، فـصـرَفهُ عنها ، ورجع سعيد ورجع مالك معه، وفى الطريق اعتل اعتلالا شديداً أودى بحياته، فرثى نفسه رثاءً يـَفيضُ أسًى وحسرة ، وحنيناً وشوقاً ، رثاءً هو من أشرف القول وأبلغ الكلام ، رثاء ضمنه توبته ورجوعه عن طريق الباطل ، كأنما كان يأمل أن يغفر الله له ما فرط منه فى الشطر الأول من سيئ الأعمال ، وأن يتقبله قبولا حسناً ويدخله فى جنات الخلد جزاء وفاقاً لبلائه وجهاده فى سبيل الله[٢] :

أَلَمْ تَرَنِى بِعْتُ الضَّلالةَ بالهُدَى ... وأَصْبَحْتُ فى جَيْشِ ٱبْنِ عَفَّان غازيا

والقصيدة طويلة يقال إنها ثمانية وخمسون بيتاً[٣]، غير أن أبا عبيدة معمر ابن المثنى يذهب إلى أن ماله منها هو ثلاثة عشر بيتاً ، وأن سائرها منحول عليه[٤].

وواضح أن مالك بن الريب واحد من أشهر الصعاليك الأمويين الفقراء الذين أنشأتهم الأحوال الاقتصادية المختلة ، والذين تمثلوا بوضوح مواطن الضعف والانحراف فى السياسة الأموية ، فقد أعلن أنه إنما تصعلك ليفرض وجوده ، ويكسب رزقه ، ويحافظ على شرفه وعزته وكرامته التى لم يكن لينزل عنها مهما كان الثمن ، ومهما بلغت التكاليف . وفى الوقت نفسه أعلن أنه لم يكن ممن طبعوا على العصيان ، وفطروا على التمرد على النظام والسلطان ، وإنما الغدر والمكر هما اللذان دفعاه إلى الخروج واصطناع الغزو والإغارة نكاية بالخلفاء والأمويين وعمالهم

---

(١) تصفقه : تـُكثفـّه وتزيده .
(٢) الشعروالشعراء ص : ٣٥٤
(٣) ذيل الأمالى ص : ١٣٦ ، وجمهرة أشعار العرب ص : ٢٦٩ ، وخزانة الأدب ١ : ٣١٧
(٤) الأغانى ١٩ : ١٦٩ .

وسعاتهم . فلما وجد العدل والأمن صلح وتاب ، وكفّ عن التلصص وقطع الطرق ، وتوقف عن الفساد فى الأرض ، وغزا مع سعيد بن عثمان بن عفان ، وجاهد لإعلاء كلمة الدين ، وبذل روحه رخيصة لعله يفوز بالاستشهاد فى سبيل الله .

٢

صعلوك فاتك خليع

القتال الكلابي[١] :

هو من عشائر بنى كلاب التى ظلت مستقرة فى نجد ، تحيا على الرعى ، وتعيش على التنقل ، والتى كانت تتبع فى حكمها وتصريف أمورها لأمير المدينة الذى كان يعين فيها عاملاً ينوب عنه .

وفى اسمه واسم أبيه تحريف بَيِّنٌ واختلاف واضح ، والراجح أن اسمه عبيد ابن مجُيب بن المضْرحىّ بن أبى بكر بن كلاب[٢] ، لأن عبد القادر البغدادى ينقل نسبه على هذه الصورة من كتاب أشعار اللصوص لأبى سعيد السكرى ، الرواية المُتَثَبِّت والعالم المُوَثَّق ، والذى كان أبصر من سواه من العلماء بأخبار القتَّال وغيره من الصعاليك واللصوص الأمويين ، لأنه استقصى فى كتابه عنهم أخبارهم وأشعارهم أكمل استقصاء وأدقه[٣] :

وعلى نحو ما اختلف الرواة وحملة الأخبار فى اسمه ونسبه اختلفوا أيضاً فى العصر الذى عاش فيه ، فأبو زيد عمر بن شَبَّة يزعم أنه جاهلى ، ولا دليل عنده على ما يقول[٤] أما أبوعبيد البكرى فيذهب إلى أنه مخضرم ، ويستدل على ذلك بحدّ مروان بن الحكم له[٥] ، والصحيح أنه أموى ، لأن أخباره وجرائره وقعت فى

---

(١) انظر أخباره فى المحبرص : ٢٢٧ ، والشعر والشعراء ص : ٧٠٥ ، وألقاب الشعراء ص : ٣١٢ ، وكنى الشعراء ص : ٢٩٥ ، وأمالى القالى ٢ : ٢٢٣ ، والمؤتلف والمختلف ص : ٢٥٢ ، وسمط اللآلى ص : ١٣ ، ٨٤٦ ، والكامل للمبرد ١ : ٥٤ ، والأغانى (طبعة الساسى) ٢٠ : ١٥٩ ، وخزانة الأدب ٣ : ٦٦٨ .

(٢) خزانة الأدب ٣ : ٦٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٣٤٢ .

(٤) سمط اللآلى ص ١٣ .

(٥) المصدر نفسه ص : ١٣ .

خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وفى ولاية مروان بن الحكم على المدينة ، ومعروف أنه تولى حكمها مرتين : مرة من سنة اثنتين وأربعين إلى سنة تسع وأربعين [١] ، ومرة فى سنة سبع وخمسين [٢] . ويقطع عبد القادر بأنه أموى ، إذ يقول[٣] : إنه شاعر إسلامى ، كان فى الدولة المروانية فى عصر الراعى والفرزدق وجرير .

والقتّال لقب غلب عليه لتمرده وفتكه ، وكنيته أبو المسيّب ، وهو أول أولاده. والظاهر أن القتّال كان أعرابيًّا خشناً جافياً ، فظ القلب ، غليظ النفس ، رقيق العقيدة ، ضعيف الإيمان ، يشهد على ذلك أن الإسلام بمثاليته السمحة ، وما كانت تدعو إليه وتأمر به من الانصياع والخضوع والتسامح والرحمة لم تؤثر فيه ولا صفّت نفسه من الشر والفتك ، فقد كانت المثل الجاهلية والتقاليد القبلية مسيطرة عليه ، وموجِّهة لكل أفعاله ، مع أن الإسلام نهى عنها وحض على نبذها .

ومن هنا كنا نعده مثالا للصعلوك الأموى الجاهل المتعصب الذى كان يؤمن بالحياة الجاهلية وقيمها وما طوى فيها من عصبية بغيضة ، وحب لسفك الدماء والأخذ بالثأر ، كذلك كان أنموذجاً للمتمرد على كل قانون والخارج على كل سلطان . فهو يقاوم عشيرته ويناصبها العداء والهجاء لأنها رفضت الاستسلام لآرائه المتهورة ، وأبت التورط معه فى جرائمه ، ولأنها ألفت الحياة الهادئة المسالمة ، وآثرت المصالحة والمصافاة ، وتمسكت بالنظام وانقادت له ، وقطعت الصلة بينها وبين عاداتها الجاهلية . وهو يقاوم الدولة لأنها كانت تطارده وتلاحقه لتضرب على يديه وتمنع الناس من شره .

وللتقاليد القبلية الجاهلية عنده مظاهر كثيرة ، أولها : أنه كان يؤمن بتماسك العشيرة وتلاحمها ونقاء دمائها وتناصر أبنائها فى الخير والشر . وبلغ من غلبة هذه النزعة على نفسه أنه دعا عمّه أن لا يفضى إلى أَمَةٍ كانت له ، لأنهم قوم يبغضون أن تلد فيهم الإماء . فلما عصاه قتلها [٣] . وثانى المظاهر أنه كان مزواجاً

---

(١) الطبر ٢ : ١٦ ، ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٦٤ ، ١٨٠ .

(٣) الأغانى ٢٠ : ١٦٥ .

فقد تزوج من بنت ورقاء التى ولدت له بعد أن طلقها ابنه المسيَّب ، وتزوج من امرأة ثانية اسمها رَيَّا بنت معن بن عامر ، التى أنجبت له أربعة أولادهم : حبيب وعبد الرحمن وعبد الحى وعمير ، وتزوج أيضاً من امرأة ثالثة اسمها صفية بنت الحارث التى وضعت له ابنته جنوب ، وكان له بنت أخرى ، وولد سادس هو عبد السلام . وبعد ذلك أراد الزواج من بنت المحلق . وهذا الولع بالزواج وتعدد الزوجات قد يدل على أنه كان محباً للنساء ، ولكنه يدل من ناحية أخرى على إيمانه بكثرة الولد ، لكى يكون عزيز الجانب قوياً بنفسه وأسرته ، ولذلك يقول الدكتور إحسان عباس[1] : ربما كان إكثاره من الزواج يعود إلى إيمانه بالسند القبلى إذا هو رزق عدة أبناء يقفون إلى جانبه وينتصرون له . وثالث المظاهر أنه لم يكن يميل إلى فض المنازعات والمشاغبات بالطرق السلمية ، ولا كان يرتضى الصلح ، ولا يقبل الدية ، وإنما كان ينزع نزوعاً قويًا إلى حل أصغر المشاكل بالسيف. وكان أيضاً يكظم غيظه ، ويكتم ما يدَبِّر حتى تحين الفرصة وتتهيأ له الأسباب لكى ينتقم لنفسه . حدث أن أحد أبناء قبيلته وهو جرير ابن الحصين ضربه بسوط على أنفه فغضب وثار ، ومشى شيوخ القبيلة للصلح بينهما فرفض ، وظل يطوى غيظه ويقدِّر للأخذ بثأره حتى كبر أبناؤه فحملهم بليلٍ على خيلٍ وأغار بهم على بنى حصين ، فساق إبلهم وحبسها عنهم ، ومازال يحتجزها حتى أجبره قومه على قبول دية ضربته ، فأخذ أربعين ناقة ، وتنازل عن حقه مكرهاً[2] . ورابع المظاهر أنه كان على شراسته وجفائه يتشبه بالصعاليك الجاهليين وما قامت عليه حياتهم من احتمال الشدائد ، والصبر على حوادث الدهر ، والعفة والنبل والتسامى والكرم فى العسر واليسر ، وركوب الأخطار والتعرض للمكاره دون خوف من الموت أو حرص على الحياة[3] .

وبذلك أعدت كل هذه المبادئ التى كان يؤمن بها ويحتكم إليها لأن يكون شذوذاً فى عشيرته ، فإذا هى ترى فيه مصدر إزعاج لها ، وشراً عليها ، لكثرة

---

(١) مقدمة ديوان القتال ص : ١٧ .

(٢) الأغانى ٢٠ : ١٦٤ .

(٣) ديوانه ص : ٢٩ .

جناياته ، ولطول ما لحقها بسببه من الأذى . وهى وإن لم تخلعه علناً عاملته معاملة الخليع ، إذ كانت تكرهه وتبغضه ، كما تخلت عنه وتخلفت عن مساندته وتحمل جرائره . وكان بدوره ساخطاً عليها ، يرميها بالعجز والجبن .

ومع أن ما احتفظ به الرواة من أخباره نزر يسير ، وفيه تَخْلِيطٌ كثير ، حتى إننا لا نستطيع أن نستخلص منه صورة دقيقة لحياته من فاتحتها إلى خاتمتها ، فإننا يمكن أن نرسم لها فى ضوء ما بقى من أخباره المتناقضة المبتورة صورة ظنية .

وأول ما نعرف من أخباره التى جعلته يعيش ضائعاً خليعاً ، مطارداً مطلوباً للسلطان ، والتى اضطرته إلى التأبد فى الفلوات ، وإلى الانضمام إلى عصابات اللصوص أنه كان يحب فى صدر شبابه ابنة عم له تسمى العالية ، ويبدو أن أهلها نهوه وحذروه ، غير أنه لم يستمع إلى نهيهم ولا اعْتَدَّ بتحذيرهم ، بل أخذ يتردد عليها ويتشبب بها ، فرفعوا أمره إلى عامل المدينة ، فأخذه وحبسه . ولكنهم لم يلبثوا أن زاروه ، وشرطوا عليه أن يستشفعوا له إذا هو امتنع عن التشبيب بها وذكرها فى شعره ، فقبل الشرط وخرج من السجن [1] .

وسرعان ما أنساه الحب ما قطعه على نفسه من المواثيق ، وإذا هو يعاود الاختلاف إلى العالية ، وإذا أخوها يلقاه مرة عندها ، فيهدده ويتوعده بالقتل إذا هو اقترب منها أو اتصل بها . ويستخف بتهديده ووعيده ، ويغريه الحب بالتردد عليها وزيارتها ، ويُبْصِر به أخوها زياد ، ويُبْصِر به القتّال ، فيخرج هارباً ويخرج فى أثره مستلاً سيفه يريد أن يقتله . فلما دنا منه ناشده القتال بالله والرحم فلم يلتفت إليه ، وتصادف أن وجد القتّال رمحاً أو سيفاً فى طريقه ، فتناوله وعطف به على زياد فقتله ، ثم فرَّ هارباً وأهل القتيل يطلبونه [2] ويعلم مروان ابن الحكم عامل المدينة بجريمته ، فيشدد فى طلبه ، ويأمر ولاته على نجد بتعقبه ، ويخصص مكافأة ضخمة لمن يساعد فى القبض عليه [3] .

---

(١) الأغانى ٢٠ : ١٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٥٩ .

(٣) المحبر ص : ٢٢٨ .

ولا يهجر القتّال فى أول الأمر أحياء قبيلته ، بل يظل على اتصال بها ويختفى عند حبيب بن جبار . وتغرى المكافأة التى فرضها مروان بن الحكم أحد بنى العجلان ، فيتجسس عليه حتى إذا عرف مكانه عند ابن جبار وشى به إلى مروان ، فأرسل إليه شرطته وسعاته ، وقبل أن يحاصروا المنزل يحس حبيب بهم ، ويخرج ابنته من حَجَلَتها ويدخل القتال فيها ، ويلبس ثيابها ويرفعها ويصبغ يديه بالحناء ، وينظر السعاة إليها ولا يجدون فيها إلا امرأة ، فيأخذهم الحياء وينصرفون [١] ، وينجو القتال . وحينئذ يقرر أن يبعد الضرب فى الأرض ، فيلجأ إلى جبل عماية ويقيم فى شعابه ويختفى عن رسل السلطان فيها [٢] .

وبعد ذلك تضطرب أخباره وتتناقض تناقضاً شديداً ، فمن قائل إن الشرطة اهتدوا إليه وزجوا به فى السجن لقتله ابن عمه زياداً ، وإنه اغتال السجان وفرّ من حبسه [٣]. ومن قائل إنه حبس لأنه قتل إسماعيل بن هبار على طريق المدينة والشام وهو يحمل تجارة له ، ثم قبض عليه ، وأودع السجن ، ثم قتل السجان وهرب [٤] . ومن قائل : إن السجان شرط عليه أن يطلق سراحه إذا هو قتل إسماعيل بن هبار لإحنة كانت بينهما ، وإن القتّال اغتاله وفرّ من الحبس [٥] ومن قائل إنه لم يشترك فى اغتيال ابن هبار [٦].

والراجح عندى أنه لم يحبس لقتله ابن عمه زياداً ، لأنه لا يصرح فى شعره بذلك ، وإنما يناشد أخاه وعشيرته أن يدفعوا عنه الدية ، ويبدو أنهم لم يتحملوها . وظل مروان بن الحكم وسعاته بعد ذلك يطلبونه ، فعاش مشرداً فى القفار ، واضطر بسبب تشرده وتعذر الرزق عليه ، وتبرؤ عشيرته منه ، وبحث الشرطة عنه إلى أن يرافق اللصوص وقطاع الطرق من البدو والأعراب ، ويغير معهم على القوافل . وأبو سعيد السكرى يعده منهم ، ولولا أنه احترف اللصوصية ، ولولا

---

(١) المحبر ص ٢٢٩ .
(٢) الأغانى ٢٠ : ١٦٠ ، ومعجم البلدان ٦ : ٢١٨ .
(٣) الأغانى ٢٠ : ١٦٢ .
(٤) المصدر نفسه ص : ١٦١ .
(٥) المصدر نفسه ص : ١٦٢ .
(٦) نسب قريش ص : ٢١٩ .

أن السكرى تحقق من ذلك لما نظمه فى اللصوص [١] ولذلك كنا نرجح أنه قتل بالاشتراك مع العصابة التى انضم إليها من قطاع الطرق إسماعيل بن هبار وهو ذاهب بتجارته إلى الشام ، لأن ذلك أقرب إلى الصواب ، فهو من ناحية يتلاءم مع ما يمكن أن يفعله القتّال بعد تخلى عشيرته عنه، ومطالبة السلطان به ، من ميله إلى الإغارة والغزو لكسب قوته ، وهو من ناحية ثانية يتفق مع ما هو معروف عن قريش من اصطناعها للتجارة واعتمادها عليها فى حياتها .

ولماذا نبعد فى الظن والتخمين وابن حبيب يصرح بأن جماعة من فتاك العرب فيهم القتّال الكلابى اعترضوا إسماعيل بن هبار وهو يحمل تجارة إلى الشام فقتلوه وأخذوا ماله . ثم شاع الخبر واتهم به جماعة من بنى كلاب وغيرهم فأخذهم السعاة إلى المدينة وحبسهم مروان بن الحكم ليبحث عن الأمر ويقتل قتلة ابن هبار . فلما خشى القتّال أن يعلم أمره ورأى أصحابه ليس فيهم غناء اغتال السجان وخرج هو ومن كان معه من السجن [٢]

وليس بين أيدينا أخبار بعد هروبه من السجن ، ولكننا نرجح أنه أمضى حياته مشرداً ، وأنه ظل يغزو ويغير . كذلك لا نعلم متى توفى ، ولكن الدكتور إحسان عباس يرجح أنه امتد به العمر إلى خلافة مروان بن الحكم وإلى سنوات قليلة من خلافة عبد الملك بن مروان ، ودليله على ذلك أنه يشير فى شعره إلى يوم بنات قَيْن وهو من الأيام التى نشبت فى عهد عبد الملك [٣].

شعره :

كان للقتّال ديوان شعر رآه الآمدى [٤]، واختار أبو سعيد السكرى من شعره منتخبات استشهد بها على سيرته وجناياته [٥] غير أن ديوانه ضاع ، كما ضاعت المختارات التى انتخبها السكرى ، لأن كتاب : « أشعار اللصوص » فُقِد ولم يصل

---

(١) خزانة الأدب ٣ : ٦٦٨ .

(٢) خزانة الأدب ٣ : ٦٦٨ .

(٣) الأغانى ٢٠ : ١٦١ .

(٤) مقدمة ديوان القتال ص : ١٤ .

(٥) المؤتلف والمختلف ص : ٢٥٢ .

إلينا . وجمع الدكتور إحسان عباس ما تفرّق من شعره فى المصادر المختلفة ، وحققه وأخرجه فى ديوان مستقل.

ويصح أن نقسم شعره كله إلى مجموعتين كبيرتين : مجموعة تتعلق بالمبادئ والمثل الجاهلية التى كان يعتقد بها ، ومجموعة تتعلق بما أدّاه إليه إيمانه بها من استهتار بالقتل ، وما جره عليه ذلك من التشرد والتلصص . أما المجموعة الأولى فتشتمل على كثير من الموضوعات الفرعية ، وتتشعب منها آراؤه فى القبيلة والتقاليد التى يجب أن تحافظ عليها ، وتحتكم فى نظرها للأمور إليها ، وكيف أنها ينبغى لها أن تكون متوافرة فى نفسها ، مهيبة بأبنائها ، ترهبها القبائل الأخرى لبأسها وسطوتها ، وأن تسرع لنصرة أى فرد منها ظالماً كان أو مظلوماً ، ولا تتوانى فى النهوض بجرائره .

وعرضنا فى الفصول السابقة لبعض هذه الأغراض ، وضربنا الأمثلة من شعره عليها ، من مثل تنديده بعشيرته لأنها تقاعست عن مظاهرته ، ورفضت مشاركته فى حمل دية ابن عمه زياد ، ولم يقف عند تنديده بها ، فقد سفّه أحلام سادتها وتبرأ منهم كما تبرأوا منه ، ومضى يدعوهم إلى التمسك بالمثل الجاهلية ، مُزيِّناً لهم أن يحلوا مشاكلهم ومنازعاتهم مع القبائل الأخرى بالسيف ، ومنوها ببعض من مالوا إلى العصيان والتمرد منهم ، وقاوموا سعاة الصدقات ، ومشيداً بغيرهم من العشائر الأخرى ، وخاصة بنى فزارة الذين كان يرى فيهم المثل الأعلى للعشيرة القوية التى لم تزل عن عاداتها الموروثة ، ولا قعدت عن الأخذ بثاراتها . ونزيد على كل ما استشهدنا به قوله يحض أخاه على أن يساهم فى تحمل الدية التى يطالب بها لقتله ابن عمه ، أو أن يشهر السيف لكى يخيف أبناء عمومته لعلهم لا يطالبونه بالدية أو يكفون عن المطالبة بالثأر ، مذكراً له بأنه ينفعه فى الشدائد ، ولا يتأخر عنه فى المحن[١] :

أَيا إخوتى لا أُصبِحَنْ بمُضِلَّةٍ   تُشِيبُ إذا عُدَّت عَلَىَّ النَّواصيا

وشَمِّرْ ولا تجعل عليك غضاضةً   ولا تَنْسَ يا ابن المَضْرَحيِّ بلائيا

واستمع إليه يلوم عشيرته ألذع اللوم ، ويوبخها أقذع التوبيخ ، ويُحَمِّسُها أشد

---

(١) ديوانه ص : ٩٤ .

التحميس ، لكى تثور لكرامتها وشرفها ، وتهب للأخذ بتراتها عند بنى جعفر الذين اعتدوا عليها ، لأنه كان يرى فى قعودها وضعفها أمام خصومها ، وإيثارها للسلم على الحرب ، شر البلاء الذى يصمها بالعار والخزى ويفضى بها إلى المذلة والهوان[١] :

أَفى كل يوم لا تزال كتيبةٌ عُقَيْلِيَّةٌ يَهْفُو عليكم عُقَابُها[٢]

وأَنتم عديدٌ فى حديدٍ وشفرةٍ وغابِ رماحٍ يكسُف الشمسَ غَابها[٣]

لهم جَزَرٌ منكم عَبيطٌ كأَنه وقَاعُ الملوك فَتْكُها واغتصابُها[٤]

فما الشَّرُّ كلَّ الشَّر لاخيرَ بعده عَلَى الناس إلا أَنْ تَذِلَّ رِقَابُها

أرأيت إلى استنكاره لتصرف شيوخ عشيرته ؟ أرأيت إلى استصغاره لهم ؟ إنه لا يطيق أن يغير عليهم المغيرون ، وينكل بها المتنكلون ، قاتلين لأبنائهم ومحتلين لأرضهم ،وأن يجبُنُوا عن دحر العدوان عنهم ، وصد الأذى والمكروه عن أبنائهم ونسائهم وفيهم الفرسان المدججون بكل أنواع السلاح .

ومما يتصل بهذا الجانب عنده أنه كان يعتد اعتداداً عارماً بنفسه ، وأنه عربى نقى العروبة لم يسر إليه دم الإماء[٥] :

أَنا ابنُ أَسماءَ أَعمامى لها وأَبى إذا تَرَامى بنو الإموانِ بالعارِ

لا أَرضعُ الدَّهْرَ إلاَّ ثدىَ واضحةٍ لواضحِ الخَدِّ يَحْمى حَوْزَةَ الجار

من آل سفيان أَو وَرْقاءَ يَمْنَعُها تَحْتَ العَجَاجَةِ ضربٌ غَيْرُ عُوَّار[٦]

أَما الإِمَاءُ فما يَدْعُونَنى وَلَدًا إذا تُحُدِّثَ عن نَقْضى وإمرارى

---

(١) ديوانه ص : ٣٣ .

(٢) العقاب : الحرب أو الراية .

(٣) الشفرة من الحديد : ماعرض وحدد . غاب الرماح : يريد أنها كثيرة تحجب وجه الشمس .

(٤) الجزر : مايباح للذبح . عبيط : طرى . الوقاع : المنازلة فى الحرب .

(٥) ديوانه ص : ٥٤ .

(٦) العوار : الضعيف الجبان .

ولا تظنن أن يفتخر بآبائه وأعمامه وأخواله ، وأنه عربى صميم من قوم أصلاء أقوياء لكى يباهى بكرم أصله وعراقته ، فقد كان يؤمن بنعرة النسب والعِرْق ، وأنها أحمى للحمية ، وأنفى للدنية ، إذ من شأنها أن تثير الأقربين وتحمسهم لدفع الضيم عن أولى أرحامهم[١] :

إن العروقَ إذا اسْتَنْزَعْتَها نَزَعَتْ والعِرْقُ يَسْرِى إذا ما عَرَّسَ السَّارى

أما المجموعة الثانية من شعره فتتوزعها نفس الموضوعات التى توزعت شعر الصعاليك الأمويين ، ففيها وصف لخوفه من السلطان ، وفزعه من العقاب ، وفيها وصف لاختفائه فى جوف القفار وشعاب الجبال ، ومصاحبته للحيوان الوحشى ، وفيها نزوع إلى الاستقرار ، وحنين إلى أزواجه وأولاده ، وفيها وصف لحبسه وقيوده وحارسه وما كان يلقى على يديه من المعاملة القاسية مما ألممنا به فى الفصول الماضية ، غير أننا نضيف إليه أبياتاً ومقطوعات أخرى تصور بعض هذه الموضوعات التى عرضنا لها وأنشدنا الشواهد عليها من مثل حنينه إلى منازل عشيرته ، وكرهه للتشرد ، وحبه للاستقرار ، ومما يوضح ذلك عنده قوله يتشوَّق إلى موطنه وبناته[٢] :

سقى الله ما بين الشُّطُون وَغَمْرَةٍ وبِئْر دُرَيْرَاتٍ وَهَضْبِ دَثِينِ[٣]

أباكيةٌ بعدى جَنوبُ صَبَابَةً عَلَىَّ وأختاها بماءِ عُيُون

وينفرد القتَّال الكلابى بإكثاره من الحنين إلى أهله وبنيه ، وبرغبته فى أن يحيا حياة الناس العاديين ، لطول ما طورد وشرد ، ولشدة ما أحس آلامَ الاغتراب والطلب ، ومصدر ذلك أنه كان مرتبطاً بموطنه وبيته أكثر من غيره من الصعاليك الأمويين ، فقد كان متزوجاً ، وكان له أولاد وبنات يشدونه إليهم ، ويَستولى حبهم على قلبه ، ومن أبلغ ما يصور هذه الظاهرة عنده قوله وقد فرَّ من

---

(١) ديوانه ص : ٥٨ .

(٢) ديوانه ص : ٩٢ .

(٣) الشطون ، وغمرة وبئر دريرات ودثين : مواضع بديار بنى كلاب .

سجن المدينة[١] :

نَظَرْتُ وَقَدْ جَلَّى الدُّجَى طاسِم الصُّوَى بِسَلْعٍ وقَرْنُ الشمس لم يَتَرَجَّل[٢]
إلى ظُعُنٍ بين الرَّسيس فَعاقِلٍ عَوَامِدَ للشِّيقَيْنِ أَو بطن خَنْثَل[٣]
ألا حبذا تلك الديارُ وأهلُها لَوَ انَّ عذابى بالمدينة يَنْجَلى
برزتُ بها من سجن مروان غُدْوَةً فآنَسْتُها بالأَيْم لَمَّا تَحَمَّل[٤]
بكيتُ بِخَلْصَى شَنَّةً شَدَّ فَوْقها على عَجَلٍ مُسْتَخْلِفٌ لم تَبَلَّل[٥]

فأنت ترى فى هذه الأبيات ما كان يستبد بهُ من الشوق إلى بلاد قومه ، وأفراد عشيرته ، وأولاده وبناته وزوجاته ، وإلى حياتهم الطبيعية وما فيها من التنقل والارتحال ، وأنت ترى فيها نفسه المتألمة الحزينة ، ودموعه تسيل على خديه ، مع أنه كان ذا نفس شريسة ، وفؤاد صلب .

على أن أهم موضوع جديد فى هذه المجموعة من شعره هو وصفه لجرائمه البشعة مما يتميز به من سائر الصعاليك الأمويين الذين لم يسفكوا الدماء مثلما سفكها ولاتحدثوا عنها مثلما تحدث عنها ، وكأنما كان يريد أن يذيعها فى الناس ليعرف بها ، فليس من جريمة اقترفها إلاوصورها فى شعره. فحين قتل جارية عمه أعلن قتله لها[٦] .

أَنا الذى ضَرَبْتُها بالمُنْصُلِ عند القُرَيْنِ السَّائل المُفَضَّلِ[٧]
ضَرْباً بكَفَّىْ بَطَلٍ لم يَنْكُلِ[٨]

ووصف نفسه بأنه بطل لأنه قتلها . وحين نبش قبرها وأخرجها منه ، وبقر

---

(١) ديوانه ص : ٧٣ .
(٢) جلى : أبرز . طاسم الصوى : عافى المعالم . سلع : جبل بسوق المدينة . ترجل : ارتفع .
(٣) كل الأماكن التى ذكرها حول المدينة وفى ديار قومه بنجد .
(٤) بها : بالمدينة . آنستها : يعنى رأى تلك الظعن . الأيم : جبل .
(٥) خلصى ؛ موضع الشنة : القربة البالية . المستخلف : المستسقى .
(٦) الأغانى ٢٠ : ١٦٥ ، ديوانه ص : ٨٤ .
(٧) المنصل : السيف . القرين : حد ربوة تشرف على وهدة صغيرة .
(٨) ينكلُ : يجبن .

بطنها أمام شهود عدول لكى يثبت أنها لم تكن حاملا أذاع فعلته الفظيعة واعترف بها[١] :

أنا الذى ٱنْتَشَلْتُها ٱنْتِشالا ثم دَعَوْتُ غِلْمةً أَزْوَالا[٢]
فَصَدَعُوا وكذَّبَو ما قَالا

وعلى هذه الشاكلة مضى يصف جرائمه واحدة واحدة ، مبيناً الأسباب التى دفعته إلى ارتكابها والظروف التى وقعت فيها ، وكأ نما يريد أن يتغاضى الناس عنها ويقروه عليها ، كما نرى فى قوله يصف قتله لابن عمه [٣]:

نَهيْتُ زيادًا والمَهَامِهُ بَيْنَنا وَذَكَّرْتُهُ باللهِ حَوْلاً مُجرّما[٤]
فلمَّا رَأَيْتُ أنَّه غيرُ مُنْتَهٍ ومَوْلَاىَ لا يَزْدَادُ إلا تَقَدُّما[٥]
أَمَلْتُ له كَفِّى بأَبيَضَ صارمٍ حُسام إذا ما صادفَ العظمَ صَمَمَّا[٦]
بِكَفّ امْرِىءٍ لم تَخْدِمِ الحيَّ أُمُّهُ أخى نَجَداتٍ لم يكن مُتَهَضَّما[٧]

وحين قتل إسماعيل بن هبار صرّح بسفكه لدمه ، وبفراره إلى فيافى الدهناء واختفائه فيها لكى لا يقبض عليه[٨]:

تَرَكْتُ ابنَ هَبَّارٍ لَدَى البابِ مُسْنَدًا وَأَصْبَحَ دونى شَابَةٌ وأَرُومُ[٩]
بِسَيْفِ امْرِىءٍ لَنْ أُخْبِرَ الدهْرَ باسمه ولو أَجْهَشَتْ نفسى إلَىَّ هُمُوم[١٠]

(١) الأغانى ٢٠ : ١٦٥ ، ديوانه ص : ٨٤ .
(٢) الأزوال : جمع زول وهو الخفيف الظريف .
(٣) الأغانى ٢٠ : ١٥٩ ، ديوانه ص : ٩٠ .
(٤) الحول المجرم : الكامل .
(٥) المولى : ابن العم .
(٦) صمم : قَطَع .
(٧) متهضم : تهضم حقوقه .
(٨) ديوانه ص : ٨٧
(٩) شابة : جبل بنجد . أروم : جبل لبنى سعليم .
(١٠) أجهشت : أبكت .

ودونى من الدَّهْنَا بساطٌ كأنه إذا انجابَ ضوءُ الصُّبْحِ عنه أديمُ(١)

وعندما خاف أن يعدم لقتله إسماعيل بن هبار ، وضاقت عليه وسائل النجاة من السجن والقصاص ، لم يجد غير قتل السجان سبيلا إلى الخلاص مما كان يخشى من الموت ، فاغتاله وهرب من السجن ، وأخذ يردد أنه إنما اغتاله للإفلات من المكروه(٢):

ولما رَأَيْتُ البابَ قد حيلَ دُونَهُ وخِفْتُ لِحاقاً من كتابٍ مُؤَجَّل
تركْتُ عِتاقَ الطير تَحْجلُ حَوْله على عُدَوَاءَ كالحِوارِ المُجَدَّل(٣)

وظاهر أن القتال الكلابى يختلف عن مالك بن الريب الذى لم يتصعلك إلا لأنه افتقر وابتأس ، ولأنه رفض حياة العوز والمهانة والبؤس ، ولكنه حين وجد من ييسر له أسباب الحياة التى ينشدها كف عن التصعلك وقطع الطرق وآمن بتعاليم الإسلام أعمق إيمان وسعى إلى نشرها . أما القتّال فكان ممثلا للصعلوك المتشبث بالقيم الجاهلية ، وكما أنه إنما تصعلك واستهتر بالفتك ، لأن عشيرته انقادت للنظام وفضلت السلم على الحرب . و لم يكن هو يؤمن بما آمنت به و عملت له ، بل كانت نوازع التمرد والعصبية والشر غلابة عليه ، فتخلت عشيرته عنه ، وأغراه ذلك بالتمرد عليها وعلى القانون والسلطان ، فعاش حياته مشرداً مطلوباً لصّافاتكاً سفاكاً للدماء .

---

(١) الأديم : الأرض الواسعة .

(٢) ديوانه ص : ٧٥ .

(٣) عدواء : العدواء : الأرض الصلبة . الحوار المجدل : ولد الناقة المصروع .

٣

صعلوك سياسى طامع

عبيد الله بن الحر الجعفى[1] :

هو من بنى مذحج ، ولد ونشأ بالكوفة . وكان فى صدر شبابه من أفضل قومه صلاحاً وصلاة واجتهاداً واجتناباً للفواحش ، كما كان من شجعانهم وفرسانهم المعدودين . وتزوج امرأة من قومه اسمها كبشة بنت مالك ، وضعت له ثلاثة من البنين هم : صدقة وبرّة والأسعر ، وبنتين هما : سَلَمَة وتَوْبَة .

وأخباره فى أطوار حياته كلها واضحة ومتسقة ، فقد انضم فى ريعان صباه إلى جيوش الفتوح الإسلامية ، وساهم فى غزوة القادسية . ثم رجع إلى الكوفة وأقام بها إلى أن قتل عثمان ، فأعلن أنه من شيعته ، وآلى على نفسه أن ينصره ويطالب بدمه ، فانحدر إلى الشام ، وشايع معاوية بن أبى سفيان ، وشهد معه موقعة صفين ولم يزل عنده وهو يكرمه ويقدمه إلى أن علم أن جماعة من رفاقه يتوافدون عليه ويترددون على منزله فارتاب معاوية منه ، وخشى من غدره به ، فسأله عنهم ، فقال له : « إنهم بطانتى وأصحابى وإخوتى أتقى بهم إن نابنى أمر أو خفت ظلامة أمير جائر » . فازداد معاوية شكاً فيه ، وحذره من أن يكون ميالا لعلى ، فاصطدم معه وجهر له بأنه من الموالين لعلى لأنه على حق ، وخرج من عنده حانقاً مغيظاً ، ويمم وجهه شطر الكوفة . وفى طريقه إليها اعترضه بعض جنود معاوية وحاولوا منعه من مواصلة السير ، فشد هو وأصحابه عليهم ، وقتلوا نفراً منهم ، وأخذوا ما احتاجوا إليه من سلاحهم . ومضوا لا يمرون على قرية من قرى الشام إلا أغاروا

---

(١) انظر ترجمته وأخباره فى المحبر ص : ٢٣١ ، وأسماء المغتالين ص : ٢٦٨ ، والكامل للمبرد ٢ : ٣٣٩ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١ ، والحيوان ١ : ١٠٣ ، ورسائل الجاحظ ٢ : ٨٩ ، وجمهرة أنساب العرب ص : ٤١٠ ، والاشتقاق ص : ٤٠٨ ، وذيل الأمالى ص : ١٠٤ ، ٢٢٠ ، والطبرى ٢ : ٧٦٦ ، وأنساب الأشراف ٥ : ٢٩٠ ، وخزانة الأدب ١ : ٢٩٧ .

عليها ونهبوها حتى وصلوا إلى الكوفة .

ولم يقصد عليًّا بل ابتعد عنه حتى قتل ، واستخلف معاوية ، فبدأت نوازع الثورة والتمرد تتسلط على نفسه ، وما هى إلا أن يتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد ويثور عبد الله بن الزبير بمكة وتضطرب سائر الأمصار على يزيد ، فإذا هو يستقر فى نفسه أن قريشاً لن تنصف ، وأن العرب لن تصلح حالهم ، ولن تتوحد كلمتهم ولن تجتمع صفوفهم ، فيحتاط للأمر ويعد له العدة داعياً رفاقه أن يكونوا يقظين مستعدين لكل طارئ . ويلتف حوله من خلعاء القبائل سبعمائة فارس . ولا يصنع شيئاً ، بل يظل صابراً ينتظر أن تنجلى الأمور . ويخرج الحسين بن على من مكة إلى الكوفة ، ويمر به وهو معتزل بشاطئ الفرات ، ويدعوه إلى نصرته فلا يستجيب له ، ويقتل الحسين بكربلاء ، ويعود ابن الحر إلى الكوفة ، ويظن عبيد الله بن زياد أنه كان فى جيش الحسين وأنه قاتل معه ، ويشدد الحراسة عليه ، فيستَفِزُّه ويستثيره ، ولا يلبث ابن الحر أن يعصى شرطته ، ويتوجه إلى كربلاء ، ويرثى الحسين بن على رثاء حارًّا يتفجع فيه عليه ، ويأسف لقعوده عن مساندته ؛ ومنه قوله[1] :

يقول أميرٌ غادرٌ حَقُّ غادر ... ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمهْ

فيا نَدَمى ألا أكونَ نَصَرْتُهُ ... ألَا كلُّ نَفْسٍ لا تُسَدِّد نادمهْ

وإنى لأنى لم أكنْ من حُماتِهِ ... لذو حَسْرةٍ ما إن تُفَارِقُ لازمهْ

ويتعقبه عبيد الله بن زياد ويرسل إليه الجيوش والقواد وهو يستظهر عليهم ويقهرهم ويعبث بأعماله ، ويعيث فى الكوفة وسوادها ، إغاظة له ، وخروجاً عليه . وتَشْتَدُّ ثورة ابن الزبير بمكة ، ويموت يزيد ، ويزداد الاضطراب فى كثير من الولايات ، وعندئذ يخلع ابن الحر عذاره ، ويدعو أصحابه من الخلعاء ، ويخرج بهم إلى المدائن ، ولا يدع مالا قدم للسلطان من الجبل إلا اغتصبه وأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه ممن خرجوا معه أو مكثوا بالكوفة .

فهل يمكن أن نستخلص من ذلك أن الأوضاع السياسية المضطربة ، وسوء

---

(١) الطبرى ٢ : ٣٨٩ .

ظن معاوية به ، وتشكك ابن زياد فيه هى التى حملته على التصعلك والعصيان ؟ تلك قضية تدل عليها أخباره السابقة ، غير أنه كان فيما يبدو ميالا بطبيعته إلى التمرد والغزو ، والقدماء أنفسهم يلاحظون أنه كان لا يعطى الأمراء طاعة[١] بل إن البلاذرى ليصفه بأنه كان رجلا لا يقاتل لديانة ، وإنما كان همه الفتك والتصعلك والغارات[٢] . وأيضاً فقد كان متقلباً متردداً متغيراً لا يستقر على رأى ولا يثبت على عقيدة ، ومما ينبئ بذلك أنه كان فى أول عهده تقيّادينّاً مجاهداً ، ثم انغمس فى السياسة بعد مقتل عثمان وأصبح عثمانيّاً[٣] ، ثم تحول عن معاوية بعد أن ناصره بصفين ورجع إلى على ، وتخلف عن مظاهرته ، ثم قعد عن مناصرة الحسين بن على ، ثم ندم لقعوده عن مساعدته .

هذا التشتت فى النفس ، والتردد فى الرأى ، والتمرد على الأمراء لابد أن يكون وراءها أسباب خلقتها ونمّتها ومكنت لها ، غير أن أكثر القدماء لم يعنوا بها ولا نصّوا عليها . والراجح عندى أنه لم يكن عربيّاً صحيحاً ، وإنما كان أبوه عربيّاً ، وكانت أمه سبية من السبايا ، ويظهر أنه لم يكن يُقَدَّرُ بسببها حق قدره ، ولا كان يرفع إلى المنزلة التى يستأهلها والتى كان يطمع فيها لما كان يتصف به من الورع والتقوى ، ومن الفروسية والبأس ، ومن أجل ذلك استشعر الظلم الاجتماعى ، وجنح إلى تحقيق ما يبتغيه بالعصيان والتمرد والثورة ، وهو نفسه يخبرنا بذلك قائلا[٤] :

إن تَكُ أُمّى من نساءٍ أَفَاءَها ... جيادُ القَنا والمُرْهَفاتِ الصَّفائحِ
فَتَبًّا لفضلِ الحُرِّ إن لَمْ أَنَلْ به ... كرائمَ أولادِ النساءِ الصَّرائحِ

ومعنى ذلك أن عوامل كثيرة أعدت لتصعلك ابن الحر ، إذ منها ما يرجع إلى قنوطه من صلاح العرب واجتماع كلمتهم ، لتفرقهم وتصارعهم على الحكم ، ومنها ما يرجع إلى نفسيته وما غلب عليها من التمزق والتشتت ، ومنها أيضاً ما يعود إلى إحساسه بالضيم لأنه لم يكن يعامل معاملة أبناء الحرائر على ما فيه من فضل . ولذلك آثر التصعلك لكى يظفر بما يريد لنفسه من المجد والعزة والغنى والجاه .

---

(١) خزانة الأدب ١ : ٢٩٧ .
(٢) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩١ .
(٣) جمهرة أنساب العرب ص : ٤١٠ .
(٤) الكامل للمبرد ٢ : ١٢١ ، وذيل الأمالى ص : ٢٢٠ .

وانضم إليه أمثاله من الخلعاء المنبوذين الذين كانوا ثائرين على قبائلهم لأنها خلعتهم وتبرأت منهم ، وأخذ يغير بهم على ولايات الدولة ويحتل بعضها ، ويستولى على خراجها ، وكأنما كان يريد أن يكوّن لنفسه دولة مستقلة هى دولة الصعاليك التى لا جور ولا انحراف ولا طبقية فيها ، وإنما فيها العدل والإنصاف ، فقد أغار على الكوفة وسوادها ، وعلى كسكر والأنبار والمدائن وغيرها من الكور ، وكان ينهب أموالها ، ويوزعها بين صعاليكه بالتساوى دون تفريق بينهم .

وعلى هذا النحو كانت حياة ابن الحر ثورة دائمة وإغارة مستمرة ، وطمعاً فى الجاه والسلطان ، ولذلك قاتل عبيد الله بن زياد ، واغتصب الأموال التى كانت ترد إليه من الجبل ومن سواد الكوفة ، فلما استولى المختار الثقفى على الكوفة دعاه إلى بيعته فبايعه لعله يفوز عنده بما يأمل ، وسرعان ما خرج عليه ؛ وجعل يغير على الكور التى دانت له ، وينهب أموالها ، فهدم المختار داره بالكوفة وحبس زوجته ، ولم يلبث أن قاد مائة وثلاثين من فرسانه المدججين بالسلاح وهاجم السجن ، وأخرج زوجته منه ، ثم عاود الإغارة على أعماله وتغلب على قواده وعماله فاتكاً ببعضهم ، وطارداً لغيرهم .

وكان فى أثناء منازلته لجيوش الأمويين ، وجيوش المختار الثقفى لايزال يطمع فى أن يَتَبَوَّأَ مركزاً ممتازاً ، ويكون من رجال الحكم البارزين ، ولذلك بايع المختار الثقفى ، فلما خيب أمله فيه ، وعاداه ، كما عاداه الأمويون لم يجد سبيلا إلى الفوز بما يريد إلا بالتقرب من عبد الله بن الزبير ، فانحاز إليه ، ويظهر أنه ساعد أخاه مصعباً فى تثبيت حكمهم بالعراق[1] وأن مصعباً لم يكافئه على ذلك ، بل أهمله وجفاه فكتب يشكوه إلى أخيه عبد الله مردداً أن مصعباً لا يقدمه ولا يؤثره ، بل يؤخره ويفضل عليه غيره ممن لا خير فيهم له ، وأنه يحتجب عنه ، ولا يسمح له بالدخول عليه ، وذكره بماله من فضل عليهم ، وما أسداه من خير لهم ، وهدده بأن ينفض عن مصعب وينحاز إلى عبد الملك بن مروان ، إذا هو لم يأمره بتغيير موقفه منه[2].

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٢٦٠ .
(٢) الطبرى ٢ : ٧٨٨ .

ولسنا ندرى هل كتب عبد الله بن الزبير إلى أخيه مصعب أن يترضى ابن الحر ويداريه ، أم أنه أهمله وتغافل عنه . ولكننا نعلم أن أصحاب مصعب حذروه من ابن الحر وخوفوه من أن يصنع فى ساطانه ما كان يصنع فى سلطان من كان قبله بالعراق ، فلم يزل يتلطف له ويعده المواعيد حتى أتاه فقيده وحبسه[1] .

ولم يلبث وجوه بنى مذحج أن استشفعوا له عند مصعب ، فأخرجه من السجن وأطعمه خراج « بادوريا » على أن يقاتل معه عبد الملك بن مروان ، فرفض زاعماً أن خراجها وخراج غيرها له[2] ، وامتنع عليه ، وأخذ يحرض صعاليكه على الثورة مزيناً لهم أن مصعباً ليس أشجع منهم ولا أعظم غنى ، وأنه لا يعرف له حقاً ولا فضلا ، فانقادوا له ، ومضى يغير بهم على الكور التى بايعت للزبيريين ودخلت فى طاعتهم ويُنَازِلُ الجيوش التى كان يوجهها إليه مصعب ، ويتغلب عليها. ثم إنه استقر بتكريت وطرد منها المهلب بن أبى صفرة عامل ابن الزبير فأرسل إليه مصعب جيشاً ضخماً كاد أن يقضى عليه ، فانحدر إلى الكوفة ونازل جيوش مصعب فى أيام متوالية تضعضعت معها قوته وقتل أكثر صعاليكه . غير أنه لم يستسلم له ، بل تحول من الكوفة إلى المدائن وقاتل قواد مصعب بها فى مواقع كثيرة ، انتصر فيها عليهم ، ثم انتقل إلى السواد وأخذ يجبى خراجه ويغير منه على ما جاوره[3] .

وعندما وجد أن مصعباً قد قتل معظم رجاله، وضيق عليه ، وأنه لا خير له فيه ، ذهب إلى عبد الملك بن مروان ، وأخبره أنه أتاه ليوجه معه جنداً إلى مصعب ليحاربه ويقضى عليه ، فأجزل عبد الملك العطاء له ، ووصل أصحابه بمائة ألف درهم ووعده بأن يمده بالخيل والرجال . فانطلق إلى الكوفة ، ونزل بمشارفها ، وهناك استأذنه أصحابه فى دخول الكوفة فأذن لهم ، وأمرهم أن يدعوا إخوانهم بها ليسيروا إليه . ويعلم بخبره عبيد الله بن عباس السلمى أحد عمال مصعب فيستشير الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة القباع خليفة مصعب على الكوفة فى أن يسير إلى ابن الحر ليقاتله ، فيأذن له ، ويقود إليه جيشاً كثيفاً ، وينازله وأصحابه منفضون

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩٥ ، والطبرى ٢ : ٧٧٠ .

(٢) طبرى ٢ : ٧٧٢ .

(٣) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩٦ .

من حوله ، وغائبون عنه ، فلا يتقهقر أمامه ، بل يصمد إلى أن أثخن هو وبقية أصحابه بالجراح ، ثم يَفِرُّ بفرسه ليعبر الفرات ، ويترامى إلى أسماع بعض النبيط أنه مطلوب لابن الزبير ، فَيَثِبُ عليه أحدهم وهو يعبر النهر ، ويغرقان سوياً فيه .

شعره :

كان أبو سعيد السكرى قد جمع أشعار ابن الحر فى كتاب اللصوص بما لامزيد عليه كما يقول البغدادى[١] . ورددنا مراراً أن هذا الكتاب ضاع ، غير أن ضياعه لا يعنى أننا لا نعثر لابن الحر على شئ من شعره ، ففى تاريخ الطبرى ، والجزء الخامس من أنساب الأشراف ، وحماسة ابن الشجرى ، ومعجم البلدان مقطوعات وقصائد عديدة له .

ويجرى معظم شعره فى نفس الموضوعات التى رأيناها عند الشعراء الصعاليك الأمويين ، ولا عجب فى ذلك ، فقد كان واحداً منهم ، عاش حياتهم ، وأحس مشاكلهم ، وسعى مثلهم إلى حلها والتغلب عليها ، بل إنه كان من أشهرهم وأقواهم شوكة ، وأكثرهم تمرداً وإغارة . ففى شعره حديث عن تشرده وتطوافه فى البلاد على نحو ما نرى فى قوله[٢] :

أَلَمْ تَرِنى بِعْتُ الإِقَامَةَ بالسُّرَى ولينَ الحَشَايَا بالجِيَاد الضَّوامِرِ

وقوله[٣] :

لا كوفةٌ أُمِّى ولا بصرةٌ أَبِى ، ولا أَنا يَثْنِينِى عن الرحلةِ الْكَسَلْ

وفيه تصوير لمشكلة الفقر التى كان يعانى منها ، والتى استشعر ما تجره على من ابتلى بها من الخمول والبؤس ، فاحترف الغزو والإغارة دون اكتراث للأهوال أو خوف من الموت ، لكى يصبح من أهل الثروة والجاه ، وممن يقصده المبتغون ويسألونه الخير والعطاء[٣] :

---

(١) حماسة ابن الشجرى ص : ٢٨ .

(٢) الطبرى ٢ : ٧٧٢ ، ومعجم البلدان ٧ : ١١١ .

(٣) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩٦ ، وحماسة الشجرى ص : ٢٨ .

لَعَلَّ القَنَا تُدْنِى بأَطْرَافِها الغِنى فَنَحْيَا كِراماً نُجْتَدَى ونُؤَمَّل

وفيه أيضاً تصوير لتهديده المختار الثقفى ومصعب بن الزبير اللذين دأبا على إرسال جيوشهما إليه لكى يقضيا عليه ، لأنه عاث فى أعمالهما ، واستولى على الأموال التى كان يمكن أن ترد إليهما ، من مثل قوله يتوعد المختار الثقفى متهماً إياه بأنه منافق دجال ، ومجازياً له غارة بغارة ، وسلباً بسلب ، ومهدداً إياه بالغزوات التى لا تبقى ولا تذر أحداً من جنوده[١] :

وما تَرَكَ الكَذَّابُ من جُلِّ مالنا ولا الزُّرْقُ من همدان غَيْرَ شريد

أَفى الحَقِّ أَنْ يَنْهَبْ ضياعِى شاكرٌ وَتأْمَنَ عندى ضَيْعَةُ ابن سعيد[٢]

فإِنْ لَمْ أُصَبِّحْ شاكرًا بكَتِيبةٍ فَعَالَجْتُ بالكَفَّيْنِ غُلَّ حَدِيدى

فما أَنا بابن الحر إِنْ لم أَرُعْهُمُ بخيلٍ تَعَادى بالكماة أُسود

ومن مثل قوله فى مصعب بن الزبير متوعداً له بالغارات التى يشنها عليه بأفراسه القوية وكماته المغاوير الذين سيقضون عليه قضاء مبرما[٣] :

فلا تحسبنى ابنَ الزبير كناعس إذا حَلَّ أَغْفَى أَو يُقالَ له ارْتَحِلْ

فإِن لم أُزِرْكَ الخيلَ تَرْدى عوابساً بفرسانها لا أُدْعَ بالحازم البَطَلْ

وإِن لم تَرَ الغاراتِ من كل جانب عليك فَتَنْدَمْ عاجلا أَيها الرجلْ

فَلَا وَضَعَتْ عندى حصَانٌ قناعَها ولا عِشْتُ إلا بالأَمانىِّ والعِلَلْ

وفى نفس المعانى السابقة تدور قطعته العينية ، إذ يرد فيها على تهديد ابن الزبير له ، منددا به ، ومستخفاً بتهديده ، ومنذراً له بغزوة يطعنه فيها طعنة تودى بحياته . ومايزال به يستفزه ويستدرجه لعله يخرج لملاقاته ومنازلته إن كان فيه فضل من شجاعة ، يقول[٤] :

---

(١) الطبرى ٢ : ٧٦٧ .

(٢) شاكر وابن سعيد من أخبار المختار الثقفى وشيعته .

(٣) الطبرى ٢ : ٧٧٢ ، ومعجم البلدان ٧ : ١١١ .

(٤) حماسة ابن الشجرى ص : ٢٩ .

أتَانى وعِيدُ ابن الزُّبَير فَلَمْ أُرَعْ ... وما مِثْلَ قَلْبى بالوَعيد يَرُوع

فلا تَرْمَينِّى بالوعيدِ فإنَّنى ... سأَتْرُكُ ما تَهْوَى وأَنْفَكَ أَجْدَع

فإنْ أَنَا لَمْ أَسْعَطْكَ غَيْظاً بغارةٍ ... وأصدع ما قد كان بالأَمس يرقع[١]

فلا وضَعَتْ عندى حَصَانُ قِنَاعَها ... ولا قَادنى للنَّاس قَلْبٌ مُشيَّع

سَنَعْلَمُ إنْ مَالَتْ بىَ الريحُ مِيْلَةً ... عليك غدًا أنّى أَوِ ايَّاك أَجْزَع

وبجانب ذلك فى شعره وصف لبسالته وقوته ، وعزيمته الماضية ، على شاكلة ما يتضح فى قوله[٢] :

أَرِينى فَتًى يُغْنى غَنَائِى ومَوْقفى ... إذا رَهَج الوَادى بوَقْعِ الحَوَافِرِ

أو قوله[٣] :

أَلَمْ تَعْلَمِى يا أُمّ تَوْبَةَ أَنَّنى ... أنا الفارِسُ الحَامِى حَقِيقَةَ مَذْحِجِ

وفيه كذلك وصف لسجنه عند ابن الزبير ، وما كان يقاسى من العذاب ، وكيف أنه كان صابراً على السجن ، يلوم نفسه لوفودها عليه حتى حبسه ، متخذاً من هذه الحادثة عبرة وعظة للمستقبل ، يقول[٤] :

وَقَدْ كان فى الأَرْضِ العريضَةِ مَذْهَبٌ ... وأَىُّ امرئٍ ضَاقَتْ عليه مَذَاهِبُهْ

وفى الدهر والأيام للمرء عــبرة ... وفيما مضى إن نابَ يوماً نوائبه

وعلى غير ما عهدنا عند الصعاليك المحبوسين لا يستعطف ابن الحر مصعباً وهو فى حبسه ، لكى يعفوعنه ، بل يقيم الحجة عليه ، ويستنكر سياسته فى إبعاده له وشكه فيه وتقريبه لسواه ، مما أضعف حكومته ، يقول[٥] :

أَتَطْعَنُ فى دِينى غداةَ أَتَيْتُكم ... وللدِّينِ تُدْنِى البَاهلىَّ وحَشْرَجا

---

(١) سعط : طعن بالرمح .

(٢) حماسة ابن الشجرى ص : ٢٨ .

(٣) الطبرى ٢ : ٧٦٧ .

(٤) المصدرنفسه ص : ٧٧١ .

(٥) الطبرى ٢ : ٧٧٩ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المُلْكَ قد شِينَ وَجْهُهُ ونَبْع بلاد الله قد صار عَوْسَجَا

وفى شعره فضلا عن ذلك كله حنين إلى زوجه وقد حبسها المختار ، كما يتمنى أن يعود إلى الإقامة بجانبها والعيش بهدوء ودعة معها ، على نحو ما كان يحيا فى أول صلته بها ، يقول[١] :

فما العَيْشُ إلاَّ أنْ أَزُورَكِ آمِنًا كعادَتِنَا من قَبْلِ حَرْبى ومَخْرَجى

وما أَنْتِ إلا هِمَّةُ النَّفْسِ والهَوَى عليك السَّلامُ من خَلِيطٍ مُسَجَّج

ما زِلْتُ مَحْبُوساً لِحَبْسِكِ واجِماً وإنِّى بما تَلْقِين من بعده شَجِ

على أن فى شعره موضوعات أخرى لم نظفر بها عند غيره من الصعاليك الأمويين ، فهو يصف صعاليكه وتراحمهم وتعاطفهم ، وكيف أنهم مجتمعون حوله يستمعون له ، وينقادون لأوامره ونواهيه ، يقول[٢] :

أَقُولُ لِفِتْيَان الصَّعالِيكِ أَسرِحوا بِأَموالكم أَو تهلكوا فى الهوالك

ستعلم إن جاريتنى يا ابن مالك إلى أَيِّنا مأْوى رِحَال الصعالك

ويبين أيضاً كيف أنه كان ينكل أشد التنكيل بمن كان لا يمتثل لأوامره ، ويخرج عليه ، كهذا الصعلوك الذى استيأس ، وحاول أن يثبط عزائم رفاقه ، فإذا هو لا يرتضى هذا الصنيع منه بل ينكره عليه ، وإذا هو يصرعه بسيفه لكى يكون عبرة لغيره ، يقول[٣] :

أَقُولُ لأَصْحَابى بِأَكنافِ جَازِرٍ ورَاذَانها هل تَأْمُلُون رُجُوعا[٤]

فقال امرؤٌ هيهاتَ ليس براجعٍ ولم تَكُ للتَّقْنِيطِ منه بَدِيعا

فَعَمَّمْتُهُ سَيْفِى وذلك حَالَتِى لِمَنْ لَمْ أَجِدْهُ سَامِعاً ومطيعا

ومن موضوعات شعره الجديدة العتاب ، فقد أسلفنا أنه شايع المختار بالكوفة

---

(١) المصدرنفسه ص : ٧٦٧ .

(٢) حماسة ابن الشجرى ص : ٢٨ .

(٣) معجم البلدان ٣ : ٣٧ .

(٤) جازر : قرية قرب النهروان ، وراذان : كورة بواد العراق .

لعله يجعله والياً أو زعيماً إن انتصر على الأمويين والزبيريين ، فلما لم يجد عنده ما كان يرتجيه فيه تحول عنه وحاربه ، ثم بايع للزبيريين ، وناهض مع مصعب ابن الزبير المختار وشيعته بالكوفة ، وكان أحد القواد الذين أبلوا بلاء حسناً فى القضاء على المختار يدعمه صعاليكه . وكان يظن أن مصعباً سيجازيه أعظم الجزاء لمساهمته الفعالة فى الإطاحة بالمختار وقتله . ولكنه ازور عنه ، ولم يقلده ولاية من الولايات ، ولا عملا من الأعمال ، ولا عامله معاملة طيبة ، فأحس أنه هضم حقه ، وأنكر فضله ، فأرسل هذه القصيدة يعاتب فيها عبد الله بن الزبير ويذكره بأياديه عليهم ، وهى تجرى على هذا النمط [١] :

أَبلغْ أَميرَ المؤمنين رسالةً ... فلستُ على رأيٍ قبيحٍ أُوَارِبُهْ

أَفى الحق أَن أُجْفَى ويَجْعَلَ مصعبٌ ... وَزيرَيْه من قد كُنْتُ فيه أُحَارِبُهْ

فكيف وقد أَبْلَيْتكُمْ حَقّ بَيْعَتى ... وَحقِّىَ يُلْوَى عندكم وأُطَالِبُهْ

وأَبْلَيْتُكُمْ ما لا يُضَيَّعُ مِثْلُهُ ... وآسَيْتكم والأَمرُ صَعْبٌ مَراتِبُهْ

فلما آسْتَنَارَ الملكُ وانقادتِ العِدَى ... وأُدْرِكَ من مالِ العِراقين رَاغِبُهْ

جَفَا مصعبٌ عَنّى ولو كان غَيْرَهُ ... لَأَصْبَحَ فيما بيننا لا أُعَاتِبُهْ

لقد رابنى من مصعبٍ أَن مُصْعباً ... أَرَى كُلَّ ذى غِشٍّ لنا هو صَاحِبُهْ

إذا قُمْتُ عند الباب أُدْخِلَ مُسلِمٌ ... وَيَمْنَعُنى أَن أَدْخُلَ البابَ حاجِبُهْ

وما أَنا إنْ حَلَّأْتُمُونى بواردٍ ... على كَدَرٍ قَدْ خُصَّ بالصَّفْوِ شَارِبُهْ

وهذا عتاب يحمل فى تضاعيفه فنونا من القول ، ففيه التلطف فى المخاطبة والتأدب فى عرض الحاجة ، وفيه الضيق والسخط ، وفيه الإنذار والتحذير . فقد استهله بمخاطبة عبد الله بن الزبير بأنه أمير المؤمنين لكى لا ينفر منه ولا يتغافل عنه ، ثم شرع فى عرض قضيته عليه ، مردداً أنه تحزب لهم وأخلص إليهم فى أعقد الظروف وأخطرها ، حتى تم النصر لهم ، وحكموا العراق ، وأصبحوا يجبون خراجه الضخم . وكان ينتظر بعد ذلك أن يَفُوا له ، وأن يحظى عندهم بمنزلة

---

(١) الطبرى ٢ : ٧٧٨ ، ورسائل الجاحظ ٢ : ٧٩ .

رفيعة كأن يكون وزيراً أو يشارك معهم فى رسم سياسة دولتهم . غير أن مصعباً تشاغل عنه وأساء إليه ، فإن كتب عبد الله إلى مصعب أن يقربه ويحتفى به ظل وفيًّالهم ، وإلا فصعاليكه لايزالون معه ، وهو قادر أن يحقق بهم ما يبتغيه لنفسه من المركز والسلطان .

ولم يعاتب عبد الله بن الزبير فحسب ، بل عاتب أيضاً أخاه مصعباً عتاباً لا أدب فيه ولا تلطف ، بل فيه القسوة والتعنيف والتسفيه لسياسته مع السخط عليه لأنه لم يحتفل به بل أبعـــده وقرب غيره واعتمد عليهم على نحو ما يظهر فى قوله(١) :

بأَىِّ بلاءٍ أَمْ بأَيَّةِ نِعْمَةٍ تَقَدَّم قبلى مُسْلمٌ والمهلبُ
ويُدْعَى ابنُ مَنْجُوفٍ أَمامى كأَنَّه خَصِىٌّ أَتَى للماء من غَيْرِ مَشْربِ

ويكشف عتابه لعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب عن مطامعه وآماله التى كانت تراوده والتى كان يسعى إليها ، فهو لم يساعدهم إيماناً بمذهبهم ، وإنما نصرهم لكى يقلدوه المناصب الممتازة ، ولكى يكون رجـــلا عظيماً من ذوى الجاه والنفوذ فهو طامع فى السلطة ، طامح إلى المركز ، تواق إلى العظمة ، سواء عند الزبيريين أو عند الشيعة أو عند الأمويين ، ولذلك جرب حظه معهم جميعاً ، ولكنه لم يوفق فى تحقيق ما يبتغى عند أحد منهم .

وآخر ما نقف عنده من موضوعات شعره وصفه لمعاركه مع المختار ومصعب وقوادهما ، فقد انحاز إلى هذين الحزبين إلى حين ، ثم تحول عنهما وعاداهما عداء خاض معه أياماً مستمرة ضدهما . ومن خير ما يصور مصارعته للمختار قوله(٢) :

سائِلْ بِىَ المختارَ كم قَدْ أَذْعَرْتُه وشَرَّدْتُ أطرافاً له وجُموعاً
وَقَاتَلْتُهُ والناسُ قَدْ اذْعَنُوا له وقد أَقْشَعَ الأَحْيَاءُ عنه جميعاً

أما وصفه لحروبه مع مصعب فنمثل لها بهذه الأبيات التى يتحدث فيها عن تمزيقه لجيش يزيد بن الحارث بن رؤيم الشيبانى عامل مصعب على المدائن ،

---

(١) الطبرى ٢ : ٧٧٩ .

(٢) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩٤ .

وكيف أنه فتك به فتكاً ذريعاً ، حتى تقهقر هو وجنوده أمامه وقد أثخنتهم الجراحات فعاذوا بإيوان كسرى هرباً منه ، وكأنهم المِعْزَى تفرّ من الذئب خشية أن يأكلها[١]

سَلُوا ابنَ رُوَيْمٍ عن جِلادي ومَوْقفي ... بإيوان كسرى لا أُوَلِّيهمُ ظهري

أَكُرُّ عليهم مُعْلَماً وتَرَاهُمُ ... كَمِعزَى تَحَنَّى خشيةَ الذئبِ بالصَّخر

وبَيَّتُّهُمْ في حِصْن كِسْرَى بن هُرْمُزٍ ... بمشحوذةٍ بيضٍ وخَطِّيَّةٍ سُمْرِ[٢]

فأَجْدَيْتُهُم طَعْناً وضَرْباً تَراهُمُ ... يَلوذون منَّا مَوْهناً بِذُرَى القصر

ومن أدل الأمثلة على وصفه لحروبه مع المختار ومصعب هذه الأبيات التي يفتخر فيها بقضائه على جيش من جيوش مصعب قتلا وأسراً ، وبإفنائه لجيش من جيوش المختار ، كما يتهكم فيها أيضاً من سحره وشعوذاته التي كان يشيعها في جنده ، وكيف أنه أبطلها[٣] :

ويوم بِحَوْلاَ يَا فَضَضْتُ جُمُوعَهُمْ ... وأَفْنَيْتُ ذاك الجيش بالقتل والأَسرِ[٤]

فَقَتَّلْتُهُمْ حتى شَفَيْتُ بقَتلِهِمْ ... حَرَارَةَ نَفْسٍ لا تَذِلُّ عَلَى القَسْرِ

ومن شِيعةِ المختارِ قبْلُ شَفَيْتُها ... بَضَرْبٍ على هاماتِهِمْ مُبْطِلِ السِّحْرْ

ولعله اتضح كيف أن الأسباب التي أنشأت عبيد الله بن الحر تغاير الأسباب التي أنشأت مالك بن الريب والقتّال الكلابي ، وكيف أن أهدافه من تصعلكه تباين أهدافهما حين تصعلكا . فقد استولت عقدة النقص التي أحسها لكون أمه سبيّةً على نفسه ، وجعلته يعمل جاهداً من أجل الزعامة والرئاسة ، فالأ الأمويين ضد الشيعة ، ثم تحزب للشيعة ضد الأمويين ، ثم تعصب للزبيريين ضد الشيعة والأمويين ، ولكنه أخفق في الوصول إلى غايته ولاقى حتفه وهو يسعى إليها .

---

(١) الطبري ٢ : ٧٧٦ .

(٢) المشحوذة البيض : السيوف اللامعة الصقلية . الخطية السمر : الرماح .

(٣) معجم البلدان ٣ : ٣٦٨ .

(٤) حولايا : قرية بنواحي النهروان .

الخاتمة

عرضنا فى هذا الكتاب للصعاليك فى صدر الإسلام ، والصعاليك فى العصر الأموى ، أما فى صدر الإسلام فتضاءلت حركة الصعلكة وقل عدد الصعاليك ، لأن الإسلام وضع الحلول لكل المشاكل التى صادفت الصعاليك فى العصر الجاهلى وحملتهم على الثورة والتمرد ، كما أرسى القواعد لحماية المجتمع من كل شاذ ومنحرف ومجرم . وبذلك لم يعد من سبب يدعو الصعاليك المخضرمين إلى الاستمرار فى التصعلك ، ولا كان فى وسعهم أن يصطنعوا الإغارة على الناس لأن الإسلام يحرم مثل هذه الأعمال ويعاقب عليها ، فكف أغلبهم عن الغزو وتأثر بعضهم بتعاليم الإسلام واستضاء بقوانينه الخيِّرة العادلة ، إلا قلة قليلة منهم غلب الشر على نفوسهم فجعلوا قصدهم إيذاء الناس إما بهجائهم وإما بالإغارة عليهم .

وظهرت حركة الصعلكة بوضوح فى العصر الأموى ، وكانت نتيجة لعوامل متعددة أنشأتها وعملت على ظهورها واستمرارها ، إذ استشعر بعض الصعاليك الظلم الاقتصادى الذى أوقعته الدولة عليهم وعلى قبائلهم فثاروا لدفع الظلم والمحافظة على كيانهم وعزتهم وكسب أقواتهم . وخلعت بعض القبائل أبناءها الفاسدين والمجرمين ، وأهملتهم وتخلت عنهم ، وأخذت الدولة تطاردهم لتقبض عليهم وتضرب على أيديهم ، فاضطروا إلى التصعلك . وكذلك كان الشأن بالقياس إلى بعض الصعاليك الذين تمثلوا تفرق كلمة العرب وتصارعهم على الحكم ، وما كان من هضم الأمويين لحقوق القبائل القيسية وعنفهم بها ، فخرج بعض أفرادها عليهم ، وحاولوا الإطاحة بهم ، تارة بالانضمام إلى الأحزاب التى عارضتهم وثارت ضدهم ، وتارة بتكوين جيش من الصعاليك والانقضاض به عليهم ، غير أن الصعاليك السياسيين لم يكونوا جميعاً من القبائل القيسية ، وإنما كان بعضهم منها ، كما كان غيرهم من القبائل اليمنية مثل عبيد الله بن الحر الجعفى .

وتألف الصعاليك الأمويون من ثلاث طوائف أولاها طائفة الصعاليك الفقراء ، وثانيتها طائفة الصعاليك الخلعاء والجناة الفارين من العدالة ، وثالثتها طائفة الصعاليك

السياسيين . وكانت حياتهم جميعاً شاقة قاسية أساسها التشرد فى قفار الأرض ، ومع ذلك فقد كانوا أباة نبلاء صابرين أقوياء ، فمالوا إلى فرض وجودهم وتحقيق كيانهم وكسب أرزاقهم برماحهم . وصادفتهم فى حياتهم مشاكل كثيرة ، كما كانت لهم أهداف متنوعة . وأهم مشكلة قاسوا جميعهم منها هى مشكلة الفقر ، فقد أحسوا إحساساً عميقاً ما يصاب به الفقير من البؤس والخمول ، فآثروا الغنى على الفقر ، والعمل على الكسل ، وتعاطوا الإغارة والغزو نافرين من الحياة الذليلة ، ومستهينين بالموت فى سبيل تحقيق غاياتهم . وكان للصعاليك الخلعاء والجناة مشكلة أخرى وهدف آخر ، ذلك أن قبائلهم تحللت منهم وتنصلت من جرائرهم وكأنهم لا ينتسبون إليها ، فدعوها بقوة أن تنتصر لهم وتدافع عنهم ، لأنهم منها وإليها ، ومن حقهم عليها أن تقف بجانبهم وتنهض بتحمل مسئولياتها نحوهم . كذلك كان للصعاليك السياسيين غاية مباينة لغايات الصعاليك الفقراء والخلعاء والجناة ، إذ كانوا يريدون تقويض أركان الحكم الأموى وإقامة حكم عادل لا ظلم ولا تفريق فيه ، بل فيه الإنصاف والمساواة .

وتوزعت أشعارهم موضوعات متعددة منها الجديد ومنها القديم . أما الموضوعات الجديدة فأشهرها وصفهم لحياة السجون وحراسها وعقابها وأدوات التعذيب بها ووسائله ومن يقومون بتنفيذه . ومنها مدحهم للخلفاء والولاة لكى يشفعوا لهم أو يتغاضوا عن أعمالهم ، كما امتدح بعضهم من ثاروا على الدولة وعصوا سعاتها . ومنها الحنين إلى الاستقرار ومزايلة حياة التشرد والبعد عن أوطانهم وأهلهم وزوجاتهم وأبنائهم . ومنها أيضاً التوبة والاعتذار والاستغفار والتضرع إلى الله أن ينجيهم من العذاب ولا يدخلهم النار . أما الموضوعات القديمة فأهمها تصويرهم لحياتهم وما قامت عليه من التأبد فى الفلوات ، وتصويرهم مرافقتهم لحيوان الصحراء ، وإلفهم له وإلفه لهم ، وهجاؤهم لقبائلهم ولبعض العمال ممن توعدوهم بالعقاب الشديد. وطبعت أشعارهم بأغلب الصفات التى طبعت بها أشعار سالفيهم من الصعاليك الجاهليين ، إذ كانت فى مجموعها مقطوعات ، أهملوا فيها المقدمات ، وما كان يعقبها من وصف الرحلة والبعير والصحراء المخوفة ، واتصفت أيضاً بالوحدة الموضوعية ، وتميزت بجانب ذلك بالبساطة والخلو من الألفاظ الصعبة والقوالب المعقدة

إلا قليلا من الكلمات الغامضة الغريبة التى تلقى الدارس لأشعارهم بين الفينة والأخرى .

وكان مالك بن الريب أكبر صعلوك فقير تمثل الاختلال الاقتصادى والسياسة المالية الجائرة التى اتبعها الأمويون مما حمله على الثورة عليهم وقطع الطرق فى أيامهم نكاية بهم ، ووسيلة إلى العيش فى ظل حكومتهم . وكان القتّال الكلابى أشهر صعلوك خليع متعصب لم يؤمن بالحياة الجديدة ونظمها ، ولا ارتضى أن تنزل قبيلته عن تقاليدها وتقعد عن مناصرة أبنائها ، أما عبيد الله بن الحر الجعفى فكان أهم صعلوك سياسى سعى إلى المركز ، وعمل من أجل العظمة والمجد الشخصى .

المصادر والمراجع

(ا) المصادو القديمة :

١ ــ الآمدى ــ أبو القاسم الحسن بن بشر (ــ ٣٧٠ هـ)

المؤتلف والمختلف

تحقيق عبد الستار أحمد فراج ــ طبع دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١

٢ ــ الأبشيهى ــ شهاب الدين أحمد

المستطرف من كل فن مستظرف

طبع مطبعة التقدم العلمية بمصر ــ الطبعة الأولى ١٣٢٠

٣ ــ الأصفهانى ــ أبو الفرج على بن الحسين بن محمد الأموى (ــ ٣٥٦ هـ)

الأغانى

طبع دار الكتب وطبعة الساسى حسب ما يذكر فى الهوامش

٤ ــ الأصمعى ــ أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ــ ٢١٦ هـ)

الأصمعيات

تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ــ طبع دار المعارف ــ الطبعة الثانية ١٩٦٤

٥ ــ ابن الأنبارى ــ أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد

نزهة الألباء فى طبقات الأدباء

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ طبع دار نهضة مصر

٦ ــ البحترى ــ أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى (ــ ٢٨٤ هـ)

الحماسة

طبع المطبعة الرحمانية بمصر ــ الطبعة الأولى ١٩٢٩

٧ ــ البغدادى ــ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر

الفرق بين الفرق

تحقيق محمد زاهد

٨ ــ البغدادى ــ عبد القادر بن عمر (ــ ١٠٩٣ هـ)

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب

طبع مطبعة بولاق

٩ — البلاذرى — أحمد بن يحيى بن جابر

١ — الأخبار الطوال

تحقيق عبد المنعم عامر — طبعة وزارة الثقافة والإرشاد بالقاهرة — الطبعة الأولى ١٩٦٠

٢ — أنساب الأشراف

طبع مكتبة المثنى ببغداد

٣ — فتوح البلدان

طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٥٩

١٠ — أبو تمام — حبيب بن أوس الطائى (—٢٣١ هـ)

الوحشيات

تحقيق عبد العزيز الميمنى — طبع دار المعارف ١٩٦٣

١١ — الجاحظ — أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (— ٢٥٥ هـ)

١ — البيان والتبيين

تحقيق عبد السلام هارون — الطبعة الثانية ١٩٦١

٢ — الحيوان

تحقيق عبد السلام هارون — الطبعة الأولى ١٩٣٨

٣ — الرسائل

تحقيق عبد السلام هارون — الطبعة الأولى ١٩٦٥

٤ — المحاسن والأضداد

طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٣٢

١٢ — الجهشيارى — أبو عبد الله محمد بن عبدوس

الكتاب والوزراء

تحقيق مصطفى السقا و زملائه — طبع مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده

١٣ — ابن الجوزى — أبو الفرج عبد الرحمن بن على

كتاب الأذكياء

طبع المكتب التجارى ببيروت

١٤ — ابن حبيب — محمد بن حبيب بن أمية (— ٢٤٥ هـ)

١ — أسماء المغتالين من الأشراف فى الجاهلية والإسلام

٢ — ألقاب الشعراء

٣ – كنى الشعراء
وكلها تحقيق عبد السلام هارون – طبع مكتبة الخانجى
٤ – المحبر
طبع الهند ١٩٤٢

١٥ – الحريرى – القاسم بن على
درة الغواص فى أوهام الخواص
طبع القسطنطينية ١٢٩٩

١٦ – ابن حزم – على بن سعيد (– ٤٥٦ ﻫ)
جمهرة أنساب العرب
تحقيق عبد السلام هارون – طبع دار المعارف ١٩٦٢

١٧ – الخالديان
المختار من شعر بشار
تصحيح محمد بدر الدين العلوى

١٨ – ابن خلكان – شمس الدين أحمد بن محمد (– ٦٨١ ﻫ)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – طبع مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨

١٩ – ابن دريد – أبو بكر محمد بن الحسين (– ٣٢١ ﻫ)
الاشتقاق
تحقيق عبد السلام هارون
طبع مؤسسة الخانجى بمصر ١٩٥٨

٢٠ – الراغب الأصفهانى – أبو القاسم حسين بن محمد
محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء
طبع مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦١

٢١ – أبو زيد القرشى – محمد بن أبى الخطاب
جمهرة أشعار العرب
طبع بيروت ١٩٦٣

٢٢ – السجستانى – أبو حاتم سهل بن محمد (– ٢٥٥ ﻫ)
كتاب المعمرين والوصايا
تحقيق عبد المنعم عامر – طبع مكتبة عيسى البابى الحلبى ١٩٦١

٢٣ — ابن سلام — محمد بن سلام الجمحى (—٢٣١ هـ)
طبقات فحول الشعراء
تحقيق محمود شاكر — طبع دار المعارف ١٩٥٢

٢٤ — السمعانى — عبد الكريم بن محمد بن منصور (— ٥٦٢ هـ)
الأنساب
طبعة الهند ١٩٦٤

٢٥ — السيوطى — جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (— ٩١١ هـ)
شرح شواهد المغنى
طبع المطبعة البهية بمصر

٢٦ — ابن الشجرى — هبة الله بن على بن محمد (— ٥٤٢ هـ)
كتاب الحماسة
طبعة الهند ١٣٤٥

٢٧ — الشريف المرتضى — على بن الحسين (— ٤٣٦ هـ)
غرر الفوائد ودرر القلائد
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — الطبعة الأولى ١٩٥٤

٢٨ — الشهرستانى — محمد بن عبد الكريم (— ٥٤٨ هـ)
الملل والنحل
تحقيق محمد سيد الكيلانى — طبع مكتبة مصطفى الحلبى ١٩٦١

٢٩ — الطبرى — أبو جعفر محمد بن جرير (— ٣١٠ هـ)
تاريخ الأمم والملوك
طبعة أوربا

٣٠ — ابن الطقطقى — محمد بن على
الفخرى فى الآداب السلطانية
طبع مطبعة المعارف ١٩٢٣

٣١ — طهمان بن عمرو الكلابى
ديوانه
ضمن كتاب صنعة السرج واللجام لابن دريد .
تحقيق محمد جبار
طبع مطبعة الإرشاد ببغداد ١٩٦٨

٣٢ — العباسي — عبد الرحيم بن عبد الرحمن
شرح شواهد التلخيص
طبع المطبعة البهية بمصر ١٣٠٤

٣٣ — ابن عبد ربه — أحمد بن محمد (— ٣٢٨ ﻫ)
العقد الفريد
تحقيق أحمد أمين و زملائه — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر

٣٤ — أبو عبيد البكرى — عبد الله بن عبد العزيز (— ٤٨٧ ﻫ)
١ — سمط اللآلى
تحقيق عبد العزيز الميمنى ١٩٣٦
٢ — معجم ما استعجم
طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥

٣٥ — أبو عبيدة — معمر بن المثنى
شرح نقائض جرير والفرزدق
تحقيق بيفان — طبعة ليدن ١٩٠٥

٣٦ — الفرزدق — همام بن غالب
ديوانه
طبع مطبعة الصاوى ١٩٣٦

٣٧ — القالى — أبو على إسماعيل بن عبدون (— ٣٥٦ ﻫ)
١ — كتاب الأمالى
طبع مطبعة السعادة — الطبعة الثالثة
٢ — ذيل الأمالى والنوادر
طبع مطبعة السعادة — الطبعة الثالثة

٣٨ — القتال الكلابى
ديوانه
تحقيق الدكتور إحسان عباس — طبع دار الثقافة ببيروت ١٩٦١

٣٩ — ابن قتيبة — عبد الله بن مسلم (— ٢٧٦ ﻫ)
١ — الإمامة والسياسة
طبعة القاهرة ١٣٢٥

٢ ــ الشعر والشعراء
تحقيق أحمد شاكر – طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٦
٣ ــ عيون الأخبار
طبعة دار الكتب – القاهرة ١٩٢٥

٤٠ – مؤلف مجهول
مجموعة المعانى
طبعة القسطنطينية ١٣٠١

٤١ – المبرد – أبو العباس محمد بن يزيد (– ٢٨٥ هـ)
الكامل
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته – طبع مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦

٤٢ – المرزبانى – محمد بن عمران (– ٣٨٤ هـ)
معجم الشعراء
تحقيق عبد الستار أحمد فراج – طبع دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠

٤٣ – المرزوقى – أحمد بن محمد بن الحسن (– ٤٢١ هـ)
شرح ديوان الحماسة
تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون – طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١

٤٤ – المصعب الزبيرى (– ٢٣٦ هـ)
نسب قريش
نشر ليفى بروفنسال – طبع دار المعارف

٤٥ – المسعودى – على بن الحسين (– ٣٤٦ هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – الطبعة الثانية ١٩٥٨

٤٦ – ابن منظور المصرى (– ٧١١ هـ)
لسان العرب
طبعة بولاق

٤٧ – أبو هلال العسكرى – الحسن بن عبد الله بن سهل (– ٣٩٥ هـ)
ديوان المعانى
طبع مكتبة القدسى بالقاهرة ١٣٥٢

٤٨ – ابن هشام – أبو محمد عبد الملك (– ٢١٨ ﻫ)

السيرة النبوية

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – طبع القاهرة ١٣٨٣

٤٩ – الهذليين

ديوان الهذليين

طبع الدار القومية ١٩٦٥

٥٠ – أبو يوسف – يعقوب بن إبراهيم (–١٩٢ ﻫ)

كتاب الخراج

طبع المطبعة السلفية

٥١ – ياقوت الحموى – أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى (– ٦٢٦ ﻫ)

١ – معجم الأدباء

طبع دار المأمون بالقاهرة ١٣٥٥

٢ – معجم البلدان

طبع مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦

٥٢ – اليعقوبى – أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر (– ٢٩٢ ﻫ)

تاريخ اليعقوبى

طبعة النجف ١٩٦٤

(ب) المراجع الحديثة :

٥٣ – أحمد أمين

الصعلكة والفتوة فى الإسلام

طبع دار المعارف ١٩٥٢

٥٤ – أحمد الحوفى

الحياة العربية من الشعر الجاهلى

طبع مكتبة نهضة مصر – الطبعة الثالثة

٥٥ – أحمد الشايب

تاريخ الشعر السياسى

طبع مكتبة النهضة المصرية – الطبعة الثالثة ١٩٦٢

٥٦ — بارتولد

تاريخ الحضارة الإسلامية

ترجمة الدكتور حمزة طاهر — طبع مطبعة المعارف ١٩٤٢

٥٧ — بندلى جوزى

من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام

طبعة القدس

٥٨ — جورجى زيدان

تاريخ التمدن الإسلامى

نشرة الدكتور حسين مؤنس

٥٩ — شوقى ضيف

١ — التطور والتجديد فى الشعر الأموى

طبع دار المعارف — الطبعة الثانية ١٩٦٥

٢ — العصر الإسلامى

طبع دار المعارف ١٩٦٣

٣ — العصر الجاهلى

طبع دار المعارف ١٩٦٠

٦٠ — على الخربوطلى

تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى

طبع دار المعارف ١٩٥٩

٦١ — فان فلوتن

السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية

ترجمة الدكتور حسن إبراهيم ومحمد زكى إبراهيم — طبع مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٤

٦٢ — ماسينيون

خطط الكوفة

ترجمة المصعبى — طبع مطبعة العرفان بصيدا ١٩٤٦

٦٣ — محمد إسماعيل إبراهيم

الزكاة

طبع دار الفكر العربى بالقاهرة

٦٤ — يوسف خليف

الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى

طبع دار المعارف ١٩٥٩

٦٥ — يوليوس فلهوزن

١ — تاريخ الدولة العربية

ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده

٢ — الخوارج والشيعة

ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى طبع مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨